تاريخ العرب في اسبانيا

أو

تاريخ الأندلس

ألفه

محمد عبد الله عنان

المحامي

الطبعه الاولى

سنة ١٩٢٤ بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة للمؤلف

(وبعد) فهـذا كتاب فى تاريخ الأندلس أودعته خلاصة بحث مستفيض لما كتبه بشأنه مؤرخو العرب والأفرنج وغرضى أن أقدم الى القارىء صورة واضحة من ذلك التاريخ بجميع مظاهره الحربية والسياسية والاجتماعية وجميع أدواره من رفعة واضمحلال ثم نهاية

ولئن عد الاقدام على كتابة أمجد صحائف التاريخ العربي جرأة كبيرة فانها جرأة يبررها الاخلاص ورغبة حارة فى رفع ذلك المستوى الذى هبطت اليه الآداب التاريخية فى عصرنا : يبررها اختلال المؤلفات القديمة الضخمة ومرارة المراجعة فيها وتبررها ندرة المؤلفات التى تلائم ذوق المتعلم الحديث

حقاً أن وعورة المسلك تثبط همة الكاتب ولكن جمال الموضوع قد يشجعه على اقتحام المصاعب ولذا ما كدت أبدأ بانشاء أول فصل من ذلك التاريخ حتى راعنى تشعب الحوادث وأضلنى اختلاف الرواية ولكن شاقنى بهاء الموضوع وشجعنى سمو المجهود فغالبت المصاعب واستنهضت العزائم لاتمامه

وكل باحث في الموضوع يعرف بلا ريب ما يعانيه الكاتب في استخراج الحوادث من المؤلفات العربية القديمة ومن المؤلفات الافرنجية التي تفيض بالتعصب والتشيع وأن خلت من الاختلاط والاختلال على أني بين العناصر المتباينة شققت لنفسي طريقا وسطا وانتهجت نظاما يتفق مع الروح الحديثة لكتابة التاريخ : أردت أن أكتب تاريخ الاندلس ملوكا وشعوبا فطالما عامله المؤرخون الأقدمون تاريخا فرديا جله أقاصيص الخلفاء وأخبار الشعراء والندماء وأردت أن أطبق الانظمة السياسية الحديثة على حكومات الاندلس وانقلاباتها المختلفة وربما كانت هذه الغاية سبب ما قصدت من أغفال القصص الفرديه وذكر المناقب الشخصية بالاسهاب الذى يشوه المؤلفات العربية . ومع ذلك فاني لم أهمل فرصة يمتزج فيها التاريخ والادب ويروق فيها للمؤرخ أن ينتقل من سرد الحوادث الحربية الى ذكر الصفات والاخلاق الشخصية وللقارىء أن يتلو مميزات العظمة والبطولة . على أني لم أتوسع في ذلك خشية الخروج عن الحد الذي رسمته لذلك المؤلف من الاقتصار على التاريخ الدولي وربما عرضت لي فرصة لوضع مؤلف خاص في آداب الاندلس وحضارتها

ولقد عانيت مشقة كبيرة في التوفيق بين الروايات المختلفة واستخلاص الحقائق منها وكثيرا ما راجعت صحائف المؤلفات الافرنجية لاظفر منها بنبذ اجتماعية أوسياسية قد تخلو منها المؤلفات العربية كان

رائدى في نقلها منتهى الحذر والتحقيق دفعا لما قد يغشاها من المؤثرات الدينية أو القومية

وقد رأيت أن أتبع فى ترتيب فصول هذا الكتاب نظام المؤلفات الحديثة لان ذلك خير معين على تكوين فكرة صحيحة عن أدوار التاريخ الاندلسى فاتخذت انقلاب الحكومة أو انقراض الدولة أو نهوض المتغلب فاتحة لعصر جديد وخاتمة لدور من أدوار الحضارة وعنيت بالالمام بدقائق في الفتوحات والمواقع الحربية وأنظمة الحكومات المدنية لاحظت أنها مهملة فى المؤلفات القديمة مؤملا بذلك أن يتلى تاريخ الاندلس كما يتلى تاريخ الجمهورية الفرنسية أو الجمهورية الالمانية

ذلك ما أردت أن الفت نظر القارىء اليه فلا ينكر على أسلوبا جديداً فى رواية أو كتابة تاريخ القرون الوسطى . فألى أبناء اللغة العربيــة أقدم ثمرة جهود استغرقت شـطرا عظيما من فراغ دراستي القانونية ووافق استعدادى لتنظيمها وأعدادها للنشر أياما تكونت فيها وحدة الوطنية المصرية وجاشت بالقلوب آمال كبيرة ٭

القاهره فى مايو سنة ١٩١٩

محمد عبد الله عنانه
المحامى

ثبت

بأهم المراجع التي رجعنا اليها في وضع هذا الكتاب

تاريخ ابن خلدون
« الكامل لابن الأثير
المختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء
نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقري
الاستقصاء في أخبار دول المغرب الاقصى للسلاوي
مروج الذهب للمسعودي
تاريخ الأندلس للمراكشي

Dozy - Histoire des musulmans d' Espagne jusqu'a la conquête des Almoravides

Dozy-Recherches sur l'Histoire et la Littérature de l'Espagne pendant le moyen âge

Condé - Historia de la dominacion de los arabos en Espana

Gibbon - Decline and Fall of the Roman Empire

Aschbach - Geschichte der Omajaden in Spanien

Aschbach- Geschichte Spaniens and Portugals zur Zeit der Herrschaft des Almoraviden und Almohaden

Finlay - History of the Byzantine Empire

Ameer Ali - A short history of the Saracens

Lane - Pool - The Moors in Spain

الكتاب الاول

فتوحات العرب في أفريقيه وأوروبا

الفصل الاول

سياسة الفتح عند الروم والعرب

لما أقدم العرب لأول مرة على المغامرة فى سبيل الفتح بجندهم القليل وأهبتهم القاصرة راعتهم سهولة الفوز فى تمزيق العدو واجتياح أقطاره ولكن سرعان ما أدهشهم بعد ذلك ان تجرأ قوة فى الوجود على مناوأتهم أو دفع تيار ظفرهم نخرجوا من القفار بعد أن اختبروا مقدرتهم الحربية فيما بينهم من المعارك القومية والدينية متجهين نحو فارس فالشام ثم افتتحوا مصر وولايات أفريقيه ثم اسبانيا وجنوب فرنسا وتغلبوا فى مبدأ القرن الثامن على معظم آسيا الصغرى وحاصروا القسطنطينية غير مرة وكانت كل هذه البلاد خاضعة لدولة الروم [1]

---

(١) يطلق مؤرخو العرب هذه الكلمة على رومان الدولة الشرقية أو البيزنطيين فنراها فى حوادث فتح الشام ومصر وآسيا الصغرى وحصار القسطنطينية مستعملة بهذا المعنى وأحيانا يستعملها بعضهم خطأ للاشارة الى سكان الدولة الغربية . ولقد كانت القسطنطينية وما حولها وبلاد اليونان والشأم ومصر وشمال أفريقيه من أملاك الدولة الشرقية

وأمر هذه الفتوحات طبيعي تفسره ظواهر العمران والتاريخ فالدولة المضمحلة تجهز عليها أو تقهرها دولة ناهضة وليس ثمة أدعى الى وجود علاقة للغلبة والتغلب من احتكاك الدولتين المضمحلة والناهضة وتجاور أملاكهما : لهذا كان انحلال الدولة الرومانية الشرقية عاملا قويا في نهضة العرب وتحولهم بسرعة خارقة من قبائل صغيرة متجولة الى دولة قوية ثابتة الدعائم . ويمكننا ادراك ذلك بذكر الأسباب التي أدت اليه

تمتاز مبادئ القوانين الرومانية سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو دينية بتفريق حاد بين طبقات المجتمع فلا ينتظم في سلك الجيش أو المناصب الا وطني روماني ولا تتساوى بالوطنيين رعية البلاد التي تظللها الدولة بحمايتها أو تتمتع بكامل حقوقهم السياسية أو الاجتماعية : كانت الدولة الرومانية تعامل أملاكها كمصادر خصيبة لاغتصاب الاموال والأرزاق وكانت الكنيسة تعتبرها ميدانا لنشر دعوتها ودفع استبدادها الديني الى أقصاه فتجعل من أبنائها أشياعا أو شهداء وكان الاباطرة والحكام ورجال الدين ينشطون في مطاردة المسيحيين قبل انتشار النصرانية في جميع أنحاء الدولة ومستعمراتها وانا من ذلك الامثال الرائعة في عهد نيرون وخلفائه . فلما صارت النصرانيـة دينا للحكومة الرومانيـة ورعاياها انقلبت المطاردة الدينية الى اضطهاد من لم يعتنق ذلك الدين بتعاليمه التي بشرت بها رومه

وفي القرن السابع وصل سقم السياسة الرومانية غايته وأدى الاختلال

السائد فى جميع اقطار الدولة ألى اضمحلال سلطة القسطنطينية قاعدة الدولة الشرقية فلم يعد باستطاعة حكومتها أن تنقل كاهل المقاطعات بجماعات الموظفين التى كانت تستلب ثروتها وألجئت المدائن فى كل قطر أن تتولى بنفسها أمر الدفاع عن نفسها فبعثت الواجبات الجديدة فى الشعوب المحكومة روحا جديدة وخفت المغارم المالية والأعباء الشخصية التى كانت تفرضها حكومة رومه على رعاياها بلا تفريق بين الطبقات أو الاشخاص وذلك حينما سقطت الدولة الغربية فريسة للفاتحين وفاضت الدولة الشرقية بالاجانب من المستعمرين والنازحين

ولروح الانظمه والقوانين أثر هام فى قوى الدولة الرومانية فقد زالت الصبغة الوطنية عن أنظمتها الحربية عند ما استحال تنظيم الجيش من أبنائها وقصر نظام الوراثة فى وظائف الجيش عن أنشاء جيش ثابت يؤيد هيبة الدولة وسيادتها فى شاسع أقطارها ويصد غارات المعتدين عليها من كل صوب على أن هذه القوى لم تضمحل كثيراً من جراء فقد الروح القومية لدقة النظام الذى كان سائداً فى جميع الصفوف فقد ظلت الجيوش الرومانية قرونا تتألف من أسفل طبقات المجتمع ومن المرتزقة من سكان الجبال أو الأمم المستقلة فلم يمنع ذلك من انتصارها على القوط والوندال والعرب أحيانا . فلما سقطت الدولة الغربية ألفت الجيوش الرومانية من سكان المقاطعات بنسبة عظيمة استحال معها التفريق بين الجندي والوطنى ففاضت الروح

القوميـة التي دفعت الجيوش الرومانية فيما سلف ألى آكام أيكوسيا وسواحل البلطيق ولم تكف دقة النظام لأخماد المصالح والمطامع الفردية[١]

في ذلك الحين قامت تشرف على أطلال الدولة الرومانية قوة جديدة كانت لا تزال في بدأ نشأتها : أثارت تعاليم الاسلام الديموقراطية مجتمعا جديدا : جمهورية شعارها العدل والمساواة والحرية وميزاتها الزهـد والفضيلة . ولم تك سياسة الجمهورية العربية في أول أمرها الا مثابرة وأخلاصا في نشر الدعوة الاسلامية ومحاربة للكفر ففازت هذه السياسة بفتح فارس والشأم ومصر ثم انقلبت الحكومة الدينية ألى ملك سياسي وتحول نشاط الجيوش الأسلامية ألى تحقيق مبادىء السياسة الدولية من تأييد عظمة الدولة بالفتح والاستعمار في الوقت الذي يؤيد فيه الدين بالدعوة حيثما اندفع الفتح وسارت الروح الدينية والنهضة السياسية جنبا لجنب تنشأ دعامة الأولى على قواعد الثانية وللفاتحين من أصول الشريعة وقواعد الدين أسمى وازع في اتباع سياسة اللين والاعتدال وأقوى عامل في اتقاء كل سبب للتفريق بين الأفراد أو طبقات المجتمع في امتياز أو حق ديني أو سياسي : كانت تقام الكنائس حيثما قامت المساجد وكان للنصراني أو اليهودي من حرية الاعتقاد والتمتع بأقامة شعائر دينه ما للمسلم لا يمنع من

---

(١) جورج فنلى : تاريخ الدولة البيزنطية الفصل الاول القسم الثاني ـ أدوارد جيبون: اضمحلال وسقوط دولة الرومان في الفصلين السادس عشر والحادي والعشرين

ذلك فرض جزية على غير المسلمين هى كل ما يصحب الفتح من الا عباء وبالمساواة كانت تفرض الضرائب وبالاغضاء والتسامح كانت تطبق الشرائع : النصرانية واليهودية بجانب الشريعة الاسلامية — هكذا كانت روح الفتوحات العربية حتى بعد أن صار الدين تابعا للسياسة

فليس غريبا أن يسجل التاريخ أن توغل المسلمين فى الدول المسيحية كان فى الغالب محوطا بعطف الشعوب التي سعوا فى أخضاعها وأن الحكومات النصرانية كانت أنظمتها أبلغ في الاستبداد والظلم من الحكومات العربية وأن سكان الشام رحبوا بشيمة محمد وتعاون قبط مصر مع المسلمين على أخضاع الروم وقاتل البربر لافتتاح أفريقية بغضا منهم لحكومة القسطنطينية واغتباطا بحكم المسلمين . ولابد أن تقتسم الكنيسة والحكومة عبء هذه الوصمة أذ يصعب أن نحدد من العوامل والأسباب يمكن أن ينسب ألى جور الروم في فرض الضرائب واستلاب الارزاق أو ألى مبالغة الكنيسة في المطاردة الدينية والضغط على الضمائر وحرية الاعتقاد[١]

---

(١) فنلى : تاريخ الدولة البيزنطية الفصل الثالث القسم الاول جيبون ضمحلال وسقوط دولة الرومان . الفصل الحادى والخمسين

الفصل الثاني

فتوحات العرب فى أفريقية واسبانيا

القسم الاول — فتوحات العرب فى أفريقيـة (١) غزو برقه . فتح المغرب فى خلافة معاوية ثورة البربر ومقتل عقبة (٢) استئناف الفتح فى خلافة عبد الملك . قيام الكاهنه . هزيمة البربر (٣) موسى بن نصير حاكما لافريقيه — القسم الثانى — فتح اسبانيا - (٤) اسبانيا قبل الفتح . استبداد القوط (٥) عصر وتيزا . اعتدال المسلمين (٦) جلوس رودريك على عرش القوط مفاوضة الكونت يوليان لموسى بن نصير فى أمر الفتح . بعثة طريف (٧) عبور طارق الى اسبانيا . موقعة شريش أومدينا سدونيا . خطبة طارق . هزيمة القوط (٨) أستيلاء طارق على ألبيره ومالقه وتدمير وطليطلة غزوه لقسطيله وليون عبور موسى الى اسبانيا عتابه لطارق زحفه على أرجوزولا نجدوك . تصرف الوليد بن عبد الملك . أستدعاؤه لموسى وطارق (٩) مصير الفاتحين

القسم الاول

فتوحات العرب في أفريقية

١ . — لما استقر ملك بنى أمية بالمشرق وتولى معاوية بن أبي سفيان

عرش دمشق وجه عنايته ألى أتمام فتح أفريقيه[١] وكانت الجيوش العربية قدغزتها مرتين قبل ذلك ففى سنة أحدى وعشرين من الهجرة سار فاتح مصر عمرو بن العاص من مصر ألى برقه فصالح أهلها على الجزية ثم سار ألى طرابلس فاستولى عليها بعد أن حاصرها شهرا ولجأ سكانها ألى سفنهم في البحر[٢]. وفى خلافة عثمان توغل المسلمون فى قفار أفريقيه ففى سنة ست وعشرين من الهجرة سار عبد الله بن سعد الذى خلف عمرا فى ولاية مصر في أربعين ألف من جند العرب وعقبه بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقه ألى مجاهل هذه الولاية وعسكر بجوار طرابلس وهى أذ ذاك أغنى وأمنع بلاد البربر[٣] وقدم اقتاله

(١) يطلق العرب أسم أفريقيه على الاقطار الواقعة شمال هذه القارة دون مصر ويقسمونها الى ثلاثة أقسام الاول المغرب الاقصى مبتدأ من المحيط الى تلمسان والثانى المغرب الادنى مبتدأ من وهران ألى حدود الجزائر شرقا والثالث افريقيه ممتدا من حدود الجزائر شرقا ألى حدود مصر الغربية

(٢) الاستقصاء فى أخبار دول المغرب الاقصى للسلاوى ج ١ ص ٣٤ — أبو الفداء ج ١ ص ١٦٤

(٣) أن التعبير بكلمة البربر عن سكان أفريقية فى ذلك العهد يجب أن ينصرف ألى سكانها الاصليين ولكن أفريقية كانت منذ زوال دولة قرطاجة القديمة فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد ألى أواسط القرن الخامس بعده ولاية رومانية. ومنذ تغلب القبائل الجرمانية على رومه واستيلائهم عليها هبط الونداك ألى أفريقية وافتتحوها كما افتتح الفرنك غاليا والقوط اسبانيا واللومبارد ايطاليا. ولم يكن لامبراطور الدولة الرومانية الشرقية من سلطة

جريجورى [١] قائد الروم (البيزنطيين) فى نيف ومائة ألف مقاتل فهزم وقتل وأسرت أبنته فى سبيطلة (سوفيتولا) بالقرب من أطلال قرطاجه ثم حاصر عبدالله سبيطلة ففتحها وخربها وبث جيوشه فى البلاد ألى قفصه وفرض على الروم الجزية ثم عاد ألى مصر بعد أن أنشأ حامية فى برقه وأخرى فى زويله

ثم توقفت الفتوحات العربية فى أفريقيه نحو عشرين سنة حتى انتهت الحرب الاهلية وحسم الخلاف الداخلى بفوز معاوية وكان الروم قد عادوا ألى الارض المفتوحة بعد انسحاب العرب وتغالوا فى السلب والاغتصاب بدلا من أن يخففوا ويلات الفتح عن رعاياهم فلما رأى الافريقيون ذلك وأثقل كاهلهم بفروض الاستعباد والذلة فضلوا الخضوع لسلطه واحدة واستنصروا بالعرب على التخلص من قبضة الروم فأصغى معاوية ألى دعوتهم وأوفد ألى أفريقية سنة خمس وأربعين معاوية بن حديج فقدمها فى عشرة آلاف مقاتل وهزم الروم عند حصن

فعليه عليها فى ذلك العهد كما أنه لم تكن للوندال بها حكومات ثابته الدعائم . غير أن تلك القبائل المتوحشة كانت تمجد سلطان رومه وتستظل به استبقاء لهيبتها الادبيه . ثم افتتح يوستنيان أمبراطور الدولة الشرقية أيطاليا من الاستروقوط وأجلى الفندال عن أفريقيه قائده الشهير بليزاريوس وذلك فى أوائل القرن السادس ومن ذلك الحين عادت أفريقيه ألى قبضة الدولة الشرقيه وظلت كذلك حتى افتتحها العرب .

(١) ويسميه العرب جرجير

الأجم وأرسل عبدالله بن الزبير الى سوسة فافتتحها . وافتتح عبد الملك ابن مروان حصن جالولاء

وفى سنة خمسين ولى معاوية عقبة بن نافع الفهرى على أفريقية وكان عقبة جنديا قديرا وقائدا مجربا فسار من دمشق في عشرة آلاف من جند العرب واخترق صحارى لوبية وبرقة ثم توغل حتى دخل المغرب الأقصى ووصل الى سواحل المحيط الاطلانطى وأباد جيوش الروم هنالك . ثم بنى قاعدة القيروان ليستعين بها على صدغارات الروم والبربر . وأقام حاكما بأفريقيه حتى ثار البربر سنة ٦٥ هـ وحاصروا قلعة القيروان فقتل عقبة مدافعا عنها وكادت أن تذهب بوفاته دولة العرب فى افريقيه

٢٠ — ولما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان تأهب لاستعادة أفريقية وأرسل جيوشه لافتتاحها سنة ٦٩ هـ بقيادة زهير بن قيس البلوي نائب عقبة الذى كان يتولى رد البربر عن قلعة برقة فهاجم زهير جموع الروم والبربر وأجلاهم عن ولاية برقة ثم فرق جنده لاخضاع الثوار فى الجهات المختلفة فانتهز الروم تلك الفرصة وهاجموه بجيش ضخم فهزم المسلمون هزيمة شديدة وقتل زهير وذهب المغرب من قبضة المسلمين مرة أخرى

ولكن عبدالملك صمم على استعادة أفريقية فأرسل اليها جيشا ثالثا بقيادة حسان بن النعمان عامل مصر فاستولى على القيروان وقرطاجه وانسحب الروم والبربر بعد أن هزموا شر هزيمة واستعاد المسلمون

سلطانهم على الاراضى الممتدة من برقة ألى ساحل المحيط

وفى ذلك الحين اجتمع البربر [١] والقبائل الجبلية تحت لواء امرأة كانوا يعتقدون فيها قوة السحر والكهانة تعرف بالكاهنة وهى من قبيلة زناته وصاحبة جبل أوراس وانقضوا على الجيش الفاتح فارتد المسلمون ومزقت بعض جموعهم واعتصم الجيش العربي ببرقة وبسطت الكاهنة سيادتها على أفريقية مدي خمسة أعوام حتى أرسل عبد الملك سنة ٩٧ من الهجرة جيشا لمساعدة حسان فزحفت الجيوش الاسلاميه على مدائن المغرب ولم تر الكاهنة وسيلة لايقاف زحفها الا أن تحول البلاد الى خراب بلقع فأحرقت المدائن والقري وهدمت القصور والمعاهد [٢] ولكن ذلك لم يثن حسانا عن عزمه فتابع سيره الى أقاصى المغرب وأدرك الكاهنة عند سفح جبل أوراس فمزق جموعها وقتلت بعد معركة هائلة واضطر البربر ألى عقد الصلح على أن يمدوا الجيش الاسلامى بخمسة

(١) ينقسم مدلول كلمة بربر بحسب العصور ألى أربعة أقسام ففي عهد هومير كانت تطلق على القبائل المعقدة اللغة واللهجة والمنطق بوجه عام وحينما وجدت ومن ثم ألى عهد هيرودوت كانت تطلق على الامم الغريبة عن لغة اليونان وحضارتهم وفى عهد بلوتوس خضع الرومان أنفسهم للاهانة وأطلقوا الكلمة على أنفسهم خلا أيطاليا وولاياتها ثم وسموا بذلك الاسم القبائل المتوحشة أو المعادية خارج الامبراطورية بأسرها. ثم حرفها العرب عن اللاتينية وأطلقوها على الامم التى تسكن ساحل أفريقية

(٢) ابن الاثير ج ٣ ص ١٤٣

وعشر بن ألف مقاتل . ثم عاد حسان الى القيروان بعد أن ولى على البربر أبناً للكاهنة وأنشأ بتونس مصنعا لبناء السفن وصنع الآلات الحربية عملا بأمر الخليفة

وعلى أثر الفتح انتشر الاسلام بين البربر واعتنقه آلاف منهم ولكن ظهر الخوارج عندئذ في أفريقية بعد أن طردوا من فارس وأخذوا يبثون عقائدهم بين البربر ويوغرون قلوبهم على حكومة دمشق فتشبعت مخيلاتهم بالمبادىء الفاسدة والتعصب الاعمى الذى أصبح فيما بعد مثارا للخلاف بين القبائل الاسلامية والبربر وفيما بين هؤلاء وبعضهم كما سنذكر بعد

٣ . — وظل حسان واليا للمغرب ألى أن عزله بن مروان صاحب مصر سنة ٨٩ هـ ففى تلك السنة عين الوليد بن عبد الملك الذى تولى الخلافة بعد أبيه موسى بن نصير[1] عاملا لافريقيه وانتهز البربر فرصة انسحاب حسان فركنوا ألى الثورة . ولكنهم أخطأوا فى تقدير عزم الحاكم الجديد فان موسى لم يلبث أن مزق جموع الثوار بيد من حديد وافتتح ميناء طنجه الحصين آخر معاقلهم وولى عليها أحد ضباط جيشه طارق ابن زياد

---

(١) ذكر بعض المؤرخين أن موسى بن نصير كان مولى لعبد العزيز بن مروان وقيل أنه ينتسب ألى بكر بن وائل وأن أباه نصير من سباهم خالد بن الوليد فى عين التمر فصار وصيفا لعبد الملك بن مروان فأعتقه وقيل أنه من بنى لخم وولد فى خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٩ من الهجرة

الليثي وطهر المغرب من العصاة والمتآمرين واستمال اليه وجوه القبائل ثم عين للبربر من يعلمهم أحكام الاسلام فلم يمض الا قليل حتى اعتنقته الأمة البربرية بأسرها

وكان الروم بعد أن أخفقوا فى الحرب البرية قد لجأوا الى مهاجمة الثغور الاسلامية الواقعة على ساحل البحر الابيض (بحر الروم) فهيأ موسى أسطولا لقتالهم وبعث ابنه عبد الله فى البحر الى جزيرة ميورقه فافتتحها . واستولت عصابات أخرى من المسلمين على مينورقه وأيفيقيه. وغزوا سردانيه وصقلية (١) وشيدوا بها القصور والمعاهد وأبدوا بمدائن المغرب بدائع صناعاتهم التي كانت فى بدأ نشأتها. وكانت ولاية موسى فى ذلك الحين تمتد من حدود مصر الغربية الى سواحل المحيط ماعدا سبته (سوته) التي كان يحكمها الكونت يوليان القوطى من قبل ملك اسبانيا وتشمل جزائر البحر الأبيض الغربية . فلم يمض الا قليل حتى امتدت الى أرض كانت فى ذاتها ملكا ضخما ودولة عظيمة

(١) ابن الاثير . ج ٤ ص ٢٠٦

القسم الثاني

فتح اسبانيا

٤ — بينما كانت أفريقيه تتمتع بنعمة العدل والحرية تحت رعاية الحكم الاسلامي كان الأسبان (١) بالجزيرة المجاورة يئنون تحت نير القوط (٢) الجائر : لم تكن الأمة الاسبانية في عصر من العصور

(١) لا يستعمل العرب ذلك الاسم اطلاقا على المكان وانما استعملها بعضهم تسمية للاشخاص فقد ذكر المقرى (عن الرازى) أن عجم رومه وملكهم أشبان ابن طيطش غلبوا الافارقه (؟) على ملك الاندلس و بأسمه سميت اسبانيا . وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان فحرف . وهو الذى بنى أشبيليه . وكان أشبانيا اسما خاصاً لبلد أشبيليه الذى كان ينزله أشبان هذا (نفح الطيب ج ١ ص ٦٧) . وذكر بن حيان أن الاشبانيين ينسبون الى أشبان وفسر منشأهم بخرافة دينية ثم قال « وغلب على هؤلاء الاشبانيين من عجم رومه أمة يدعون البشنولقات (الوندال؟) وملكهم طالويش بن بيطه وذلك من بعث المسيح . ثم دخل عليهم أمة القوط » (نفح ج ١ ص ٦٩) وهذا كله حديث خرافة . وروى بن خلدون شيخ مؤرخي العرب وأكثرهم تحقيقاً متفقاً مع الروايات اللاتينية « أن القوط قد امتلكوا القطر الاندلسي لمئين من السنين قبل الاسلام بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها رومه ثم عقدوا معهم السلم على أن تنصرف القوط الى الاندلس » (ابن خلدون ج ٤ ص ١١٦)

(٢) لا يسمح لنا المقام أن نتكلم باسهاب عن تاريخ القوط فنكتفى بايراد

أسوأ حالا وأنكد حظاً منها في عهد ملوك القوط فقد أعادوا في اسبانيا العهد الروماني القديم فأثقلوا بالضرائب كاهل الطبقات المتوسطة وأعفوا منها الاشراف والطبقات الممتازة حتى آلت حال الشعب الى الخراب والبؤس وهلكت الصناعة والتجارة

ولم يكن القوط في الحقيقة أمة بمعنى الكلمة فأنهم لم يختلطوا بسكان

نبذة وجيزة عنه : يذكر التاريخ أسم القوط لاول مرة في عهد الامبراطور ديسيوس الروماني فأنه حاربهم على ضفاف الدانوب و يرجح أنهم نزحوا الى أواسط اوروبا من اسكندناوه (جيبون : الفصل العاشر) وفي أوائل القرن الخامس من سنة ٤٠٠ الى سنة ٤١٠ ميلادية عهد الامبراطور هونوريوس بغزو أيطاليا الى أميرهم الاريك ثم اندمجوا بعد وفاته في الجيش الامبراطوري وتعهد خلفا ألاريك أتولف وقاليا للامبراطور رافنا بأن يقمعا الثورة في غاليا (ويسميها بن الاثير غاليس) وأن يستعيدا اسبانيا التي استولى عليها الوندال والالان والسوابيون. ثم كافأ الامبراطور قاليا بولاية القطر الممتد بين اللوار والجارون. وفي حرب تروي عاون الامبران الجيش الامبراطوري أعلى هزيمة اتيلا التتري سنة ٤٥١ م وكانا قبل هذه الموقعة يتأزران على توسيع وملا كهما حتى بسطا سلطانهما في أوائل القرن الخامس على غاليا من اللوار الى البرنيه من المحيط الى الرون على أنهما رأيا ضم اسبانيا أكثر تحقيقا لاطماعهما فاستوليا عليها بين سنتي ٤٦٦ و ٤٨٤ عدا ركنها الغربي الذي استعصم به الوندال ولم تمض أواخر القرن الخامس حتى امتلك القوط الجزيرة بأسرها واستقلوا بها واتخذ أحد ملوكهم طليطلة (توليدو) حاضرة له وظل خلفاؤه يتوارثون الملك من بعده حتى الفتح الاسلامي وقد ذكر بن الاثير عن القوط مايكاد يتفق مع ذلك وهي خبر رواية عربية عثرت بها (ج ٤ ص ٢١٢ و ٢١٣)

الجزيرة ذلك الاختلاط الذى يمزج الفاتح برعيته بل كان كل من الهيئة الحاكمة والمحكومة مستقلا بنفسه فكان الاشراف ورجال الدين يقسمون المملكة بينهم الى أقطاعات كبيرة ويسكنون القصور الباذخة ويصرفون أوقاتهم فى اللهو والغواية تاركين أمر الصناعة والزراعة لطائفة من فقراء الشعب أو العبيد لم يكن لهم ثمة أمل فى استنشاق نسيم الحرية يعيشون فى ذل وضعة لا يتملكون عقارا ولا منقولا ولا يستطيعون الزواج الا بأذن الامير

وكان يهود الجزيرة الذين عانوا أبلغ صنوف العذاب من جور الملك والاشراف ورجال الدين قد حاولوا الثورة قبل الفتح العربى بزمن قصير فأخفقوا ومزقت جموعهم ونهبت ديارهم واضطروا الى اعتناق النصرانية. فكان الشعب البائس واليهود المضطهدون كلاهما يتوق الى التخلص من نير القوط

أما القوط أنفسهم فلم يعودوا أولئك البربر الجبابرة الذين أخضعوا كبرياء رومه واغتصبوا ممالك الامم وتوغلوا فيما بين الدانوب والمحيط بل كان خلفاء ألاريك (مؤسس دولة القوط) محتجبين بصخور البرنيه يستغرقون فى سبات السلم لا يعنون بتحصين مدينة ولا يعبأ فتيانهم بتجريد سيف [1] تفرغ ملوكهم الى اللهو وسرت بينهم روح التخاذل فركنوا الى الدعة وانغمسوا فى الترف فكان الفرق عظيما بينهم وبين المسلمين

(١) جيبون: الفصل الحادى والخمسون.

الذين جمع الدين كلمتهم وشدد عزائمهم ما أحرزوه من النصر وعلى الجملة فقد كان يسود على البلاط والشعب والكنيسة ذلك الفساد والاضمحلال وضعف العزائم التي تعصف بالدولة في دور الاحتضار

٥ — وسرعة استيلاء المسلمين على الجزيرة ترجع الى أسباب عديدة غير ماينسب اليهم في ذلك من الشجاعة النادرة فان وتيزا (غيطشه) ملك القوط هدم في أواخر القرن السادس جميع القلاع والحصون التي كانت تحمي قلب المملكة رغبة منه في بسط السلام واخماد المنازعات التي كان يستعر لظاها بين الامراء فلم يكن أمام المسلمين بعد فوز الجواداليت الا أن يستولوا على المدائن الكبيرة واحدة فأخرى دون أن تفكر احداها في المقاومة ألا قرطبة فانها دافعت دفاعا خفيفا وسلمت طليطلة حاضرة القوط دون مقاومة ولم تمض أعوام ثلاثة حتي اقتحم المسلمون جبال البرنيه وتوغلوا في جنوب فرنسا بعد أن دانت لهم الجزيرة شرقا وغربا

ولم يك ثمة مايدعو الاسبان الى النفور من الفتح الاسلامي فقد أبدى المسلمون كما فعلوا في جميع البلاد التي افتتحوها اعتدالا في معاملتهم واحتراما لعقائدهم فسمحوا لهم بالاحتفاظ بكنائسهم وحكامهم وقضاتهم وفرضوا الضرائب عليهم بالمساواة والعدل وكان في قرطبة أبان الدولة الاسلامية سبع كنائس وفي طليطلة ست أخر وكان الاسبان أحراراً في اقامة شعائرهم فلم ينلهم المسلمون بأذى ولم يحاولوا هدم الأنظمة الدينية ولا تمزيق التقاليد التي توارثها الأبناء عن الآباء بل

ا كتفوا بأن عرضوا أمام الاعين جمال الأسلام وفضائله فاعتنقه عنـد الفتح كثير من عظماء الاسبان وتلك حقيقة يعاملهـا مؤرخو النصرانية بشيء من الأغضـاء وفى تاريخ الاندلس لم يكن التفريق بين المسلم والنصرانى مهما فى مبـدأ الدولة الاسـلامية فكثيرا ماحارب المسـلم والنصرانى جنبا لجنب وكثيرا مانهض أمير مسلم لشد أزر أمير نصرانى وكانت العلائق بين الفريقين حين السلم محكمة العرى. وسنرى أنه كلما جرد السيف ومزقت شعائر السلم كان اللوم راجعا الى المسيحيين وأن الأسبان لم يكن رائدهم فى جهادهم الطويل لأخراج المسلمين من الجزيرة سوى عواطف دينية يشوبها تعصب عميق لم تألفه الجماعات الاسلامية

٦ ـ هكذا كانت حال الاسبان حينما افتتح المسلمون أفريقية واقتربوا من شواطىء الاندلس وكانت سوته (سبتـه) فى ذلك الحين لاتزال فى قبضة القوط يفصلهـا عن الأندلس المضيق المعروف بجبل طـارق ولم يكن ينقص الفتح الأفريقى سوى سبته. ولـكن موسى مع كبرياء الظفر لم يستطع أن يدنو من أسوار القامة لسهر حاكمها الـكونت يوليان قائد القوط على أنه لم ينقذ موسى من تلك الحيرة سوى رسالة من الـكونت نفسه يخبره فيها أنه يقدم حصنه ونفسـه وسيفه فى سبيـل نصر المسلمين ويدعوه لفتح أسبانيا. واذا سألت عن أسباب ذلك الغدر أعاد الأسبان عليك قصة كافا «أوفلورندا»: قصة عذراء خدعها أو اغتصبها ملكها وأب ضحى قومه ودينه فى سبيل الانتقام

وقصة كافا نزعة من الغرام والجمال والفتنة اتخذها كتاب النصرانية وشعراؤها الهائمون موضعا لزفرات الهوى ومبتدعات الخيال وخلاصتها أنه كان للكونت يوليان فتاة رائعة الجمال أرسلها الى بلاط الملك في طليطله لتتلقى مايليق بها من التربية بين كريمات العقائل وأشراف الفرسان فاستهوى جمالها الفتان قلب رودريك وقاومته الفتاة فى بلاط يموج بالفساد والرذيلة فاغتصبها وانتهك عفافها فأخبرت المسكينة أباها بذلك العار والخزى فاستقدمها اليه وأقسم بالانتقام وترقب فرصة ينتهزها خلال الحوادث السياسية للقضاء على ملك مغتصب وأمير فاجر(١)

وعرضت هذه الفرصة فبعد وفاة وتيزا ملك القوط كان رودريك(٢) وهو أحد الاشراف الذين عانوا من الاستبداد السالف قد اغتصب

---

(١) جيبون : الفصل الحادى والخمسون . ويقول ذلك المؤرخ نعليقا على تلك القصه : « طالما كانت أهواء الملوك مشعبة خطرة ولكن تلك القصة لم تؤيدها البراهين المادية وأن كانت فى ذاتها مقبولة كقصه خيالية » ويتفق مؤرخو العرب وجمهور من مؤرخى الافرنج على أن هذه القصة أكبر سبب لخيانة الكونت يوليان واستقدامه موسى للفتح . ولكنا نرجح اقتران هذا السبب وتعضيده بأسباب سياسية وهذا رأى الثقاة من مؤرخى الافرنج . وقد أورد بن حيان هذا الرأى بوضوح وهو خير أيضاح عربى عثرت به يتفق مع الروايات اللاتينيه (المقرى عن بن حيان — نفح الطيب . ج ١ ص ١٠٩) وقد أشار اليه بن الاثير أيضا — ج ٤ ص ٢١٣ — وابن خلدون — ج ٤ ص ١١٧ — وعبد الواحد المراكشى ص ٦

(٢) ويسممه مؤرخو العرب لذريق . وقد سماه بن الاثير بتسمية أصح هى رزريق

العرش من أبناء وتيزا والتجأ هؤلاء الى أنصار أبيهم وتحالفوا على العصيان والثورة بمؤازرة عمهم أوباس أسقف طليطله وأشبيليه وزعيم الكنيسة ومن المعقول أن يكون للكونت يوليان يد فى ذلك التحالف وأنه كان عظيم الخوف قليل الثقة بالملك الجديد . وكان يوليان شديد البأس وافر الثروة كثير الاتباع والانصار يقبض على مفتاح الجزيرة بحكمه لسبتة والمضيق ولكن لم يكن فى استطاعته أن يشهر الحرب على رودريك ففكر فى الاستنصار بالعرب وعين فى رسائله أو فى مقابلاته لموسى مواضع الضعف من أمته ووصف له جزيل خيراتها ووفرة غناها فسر موسى لسهولة الفتح وعظمته ولكنه توقف حتى يستأذن أمير المؤمنين وهو أذ ذاك الوليد بن عبد الملك فأمره أن يفتح ممالك الغرب الواقعة فى شمال افريقيه وأن يضمها الى الخلافة

وكان موسى أثناء أقامته بطنجه يكاتب يوليان ويهيء معدات الفتح سرا . ولم يجهر بنيته خشية الغدر وأكد ليوليان أنه لا يقصد من أشهار الحرب سوى مجد الفتح وكسب الغنائم وأنه لا ينوى انشاء دولة مسلمة وراء البحر (١) ولكنه قبل أن يعهد بجيش من المسلمين الى زعيم من زعماء النصرانية أراد أن يتحقق صدق المشروع فجهز خمسمائة مقاتل خمسهم من العرب وباقيهم من البربر عبروا البحر من سبته فى أربع سفن

(١) يظهر أن الكونت يوليان لا يستحق وصمات الخيانة والخسة والغدر مطلقة فان التاريخ لم يثبت انه كان يريد تسليم بلاده للعرب . وأنما كان مشروعه أن يستعين

ونزلوا بالبقعة المقابلة التى سميت بجزيرة طريف باسم قائدهم طريف ابن مالك وذلك فى شهر رمضان سنة احدى وتسعين من الهجرة (سنة ٧١٠م) ثم ساروا بين التلال الى قصور الكونت يوليان وأسموا تلك البقعة بالجزيرة الخضراء لرأس فيها يكسوه النبات بارز الى البحر ولقوا من أكرام المسيحيين ومن خيرات الجزيرة وسلامة العودة باحمل موسى على الاستبشار بالظفر وبلوغ الآمال

٧ — وفى شهر رجب سنة ٩٢ من الهجرة (ابريل سنة ٧١١م) جهز موسى بن نصير سبعة آلاف مقاتل من العرب والبربر سلم قيادتهم الى طارق بن زياد الليثى أحد ضباط البربر الذين ظهروا فى الحروب الافريقية بأعمالهم المجيدة وكان عندئذ واليا لميناء طنجه . وكان طارق جنديا جريئا وقائدا مجربا فعبر البحر فى سفن يوليان ونزل بالبقعة التى سميت الى الآن بجبل طارق (١) ثم سار الى ولاية الجزيرة التى كان يحكمها تدمير

بهم على قلب الحكومة وأبعاد رودريك حتى يكون له فى حكومة هو منشؤها مكانة أسمى وان صحت قصة كافا فلاجل الانتقام أيضا ولكنه غلب على أمره . وكان موسى أكثر دهاء وأصدق عزما (بن الاثير ج ٤ ص ٢١٤)

(١) يظهر أن واقعة أحراق السفن التى قيل بأن طارقا أقدم عليها ليدفع رجاله الى الاستبسال فى القتال وحتى لا يفكرون فى التقهقر أو الارتداد أمام العدو مصبوغة برائم المبالغة . فلم ترد فى أقوال الثقاة من المؤرخين . ولا يجب أن نستنتج ذلك من خطبة طارق حيث قال « أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم » فان السفن كانت ملكا للكونت يوليان ومن المعقول أنها لم تكن رهن تصرف العرب بصفة مطلقة

القوطى عامل رودريك واحتل قلاعها بعد أن هزم شراذم من القوط تصدت لايقافه . وبادر حكام الولايات المجاورة بأخبار بلاط طليطله بالخطر الداهم . وكان رودريك إذ ذاك مشتغلا بالحرب فى المقاطعات الشمالية فأمر قائده أديكو برد العدو وتمزيق شمله فهزمه طارق تجاه طليطلة وتابع زحفه اليها

وأدرك رودريك (لذريق) جسامة الخطر المحيق بعرشه وأمته فاستدعى عظماء المملكة وأساقفتها وجمع الامراء والاشراف أتباعهم، فبلغ جيش القوط إذ ذاك زهاء مائة الف مقاتل وهى قوة ضخمة لو صحبها النظام والاخلاص . ونما الخبر الى طارق فكتب الى موسى أن قد زحف عليه رودريك بما لا طاقة له به فأمده بخمسة آلاف من جنده فبلغ المسلمون أثنى عشر الفا وانضم الى يوليان كثير من أنصار وتيزا الناقمين على الحكم الجديد

وعلى قيد فرسخين من قادس تجاه بلدة شريش (اكزريس) وشمال شدونة (سيدونيا) على ضفاف نهر وادى لكه (الجواد ليت) الذى يصب فى خليج قادس تلاقى العرب والقوط : تلاقى الاسلام والنصرانية وذلك لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٩٢ وفرق النهر بين الجيشين مدى ثلاثة أيام . وفى اليوم الرابع التحما ونشبت بينهما معركة عامة « ولقد بخجل ألاريك عند رؤية خلفه (رودريك) متوجا باللآلىء متشحا بالحرير والذهب مضطجعا فى هودج من العاج (١) » وفى مبدأ القتال

(١) جيبون . الفصل الحادى والخمسون ـ نفح الطيب ـ ج ١ ص ١١٢ ـ ن

شعر المسلمون رغم شجاعتهم الخارقة بثقل وطأة العدو وراعتهم كثرته وامتلا السهل من قتلاهم (١) فأخذ طارق يشجع رجاله فألقى فيهم خطبته الخالدة:

« أيها الناس : أين المفر ؛ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر واعلموا انكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مأدبة اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لاوزر لكم الا سيوفكم ولا أقوات لكم الا ماتستخلصونه من أيدى عدوكم . وأن امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت : وانى لم أحذركم أمراً انا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها النفوس ابدأ بنفسى . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفه الالذ طويلا . فلاترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ماأنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان . الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان . المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال عربانا .

الانبرج ٤ ص ٢١٢ ويسميه هنا بالازرينوق — بن قتيبه ج ٢ ص ٧٥

(١) نفح عن الرازى ج ١ ص ١٢٢

ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على أعلاء كلمته وأظهار دينه بهذه الجزيرة. وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم. والله تعالى ولى أنجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين: أيها الناس! مافعلت من شيء فافعلوا مثله أن حملت فاحملوا، وان وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال الا وانى عامد الى طاغيتهم بحيث لاأنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه فان قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا، ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وتولوا الدبر لعدوكم فتبددوا بين قتيل وأسير. وأياكم أياكم أن ترضوا بالدنية ولا تعطوا بأيديكم. وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذلة. وما قد احل لكم من ثواب الشهادة فانكم أن تفعلوا والله معكم ومفيدكم تبوؤا بالخسران المبين وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين. وهأنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتى (١) »

(١) ان خطبة طارق هى المثل الاعلى لموقف القيادة والحماس الحربى فلم يك موقف قيصر فى غاليا أو بو نابارت فى ايطاليا ومصر بأدعى للاعجاب من موقف طارق فى سهل شريش. وأنشد طارق من قصيدة قالها فى الفتح :

ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوسا وأموالا وأهلا بجنة اذا ماالشتهينا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا اذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا

وما فرغ طارق من تحريض رجاله على الثبات والصبر حتى فامنت نفوسهم أقداما وثقة واستمال يوليان وأوباس كثيرا من جند النصرانية وبذرا فى الجيش بذور الشقاق والتفرق فأخذ كل أمير يسعى فى سلامة نفسه ومزقت بقية القوط أثناء الثلاثة أيام التالية وأركن من سلم الى الفرار (١) . وامتطى رودريك أسرع جياده ولكنه فر من موت جندى ليهلك فى مياه الوادى الكبير (٢)

٨ — ولما شتت شمل الجيش القوطى ساد الرعب على القوط فامتنعوا بالقلاع والحصون وتوغلوا فى السهول . وذاعت أنباء النصر فى طنجه وسبتة وما جاورهما فاندفع الى الجيش العربى سيل من المغامرين من العرب والبربر . وسار طارق الى مدينة شذونه (مدينا سدونيا) فاستولى عليها بعد حصار شديد . ثم زحف على قرمونه فاستولى عليها

---

(١) قال الرازى « كانت الملاقاة يوم الاحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان فاتصلت الحرب بينهم الى يوم الاحد لخمس خلون من شوال . ثم هزم الله المشركين فقتل منهم خلق عظيم أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الارض قالوا وحاز المسلمون من عسكرهم مالا يجهل قدره فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها فى أصابعهم ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس » (نفح ج ١ ص ١٢١)

(٢) ذكر بعض مؤرخى العرب أن طارقا أخذ رأسه وبعث بها الى الخليفة ويعتقد بعض مؤرخى الافرنج انه القى الى بئر ملأى بالافاعى . حيث صاح « انها تلتهم الجزء الذى ثقلته بالخطايا . » (سيرفانتيس الدون كوبكسوتوج . ٢ . ا فصل ا)

وفرض الجزية على أشبيليه. ثم انتهى الى مدينة أستجه حيث التقى بفلول القوط فاقتتل الفريقان قتالا شديدا واستبسل العدو فى مقاومة المسلمين ولكن دون جدوى ومزقت بقية جموعه

ولم ير يوليان مناصا من محالفة المسلمين الى النهاية بعد أن خاب ظنه فى اقتصار موسى على كسب الغنائم ومجد الفتح ورأى من توغل طارق ماراعه من نقمة المسلمين فأشار عليه بالزحف على طليطلة حاضرة القوط وساعد الجيش العربي بأدلاء من أصحابه فأصغى طارق الى مشورته وفرق جيوشه معهم من أستجه فبعث مغيثا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك الى قرطبه فى سبعمائة فارس فاستولى عليها دون مشقة وأرسل عسكرا آخر الى غرناطة وألبيرة ومالقه . فافتتح المسلمون مالقه ولجأ سكانها الى الجبال ثم لحق جيشها بالجيش المتجه الى البيره وغرناطه فافتتحوهما وضموا اليهود الى غرناطه وكانوا فى كل مدينة يضمون اليهود الى سرية من المسلمين لحفظها . ومضى الجيش بعدئذ الى ولاية تدمير . وتدمير اسم حاكم هذه الولاية كما تقدم سميت باسمه وقاعدتها أريوله . وكان تدمير شديد البأس صادق العزم فالتقى بالمسلمين واشتد القتال بين الفريقين الى أن فنى معظم جنده فالتجأ الى أريوله وعرض النساء على الاسوار فى أثواب الرجال أيهاما للمسلمين فعرضوا عليه الصلح وفاز منهم بشروط حسنة أنقذت بها تدمير من السبي والجزية

وسار طارق ببقية الجيش الى طليطلة مخترقا جبال مورينا الى

تفصل ولايتي الاندلس (١) وقسطيله «قشتاله» ففر منها النصارى حاملين لآثار قديسيهم وأخلى طارق سبيل من بقى منهم وأبقى بها سبع كنائس وترك للأسقف والكهنة الحرية فى إقامة شعائرهم وأباح للقوط والرومان اتباع قوانينهم وتقاليدهم وبعد أن عهد بادارة المدينة الى أوباس زحف بجيشه شمالا وغزا قسطيلة وليون ثم عبر جبال استوريا وأشرف على

(١) يطلق كتاب العرب اسم الاندلس على شبه جزيرة أيبيريا المكونة من دولتي اسبانيا والبرتغال الحاليتين اذا ما رأوا معاملة التاريخ الاندلسي عامة ولكن يحدث أن يطلق ذلك الاسم على ما كان يشمله الحكم الاسلامي بعد نهاية الفتوحات الشمالية التي أدت الى ضم قسم من فرنسا الخلافة أو ما شمله بعد استيلاء النصارى على الولايات الشمالية التي تكون ولايات اراجون ونافار وليون وجزأ من قسطيلة ولكن الاندلس الحقيقية لا تشمل الا الولاية التي سميت بذلك الاسم فى مبدأ الدولة العربية والتي تقع فى الجنوب الشرقى من شبه جزيرة ايبريا ولقد تضاربت أقوال المؤرخين فى أصل هذه التسمية والاشتقاق فى النهاية مجهول لا ندرى هل استحدثه العرب أو حرفوه عن اسم سابق استعمله القوط أو الوندال فقد ذكر المقرى أنها سميت بذلك باسم أول من سكنها على قديم الزمان وهم قوم من الاعاجم يقال لهم أندلوش (نفح ج ١ ص ٦٧) وقال عن بن سعيد انما سميت بالاندلس بن يافث بن نوح كما أن أخاه سبت بن يافث نزل بالعدوة المقابلة لها واليه تنسب سبتة (نفح جزء ١ ص ٦٣) وذكر بن الاثير فوق ذلك أن النصارى يسمون الاندلس أشبانه باسم أشبانس أحد ملوكها وهذا هو اسمها عند بطليموس (ج ٤ ص ٢١٢) وذكر دانفيل أن الاشتقاق مأخوذ من كلمة فاندالوسيا أى بلد الوندال (كتاب ممالك أوروبا) وذكر آخرون غير ذلك مما يضيق عنه المقام

ميناء كيجون الواقع على خليج غسقو نية (١) فكانت نهاية فتوحاته ورده عباب المحيط عن التقدم ووصلته أوامر موسى بالعودة الى طليطلة وكان ذلك لمام من اقتحامه للمضيق

ففى ذلك الحين انقلب أعجاب موسى بأعمال طارق الى حسد وحركته الغيرة فكتب اليه ينذره أن لا يتقدم حتى يلحق به ويتوعده لانه توغل بغير اذنه . ثم عبر البحر فى عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله يوليان (رمضان سنة ٩٣ هـ) وزحف على اشبيليه وضيق الحصار عليها فسلمت بعد عناء . واستولى على ماردة بعد حصار قصير واستقبله طارق بالقرب من طليطلة فأنبه وبالغ فى أهانته وزج البطل فى أعماق السجن بتهمة الخروج والعصيان . «ولكن بلغ من دقة النظام ونقاء الحماسة وذكاء الحمية فى صدر الاسلام أن تجاوز طارق عن ذلك الخزى وعاد الى القيادة (٢) » فزحف الاثنان على ولاية

(١) وهنا يذكر مؤرخو العرب أن طارقاً انتهى الى مدينة المائدة خلف جبال أستور يه فاستولى على مائدة سليمان بن داود وهى خضراء من زبرجد حافاتها منها وأرجلها ثلثمائة وخمسة وستون ويقال أن هذه المائدة نقلها الرومان من المشرق الى رومة فغنمها القوط حين استولوا على رومه وأحرزها العرب . وذكر بن الاثير أن أحد ملوك اسبانيا فى عهد الوندال غزا بيت المقدس وأحرز المائدة (ج٤ص٢١٢) وذكر بعض مؤرخى الافرنج أن المائدة لم تكن لسليمان وانما هى من نفائس ملوك القوط وأن العرب عثروا بها فى طليطلة وهذا أقرب للصواب

(٢) جيبون الفصل الحادى والخمسون ـ نفح ج ١ ص ٢١٢ بن الاثير

أراجون واستوليا على سر قسطه وتراغونه وبرشلونه وغيرها من المدائن الشمالية . وبنت قريش مسجدا فى سرقسطه وفتحت ميناء برشلونه لسفن الشأم . وبعدئذ ترك موسى طارقا يغزو جليقيه ثم عبر جبال البرنيه وغزا ولاية لانجدوك أوسبتمانيا التى كانت تابعة اذ ذاك لملوك القوطو استولى على قرقشونه (كاركاسون) وأربونه (نربون)

وهنا فكر القائد الجرىء فى غزو جميع أوروبا والوصول الى الشأم من طريق القسطنطينية وافتتاح ما بينهما من بلاد النصرانية وأمم الفرنجة (١) وكان يقدر تنفيذ المشروع بجيش ضخم يقتحم البرنيه يؤيده أسطول من البحر فيقضى أولا على مملكتى الفرنج واللومبارد المضمحلتين ثم على رومه قاعدة الفاتيكان ومهد النصرانية ومن ثم يشتت شمل القبائل الجرمانية ثم يتبع مجرى الدانوب الى مصبه فى البحر الاسود فيقضى على الدولة البيزنطية فى القسطنطينية ثم يعبر الى آسيا الصغرى فيصل ميناء أنطاكيه بولايات الشأم (٢) ولا ريب أن موسى كان ينجح فى ذلك

ج ٤ ص ٢١٥

(١) نفح : ج ١ ص ١١٣ — بن خلدون ج ٤ ص ١١٧

(٢) كاردون : (تاريخ أفريقيا واسبانيا تحت حكم المسلمين) . وهذه الخطة التى ذكرها كثير من مؤرخى العرب يمكن مقارنتها بخطة ميثر يداتيس ليفتتح ما بين القرم وروما أو خطة قيصر ليفتتح الشرق ثم يعود من طريق الشمال و يفوقهاجميعاً مشروع هانيبال أمير قرطاجة الذى نفذ بنجاح عظيم

المشروع العظيم لو أقدم على تنفيـذه فان التفرق كان سائدا اذ ذاك على الامم التي كانت تحول بينه وبين الوصول الى الخلافة . ولم يقم أزاء الخطر الاسلامى زعيم يجمع كلمة النصرانية ولـكن سياسـة التردد التى اتبعها بلاط دمشق كانت سبباً فى زوال ذلك الحلم البديع اذ أمر الوليد عامله أن يتوقف عن الفتح بينما كان يدبر اختراق فرنسا وغزو ايطاليا . فعاد لأتمام آخضاع المعاقل الجبلية حيث استعصم المسيحيون فاخترق جيليقيه واستولى على تلك المعاقل بعد أن شتت شمـل الثوار ولم يبق منهم الا شراذم يسـيرة تجمعت تحت لواء زعيم يقال له بلايو . واذ كان موسى يتهيأ لأخضاعه أتاه رسول من دمشق يستدعيه وعاًارقا . ومهما كانت العوامل التي دفعت الوليد اذ ذاك لاستدعائها فلاريب انه كان خطراً على مستقبل الاسلام هنالك فان رحيل موسى مكن بلايو من التحصن فى الجبال وأثارة تلك القوى التى قضت فيما بعد على الولايات الاسلامية الجنوبية

وفى ذلك الحين كان عبـد العزيز بن موسى قد افتتح ساحـل البحر الواقع بين مالقه وبلنسيه وأخضع الثوار فى أشبيليه وباجه وعامل القوط باللين والعـدل واعتدل فى فرض الضرائب . ولنا فى معاهدته مع تدمير خير شاهد على اعتدال السـياسـة العربية ولينها (١) وفى جميع حوادث الفتح لم ينل القوط من أذاه الا بوادر صغيرة يتجاوز عنهـا المؤرخ

(١) وهـذا هو نص المعاهدة : « نص شروط الصلح التى اتفق عليها وأقسم باتباعها كل من عبـد العزيز بن موسى بن نصير وتدمير أمير القوط — بسم الله

الغربي ولا تقاس بالويل الرائع الذي أنزله القوط بالاسبان حين الفتح أو ملوك قسطيله وأراجون بالمسلمين حين استرجاع الاندلس (١)

وقبل الرحيل نظم موسى حكومته الجديدة فجعل حاضرتها أشبيليه لاتصالها بالبحر وعهد بادارتها الى ابنه عبد العزيز . ثم ركب البحر الى المشرق في شهر ذي الحجة سنة خمسة وتسعين وطارق معه وقفل راجعاً الى دمشق مثقلا بنفيس الغنائم والتحف (٢)

الرحمن الرحيم : يشترط عبدالعزيز مايأتي : أن تدمير يبقى آمنا في ولايته ولا يتعرض انسان بأذى لشخصه أو ماله أو نسائه أو أولاده . وأن تدمير يسلم مدائنه السبعة أريوله وفالنتولا واليكانت ومولا وفا كاسورا وبجيرا وأورا ولارقه . وأنه لا يساعد أعداء الخليفة أو يصادقهم بل يبلغ عن مايعرفه من نواياهم وأن يؤدى سنوياً وكذلك كل أمير من القوط مائة مثقال من الذهب وأربعة مكاييل من القمح ومثلها من الشعير وقدرا من الزيت والعسل والخل وأن يؤدى كل واحد منهم أتباعهم نصف ذلك — كتبت لاربع خلون من شهر رجب عام أربع وتسعين من الهجرة ووقع عليها أربعة شهود مسلمون » وذكر سانتوفال في تاريخه وكذا فليرى في (التاريخ الكنسى) نصوص معاهدة أخرى عقدت في سنة ٧٣٤ م بين أمير قلبرية (كوامبرا) في البرتقال والقوط والرومان وفيها جعلت ضريبة الكنائس خمسة وعشرون مثقالا من الذهب والاديرة خمسون والكنائس الجامعة (كتدرائية) مائة والنصارى أن يحاكمهم قضاتهم : ويجب أن تغلق أبواب الكنائس وأن لاتقدم على أمر من شأنه أن يزرى بالديانة الاسلامية أو يصيب كرامة المسلمين

(١) جيبون : الفصل الحادى والخمسون

(٢) ذكر المؤرخون أن العرب أصابوا من الاندلس كثيراً من الغنائم والاموال ،

٩ . — على أن فتوحات موسى لم ترض كبرياء بلاط دمشق ولم تدفع عنه ويلات النقمة والحقد فى عهد كانت فيه النفوس تفيض بالفضيلة والتقوى فان الخليفة كافأ الفاتح بجحود ونكران يبقيان أبد الدهر عارا ووصمة فى جبين الخلافة الاسلامية وقضى على البطل بالسجن والعذاب والموت بين براثن البؤس والفاقة

وصل موسى الى طبرية فى فلسطين واختلف المؤرخون هل وصل قبل موت الوليد بن عبد الملك أو بعده فقالوا انه قدم الشأم حين ارتقى سليمان بن عبد الملك عرش الخلافة . وسبقه طارق ومغيث بالشكوى اليه منه فقابله بالتأنيب والتعزير ثم عزله وزجه الى غيابة السجن وفرض عليه غرامة فادحة جردته من ثروته . ولكن أكثر المؤرخين على أن موسى بن نصير وصل الشأم قبل وفاة الوليد فكتب اليه سليمان ولى العهد أن يتمهل رجاء أن يموت الوليد فيقدم عليه فى صدر خلافته بالغنائم

وقد حمل موسى منها الى الخلافة قسما وافرا منها مائدة سليمان السالفة الذكر ومنها أربعمائة من أشراف القوط يتشحون بالاثواب الذهبية وثمانية عشر ألف أو ثلاثون ألف من الاسرى ذكورا وأناثا انتخبوا لجمالهم أو شرف منبتهم (جيبون : الفصل الحادى والخمسون) وقال بعض المؤرخين أن العرب وجدوا فى طليطلة حين فتحوها من الذخائر والاموال مالا يحصى فمن ذلك مائة وسبعون تاجا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الكريمة ووجد فيها ألف سيف ملوكى ومن الدر والياقوت أكيال ومن أوانى الذهب والفضة مالا يحيط به وصف (نفح : ج ١ ص ١٣٥)

الكثيرة فأبى موسى وجد فى السير حتى قدم والوليد حي فسلم له الاخماس والغنائم والذخائر والتحف ولم يمكث الا قليلا حتى توفى واستخلف سليمان . فحقد عليه وبالغ فى أهانته فامر باقامته فى الشمس حتى كاد يهلك وغرمه أموالا عظيمة وحرض أهل الاندلس على قتل ابنه عبد العزيز واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب من نقمة سليمان فقال له « لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكائد الحروب ومداراة الدنيا . فقل لي كيف حصلت فى يد هذا الرجل بعد ماملكت الاندلس وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار وتيقنت بعد المرام واستصعابه واستخلفت بلادا أنت أخترعتها وحصل فى يدك من الذخائر والاموال والمعاقل والرجال مالو أظهرت به الامتناع ماألقيت عنقك فى يد من لا يرحمك . ثم أنك علمت أن سليمان ولى عهد وأنه الولى بعد أخيه وقد أشرف على الهلاك لامحالة . وبعد ذلك خالفته والقيت بيدك الى التهلكة وأحقدت مالكك ومملوكك ». وكان جواب سليمان لابن المهلب « أن رأس موسى قد اشتمل على ما تمكن له من الظهور وانقياد الجمهور والتحكم فى الاموال والابشار على مالا يمحوه الا السيف ولكني قد وهبت لك دمه . وأنا بعد ذلك غير رافع عنه العذاب حتى يرد ماغل من مال الله » . وآلت حال فاتح أفريقية واسبانيا الى أن كان يطاف به ليسأل من أحياء العرب مايقتات به . وفى تلك الحال مات من أفقر الناس وأذلهم بوادي الحجارة حيث ينسب مولده وذلك سنة سبع وتسعين من الهجرة

وكان موسى بن نصير فوق خبرته الحربية حكيما فى سياسة الامم وادارة الحكومات وقمع الفتن . بليغا فى النثر والنظم . عالما بالحديث والشريعة ألا أنه كان يغلب عليه الحقد والحسد.(١)

أما مصير الكونت يوليان القوطى فيمرعليه المؤرخون بالسكون والصمت . وقال الرواة القسس أنه قتل بيد شر ذمة من العرب .ولكن من المحقق أن العرب أحسنوا مكافأة أبنى وتيزا فانهما استوليا على ميراث أبيهما . وعند وفاة أبيا أكبر الاخوين اغتصب أخاه سيجبوت نصيبه من ابنته فشكته الى الخليفة فى دمشق فقضى لها برد ميراثها وتزوجت هناك من أحد أشراف العرب . واستقبل أبناه اسحاق وابراهيم فى أسبانيا بما يليق بهما من الترحيب والتكريم (٢)

---

(١) المقرى عن بن حيان وبن بشكوال والحجارى نفح ج ١ص ١٣٤ و ١٣٥ بن خلدون ج ٤ ص ١١٨ ـ بن الاثير ج ٤ ص٢١٦ ـ الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ٩٣

(٢) جيبون: الفصل الحادى والخمسون

الفصل الثالث

فتوحات العرب فى أوروبا

القسم الاول ـ استمرار الفتح ـ (١) تأثير الفتح . النظام الجديد. مقاطعات الاندلس (٢) ولاية عبد العزيز بن موسى ومقتله . الحر الثقفى . ولاية السمح بن مالك ، مملكة الفرنج . موقعة تولوز ومقتل السمح . ولاية عنبسه ومقتله (٣) ولاية عبد الرحمن الغافقى . استئناف الفتح . خيانة بن أبى نسعة : هزيمته ومقتله . زحف عبد الرحمن على فرنسا . استيلاؤه على آرل وبوردو . موقعة الدوردون وهزيمة الدوق أود . سقوط ليون وبيزانصون وصانص
ـ **القسم الثانى** ـ موقعة تور ـ (٤) العرب والفرنج على اطلال الدولة الرومانية (٥) سيل الفتح الاسلامى (٦) جيش العرب . شارل مارتل محافظ الفرنج . استعداده لملاقاة العرب . استيلاء عبد الرحمن على تور . قدوم الفرنج موقعة تور أو بواتييه أو بلاط الشهداء . مقتل عبد الرحمن وانسحاب العرب (٧) اقوال مؤرخى العرب والفرنج عن موقعة تور . تأثير الموقعة فى مصير الاسلام والنصرانية
ـ **القسم الثالث** ـ الحروب الداخلية ـ (٨) ولاية عبد الملك بن قطن . ولاية عقبة بن الحجاج . استئناف الغزو (٩) ثورة بن قطن ومقتل عقبه . الحرب الاهلية ولاية حسام ابو الخطار . ثورة مضر ومقتل حسام . ولاية ثعلبة بن سلامه . يوسف ابن عبد الرحمن . مهاجمة الفرنج لمعاقل الاسلاميه. سقوط أربونه

القسم الاول

استمرار الفتح

١ . ـ كان افتتاح العرب للجزيرة مبـدأ عهد جديد وفاتحة انقلاب عظيم في شئونها الاجتماعية : حول العرب الجزيرة الى حـديقة فنظموا شئونها الادارية وعضـدوا العلوم والصنـاعة : ولـكنهم لم يتوفقوا الى أخماد الغيرة والمنازعات فى أنفس القبائل : كانت لديهم الفرصة لتأسيس دولة أبدية ولـكنهم أضاعوهـا بالخلاف والتفرق . ولم يكن ذلك قاصرا على القبائل العربية فان البربر الذين كان يتألف منهم سـواد الجيش كانوا يبغضون الضباط العرب ولطالما رفعوا لواء الهياج والعصيان . وكان مسلمو الاسبـان يبغضون العرب لـكبريائهم والبربر لوحشيتهم . أزالت تعاليم الاسلام الديمقراطية كل اختلاف فى اللون والجنسية ولـكن العربى فى الاقطار القاصيـة التى انتشر الاسـلام فيها بالسيف لم يستطع أن يتنـازل عن تلك الـكبرياء التى كانت له طبيعـة لازمة فـكان مثـل الالمـانى أو الانجليزى السـكسونى يعـد نفسه أشرف الخليقه . واعتنق الاسبان الاسـلام بنفس الوحشية التي اعتنقوا بهـا النصرانيه فـكانوا يطالبون بالحـكم الذاتى ويشجعهم الفقهاء على الهياج. أدى ذلك الى اضمحلال الدولة العربيه وشجع الفرنج على دس الدسائس وترقب الفرص لاستعادة

الولايات الشمالية فى فترة قصيرة (١)

قضى الفتح على امتيازات الاشراف وخفف من عبء الضرائب الذى كان يثقل كاهل الشعب . فرضها المسلمون بالمساواة والعدل على جميع العناصر والطوائف لافرق بين دين أو جنسية وأمنوا السكان على أموالهم وعقائدهم وأباحوا لهم اتباع قوانينهم وتقاليدهم واختيار حكامهم من بينهم : وأخذوا بناصر الطبقات المستعبدة التى كانت الى ذلك العهد فى أتعس حالات الذل والفاقه فعاد السكان الى المدائن والقرى بعد التشتت فى الجبال والسهول ورحبوا بالنظام الجديد . ومن ذلك ندرك سر تفضيل الاسبان للحكم الاسلامى الذى كان خير مثال للعدل والانصاف والتسامح على استبداد القوط والفرنج. قال الاستاذ لاين بول.

(١) السيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ـ بن خلدون . واشد ما كانت تستعر نار ذلك الخلاف بين مضر وحمير وذلك لعدة أسباب منها أن لسان حمير كان أصل اللغة العربية التى تكلمت بها مضر وألبستها ثوبا قشيبا من الفصاحة والبلاغة وأن اختلافهما فى الاخلاق والعوائد كان عظيما وأهم من ذلك أن حمير كانت لهم قبل الاسلام مدنية وحضارة ودولة ضخمة ولكن مضرا الا قريشا كانوا بدواً برأس كل عشيرة منهم زعيم فأدى ذلك الى خضوعهم لحمير ودفعهم الجزية لهم حتى القرن الخامس من الميلاد وكان جهاد حمير فى الرئاسة ومضر فى الاستقلال سببا فى أثارة الغيرة والحسد والبغض بين الطائفتين ولك مايؤيد ذلك فى « أيام » العرب ووقائعها وكانت تعاليم الاسلام سببا فى تلطيف حدة ذلك الخلاف وانما فى المدينة فقط حيث كان تأثيرها فى الحث على الاتحاد والوئام أبلغ وأعظم أما فى الاقطار القاصية فقد عاد ذلك الخلاف

« أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة القرون الوسطى بينما كانت أوروبا تتخبط فى ظلمات الجهـل فلم يكن ثمة سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية .

« ماكان المسلمون كالبربر من القوط أو الوندال يتركون وراءهم الخراب والموت . حاشا : فأن الاندلس لم تشهد قط أعدل من حكمهم وأصلح منه . ومن الصعب أن نقول أنى اكتسب العرب تلك الخبرة الفائقة بالشئون الادارية فقد خرجوا من الصحراء الى الغزو ولم يفسح لهم تيار الفتح مجالا يدرسون فيه ادارة الامم (١) »

وقسم الفاتحون اسبانيا الى عدة مقاطعات يدير شئون كل مقاطعة حاكم يختاره الامير الذى يعينه حاكم أفريقيه بتفويض من بلاط دمشق وكانت أولاها تشمل الاراضى الواقعة بين البحر الابيض ونهر الوادى الكبير والجزء الواقع بين ذلك النهـر وبين وادى يانا ومدنها الكبيرة قرطبة وأشبيلية ومالقه وجيـان. وثانيتها تشمل أواسط اسبانيا والجزء الواقع بين البحر الابيض شرقا ونهر دورو شمالا وولاية البرتغال غربا وأشهر مدنها طليطله وقونقه وسيقوبيه ووادى الحجارة وبلنسية ودانية وقرطاجنة ومرسية ولارقة وثالثتها تشمل جليقية والبرتغال وأشهر مدنها

وذكا حتى أدى فى الأندلس قبل بعيد الى معارك شديدة بين الفريقين كانت سببا فيما حل هنالك بالاسلام من الفشل والمصائب

(١) لابن بول : تاريخ العرب فى اسبانيا . الفصل الاول

مريدا وباجه ولشبونه وأستورقة وسموره وشلمنقه .ورابعتها تمتـد من شاطىء الدورو الى جبـال البرنيه على صنفي نهر الايبرو وأشهر مدنها سر قسطه وطرطوشه وتراغونه وبرشلونه وجيرونه وتطيله وولادوليد وغيرها

ولما اتسع نطاق الفتوحات الاسلامية أنشئت مقاطعة أخرى فى شمال البرنيه شاملة لاربونه ونيم وقرقشونه وبزييه وآدج وماجيلون ولاديف

فى هذه المدائن تفرقت القبائل المختلفة فنزلت قبائل دمشق بقرطبه وحمص باشبيليه ونيبله وقنسرين بجيـان وفلسطين بشـدونه والجزيرة ونزلت قبـائل فارس واليمن بريه ومالقه وشريش وطليـطله وغرناطه وماردهوغيرها ونزل الحجازيون بداخل الجزيرة

٢ . ـ ولنعد الى أتمام الكلام على الفتوحات الاسلامية فى أوروبا : أبدى عبـد العزيز بن موسى همـة فائقة فى أدارة الحـكومة الجديدة وأصلاح أمورها فأنشأ ديوانا لتطبيق الاحكام الشرعيـة وتنسيقها حتى توافق مشارب السكان ولتجمع كلمة القبائل وشجع الزواج بين الفاتحين والاسبان وتزوج هو بأرملة رودريك (أيلونا) التى يدعوها مؤرخو العرب بأم عاصم وتوافد عليه المهاجرون من مصر والشام وفارس فأحيوا بالجزيرة موارد الصناعة والتجارة ولـكنه لم يستطيع أن يوفق بين القبائل المختلفة ولا أن يخمد من ثورة الجند فقتل فى شوارع أشبيلية بأغراء من سليمان بن عبد الملك في أواخر سنة ٩٥ ﻫ وكان يخشى أن يجد فيه بعـد

الذى أنزله بأبيه موسى منافساً يسمى وراء الاستقلال بنفسه (١) فولى الجند مكانه أيوبا بن حبيب اللخمى بن أخت موسى بن نصير ولكن عامل أفريقيه محمدا بن يزيد الذى كان له أن يعين حاكم الاندلس لم يصادق على تعيينه فعزل بعد بضعة أشهر نقل فى خلالها حاضرة الحكومه من أشبيليه الى قرطبة وعين مكانه الحر بن عبد الرحمن الثقفى من مضر فغزا لانجدوك سنة ٧١٨ م ولبث فى منصبه ثلاث سنين كثرت فى خلالها الفتن والاضطرابات فعزله عمر بن عبد العزيز وولى مكانه السمح بن مالك الخولانى فقبض على أزمة الحكومة بنشاط وحزم وبادر باصلاح الخلل الذى سرى الى الادارة والجيش وابتني قنطرة قرطبة الشهيرة وخمس أرض الاندلس

وكان السمح فوق خبرته الادارية جنديا قديراً وقائداً عظيما فبعد أن أخمد الفتن ونظم الامور زحف على لانجدوك (سبتمانيا) وبروفانس (٢) وشتت شمل الثوار هنالك. وكانت المملكة الفرنسية فى ذلك الحين في منتهى الضعف . وكان ملوك الميرو فنجيان أبناء كلوفيس قد ركنوا الى الدعة وسحب النسيان عليهم ذيله حتى أصبحوا قبيل القرن الثامن آلات فى أيدى

(١) وذكر بن الاثير أن السبب فى مقتله هو الاثر السيء الذى أحدثه انقياده لايلونا ومبالغته فى الابهة والاحتجاب عن الرعية والتشبه بملوك القوط (ج٥ ص٨)

(٢) لا يوجد أو لم نعثر علي تفاصيل مطولة الغزوات هؤلاء الولاة وربما كان ذلك لان غزواتهم لم تكن ثابتة الاثر بل يغلب أن تكون بقصد السبي والغنيمة أو العقاب

الوزراء والمحافظين وتركوا أدارة المملكه لمحافظ القصر وهي وظيفة استقلت بها اذ ذاك أسرة الكارولنجيان . وتركها ببين دى هير ستال زعيم الاسرة لارملته وولده الشرعي فاغتصبها ابنه الدعى شارل. وكان شارل مثل أبيه ببين دوقا من فرع أوستراسيا أشجع القبائل الجرمانية وأشدها بأسا وكان فى ذلك الحين كمحافظ للبلاط يستأثر بسلطة يحمل أمراء المقاطعات وحكام المدن أو يرغمون على منحها .وتلقى شارل دروسه الحربية فى المعارك المحلية التى كانت تنشب دائما بينه وبين منافسيه وفى المواقع التى كان يستعر لظاها اذ هاجم الفرنج رد الفريزيين والبافاريين والسكسونيين والتورينيين الذين كانوا فى ذلك الحين يهاجمون الالمان الذين عبروا الرين واعتنقوا النصرانية بشدة متناهية .وكانت حكومة يغشاها الاختلال والظلم داعية الى طمع الامراء الاقطاعيين فكان كل أمير يسعى فى الاستقلال بأرضه محتقرا ضعف الملك واستبداد المحافظ .

وكان أقوى هؤلاء الامراء وأشدهم بأسا أود دوق اكوتين فاغار على ولايات غاليا الجنوبيه وأخذ يطمح الى اغتصاب الملك وانحاز اليه القوط والفسقونيون والفرنج

ولما أخترق السمح لانجدوك استولى على أربونة وعدة بلاد أخرى ثم سار لحصار تولوز عاصمة اكوتين ولكنه قبل أن يهاجمها أشرف عليه أوددوق اكوتين بجيش ضخم فنشبت بين الفريقين معركه هائلة استشهد فيها السمح وارتد المسلمون ألى بروفانس وذلك فى مايو سنة ٧٢١م

ولما قتل السمح عند أسوار تولوز انتخب الجيش لقيادته عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقي فلبث في منصبه سنتين حتى قدم عنبسة بن سحيم الكلبي الذي عينه الخليفه والياً للاندلس . ويصف المؤرخون عبد الرحمن بالشجاعة الخارقة والمهاره الفائقة والامانه والعدل والتقوى فقبض على أزمة الحكومة وأخمد الفتن التي كادت أن تمزق الجزيرة الى أن قدم الحاكم الجديد في صفر سنة ١٠٣ هـ (٧٢١ م)

وأستأنف عنبسة الفتوحات الاسلامية في الشمال فزحف على لانجدوك مرة أخرى وغزا قرقشونه ونيم وغيرها من الحصون الشمالية وحالفه القوط هنالك . قال أيزيدور دى بيجا « كان نجاح عنبسه راجعا الى الجرأة والمهارة أكثر منه الى القوة والكثرة وكانت حسن معاملته للاهلين سببا في تقوية شوكة الاسلام في جنوب فرنسا » وقضى نكد الطالع أن يقتل عنبسة في مفاوز البرنيه حيث التقى المسلمون بكمين من الثوار الغسقونيين (١٠٧ هـ — ٧٢٦ م) فعاد الاضطراب الى الجزيرة وتوقف الجيش عن الغزو وانسحب الى الداخل

وتوالى على الاندلس أثناء السنوات الخمس التي عقبت وفاة عنبسة خمسة ولاة (١) لم يحكم بعضهم سوى بضعة أشهر فعم الاضطراب لذلك واختلت أدارة الحكومة . واستظهرت عصابات الثوار التي كان يقودها

(١) هم على التوالي عذره بن عبدالله الفهرى . يحيى بن سلمة الكلبي . عثمان ابن أبي نسعة الخثعمي . حذيفه بن الاحوص القيسي . الهيثم بن عبيد الكلابي

بلايو . فحاول الهيثم بن عبيد الذى تولى الامارة سنة ١١٣ هـ أن يخمد شوكة الثوار فعبر البرينه وغزا ليون ومايون وشالون الواقعة على نهر الساؤون . واستولى على اوتون وبون . ولكن ذلك الفتح الكبير لم يأت بثمرة قط فقد ادى اختلاف القبائل وتمرد البربر الى استيلاء القوط وتخاف المدائن عن قبضة الفاتحين

٣ . — ولما توفى الهيثم عين الخليفة هشام بن عبد الملك عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى حاكما لولاية الاندلس سنة ٧٢٩ م . وكان عبد الرحمن أقدر حاكم وليها فى عهد الامويين وأعظمهم أقداما وجرأة . كان قائدا عظيما ومصلحا كبيرا فرحب المسلمون بتعيينه وأحبه الجند لعدله وحلمه وكرمه ولينه . وكان عظيم الهيبة نافذ الكلمة فى جميع القبائل فتراضت مضر وحمير وساد الوئام فى الجيش وانتظمت أحوال الجند

وبدأ عبد الرحمن ولايته بزيارة المقاطعات المختلفة فنظم شئونها وعهد بادارتها الى الاكفاء وقمع الفتن ورد المظالم وأعاد الى المسيحيين معابدهم وأملاكهم المغتصبة وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالمساواة والعدل وقضى صدر ولايته فى العناية باصلاح الخلل الذى تطرق فى عهد أسلافه الى ادارة الحكومة والى أهبة الجيش المعد لغزو غاليا وأضاف الى الصفوف التى جمعها من المقاطعات المختلفة جيشا من نخبة فرسان البربر باشراف ضباط من العرب أولى شجاعة وبأس وبالغ فى اتخاذ التدابير لتحصين الحدود الشمالية ورد غارات الثائرين

وكان عبد الرحمن يتوق الى الانتقام لمقتل السمح وارتداد المسلمين عند أسوار تولوشه (تولوز) وكان الحماس الديني اذ ذاك عظيما فاحتشد المسلمون للغزو والجهاد واجتمع منهم جيش جرار وكان حاكم سردانيه المسلم عثمان بن أبي نسعـه أو منوزا كما يسميه الفرنج قـد تزوج من الحسناء لاميبجي أبنـة دوق اكوتين وتحالف معه على العصيان والثورة فأوفـد عبد الرحمن جيشا الى البرنيـه حيث كان الثـائر يقيم مع زوجتـه ففر الى الجبال ولكنه أخـذ وقتل وأسرت لاميبجي وأرسلت الى بـلاط دمشق حيث تزوجت من أحد ابناء الخليفة

ولما قتـل بن أبي نسعـة تأهب حلفاؤه للزحف على المقاطعـات الاسلامية فرأى عبد الرحمن نفسه مضطرا الى القتال قبل ان يتأهب لتنفيذ الغزوة التي كان يفكر في القيام بها فاختـرق ولايتي أراجون ونافار (بلاد البشكنس) ودخل فرنسـا في ربيع سنـة ٧٣٢ م وزحف نوا على آرل التي تخلفت عن دفع الجزية وبعـد معركة عنيفـة على ضفـاف الرون سلمت المدينة . واتجه عبد الرحمن بعدئذ الى بوردو فاستولى عليها دون مشقة وحاول دوق اكوتين أن يقف في وجهه فهزمه على ضفاف الدوردون شر هزيمة . قال ايزيدور دي بيجا « والله وحده يعلم كم قتل في تلك الموقعة من النصارى » وبانهزام أودتم أخضاع أكوتين (١) فاخترق المسلمون

(١) تقابل من مقاطعات فرنسا الحديثة بريجور وسانتو نج وبواتو

برجونيا . وخفق العلم الاسلامي فوق أسوار ليون وبيزانصون [١] وصانص وبعد أن حضها عبد الرحمن وترك في كل منهاحامية قوية زحف توا على عاصمة الفرنجة . قال أدوارد جيبون «وامتد خط الظفر الى ألف ميل من صخرة طارق الى نهر اللوار وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل الجيش الاسلامي الى حدود بولونيا وآكام أيكوسيا فليس الرين بأمنع من النيل أوالفرات وربما اخترق الاسطول العربي عباب التيمز بلا معركة بحرية بل ربما كانت تعاليم القرآن تدرس الآن في مدارس أكسفورد وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة » [٢]

القسم الثاني

موقعة تور

٤ . — تدفعنا الأهمية التي يعلقها مؤرخوا الافرنج على الحرب القادمة بين المسلمين والفرنج في سهول تور الى الافاضة في تفاصيل هذه الموقعة ومؤثراتها ولا تمنعنا قلة الروايات الصحيحة المتعلقة بحوادثها من الاندفاع بما لدينا منها الى الاهتمام بمراقبة ماتقي ضم غزاة الدولة الرومانية

(١) وهي مسقط رأس الشاعر الفرنسي الطائر الصيت فكتور هيجو

(٢) اضمحلال وسقوط دولة الرومان — الفصل الحادي والخمسون

في القرن الثامن تداعت أركان ذلك العالم القديم الذي يشغل تاريخه فراغا كبيرا من عقول المفكرين وتوغل الألمان في أقطاره الشمالية بينما اكتسح الاعراب أقطاره الجنوبية . ثم التقي الأسدان بعدئذ ليستنفد كل جهده في سبيل الاستئثار بالفريسة

مضت ثلاثة أعوام على عبور غزاة رومه الالمان لنهر الرين دون أن تقوم في البلاد حكومة منظمة فتوحد اللغة والعوائد : حينما نهض شارل مارتل ليرد تيار العرب الكاسح المندفع من الجنوب لم تكن غاليا قد تحولت ألى أفرنسيه . في هذا القطر وسواه من أقطار الدولة الرومانيه تداعت سلطة القياصرة منذ القرن الخامس وقامت على أنقاضها أمارات وممالك بربرية لم تكن لواحدة منها صفة البقاء ولم تحاول أحداها أن تضم عدة منها ألى مجتمع متماسك ذي أنظمة سياسية واجتماعية . كان معظم السكان من أبناء الولايات المفتوحة أو بالحري من رعايا الرومان أو الغاليين الذين لبثوا طويلا خاضعين لدولة القياصرة تسود فيهم أخلاق رومه ولغتها وآدابها وحضارتها . أما الغلبة والحكم فكانا للقبائل الجرمانية التي تشرف فوقهم وتسكن بين ظهرانيهم بعضها محتفظ باستقلاله الأخلاقي وبداوته الفطرية والبعض الآخر رقت خشونته بالاحتكاك بالأنظمة والعوائد المتمدنة لانه يجب أن نذكر أن انحلال رومه الغربية لم يحدث بتغلب طوفان فجائي من البربر فأن الغزاة الجرمان لم يعبروا الرين في جيوش ضخمة وأنما في عصابات لا تزيد حدة منها الواعن

بضعة آلاف مقاتل . وكان فتح قطر يتم بعدة فتوحات محليـة تقوم بها مثل هاته العصابات . وكانت القبائل المظفـرة تعود بغنائمها أو تحـل فى البقعة المفتوحة للذود عن مركزها الذى تتخذه قاعدة ثابتة أمالرد عصابة أخرى منافسة لها أو غزو أرض لم تغز بعد وبمرور الزمن قامت بنفوس الفاتحين رغبة فى الاستعمار الدائم ففقدوا شيئا من ظماالتحول والمخاطرة الذى كان يشـدد عزائمهم ويثير فى أنفسهم البسالة والجـلد . واعتنقـو النصرانية ىتركوا مع وثنيتهم كثيراً من العوائد الوحشية

ورغم اعتناق الجرمان للنصرانية وتغلب المدنية علىطبائعهم الخشنة فى غاليا ورغم سيطرة الفرنج على غيرهم من شعب الفاتحين فان البلاد لبثت مرتعاً لعناصر الاختلال والتفرق . وكانت الحرب قائمةبين أمراء الميروفنجيان لاقتيات بعضهم على بعض في نصيبه من المملكة الفرنجيـة واهتم أشدهم بأساً وأبعدهم نظراً برد القبائل الوثنية التيكانت تحاولعبور الرين لتحصل نصيبها من غنائم الدولة الرومانية

٥ . — سـارت غزوات العرب للأملاك الرومانيـة الجنوبيـة والشرقية بأسرع من غزوات الجرمان في الولايات الشمالية فحلت فى البـلاد المفتوحة الأنظمة الاسلامية على قواعد ثابتة . وكان قد مضى منذ وفاة النبي مائة عام ألى عهد موقعة تورمزق المسلمون في خلالها نصف الدولة الرومانية . وتلا أخضاعهم للفرس فتح سـوريا ومصر وأفريقيه ولم تستطع قوة في العالم أن تردهمعن حياة الفتحوالظفر

ولم يكن التفرق قد سرى ألى أوصال الدولة الاسلامية فى مبدأ القرن الثامن بل كانت الاقطار العربيـة تخضع كلها لامير المؤمنين وتطبق الشريعة الاسلامية من صخور البرنية ألى السند

ثم حاول العرب بأمرة أمهر قوادهم أن يتمموا غزو أوربا شمال البرنيه بجيش عرمرم سارت الحوادث طبق مراده وكانت الجيوش المظفرة فى أسبانيا :

« جمع لايحصى
من عرب وبربر وشأم وروم
وفرس وقبط وتتر عصبة واحدة
يفيض شبابها أيماناً فتياً وطيد الدعائم
وتستعر حماسة — رائع تآخيها »
تتوق ألى سلب مدن النصرانية واثقة من هول بأسها

« ولم يك الزعماء
أقل ثقة بالنصر وقد أخلص فى محالفتهم
يتيهون كثيرا بتلك القوة الجارفة
التي وثقوا من أنها كماندفعت
حيثما كانوا بلا منازع ستندفع ظافرة ألى الامام
حتي يصبح الغرب المقهور كالشرق
يطأطيء الرأس أجلالا لمحمد

وتنهض الحجاج من أقاصى المنجمد
لتطأ بأقدام التوبة والاخلاص الرمال المحرقة
المنتثرة فوق صحارى العرب وأراضي مكة الصخرية[١]»

ولا تقتصر نسبة هذه الاطماع الى العرب الذين أبادوا دولة القوط على الشاعر الاوربى الحديث بل تجيش بها أقوال المتقدمين من مؤرخي العرب : أثار ظمأ الظفر وآماله السامية تعيين الخليفة لعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي والياً لاسبانيا فى ٧٢٩ م فقاز الجيش بقائد برزت بطولته في الحروب الافريقية والاسبانية وأكبرت الجند فيه الجود والشجاعة وركنت الى خبرته بأحوال الفرنج وطرائقهم الحربية التي اكتسبها فى الحروب الماضية

٦ . — وفي صيف ٧٣٢ م عبر عبد الرحمن جبال البرنية بجيش يقدره مؤرخو العرب بثمانين الف مقاتل ويقدره رواة القسس ببضع مئات الالوف . ولا ريب في رجحان التقدير الاول وهو الجيش الذى «أنقذت من فتكه غاليا والنصرانيه» على يد الامير شارل بعد أن اكتسح مقاطعة أكوتين وشتت قوى الدوق أود واستولى على كثير من المعاقل والمدائن

« ولم ينقذ النصرانية من تلك المصائب سوى رجل واحد هو شارل

---

(١) عن الشاعر الأنجليزي روبرت سوذى في (رودريك)

ابن بيبن (١) فقد قنع بلقب المحافظ أو الدوق ولكنه أيد هيبة العرش وسحق ثوار المانيا وغاليا . وحين الخطر الداهم استنصر به منافسه أود بعد هزيمته وصاح الفرنج « وانكبتاه ! طالما سمعنا بالعرب وفتوحاتهم وخشينا مهاجمتهم من المشرق . ولكنهم قهروا أسبانيا من المغرب ثم غزوا بلادنا مع أنهم أقل منا عدداً وعدة وأجاب محافظ القصر « أذا أصغيتم لنصحي فلا تعيقوا تقدمهم أو تسارعوا الى ردهم. أنهم كوابل من الخطر أن يصادم في بدأ نزوله وأن ظمأ المغنم وحمية الظفر ليملآن قلوبهم حماسة وشجاعة وهما أنجع من السلاح والعدد فاصبروا حتى يثقل عليهم عبء الثروة فيفرق منهم الكلمة ويكفل لكم النجاح (٢)

---

(١) ويسميه العرب قارله . ويعضهم يعتبرها سمة لملوك الفرنج لا أسما له فيدعو كل ملوك فرنسا قارلة ويسميه بن الاثير قلدوس

(٢) ادوارد جيبون عن اللاتينية وقد عثرنا على أصلها العربي : فاجتمعت الفرنج الي ملكها الاعظم قارلة وهذه سمة لملوكهم فقالت له ماهذا الخزي الباقي في الاعقاب . كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتي أتوا من مغربها واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لادروع لهم . فقال لهم ما معناه : الرأي عندى أن لاتعترضوهم في خرجتهم هذه فأنهم كالسيل يحمل من يصادره وهم في أقبال أمرهم ولهم نيات تغني عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرئاسة ويستعين بعضهم ببعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر (نفح الطيب عن الحجازي عن ١ ج ١ ص ١٢٩)

وكان شارل كما ذكرنا نافذ الكلمة في البلاط الميروفنجي فرأى في دعوة أود تحقيقاً لا طماعه من اغتصاب العرش والاستئثار بالسلطة والقضاء على منافسه فحشد جيشا جراراً من الجند المرتزقة من على ضفاف الدانوب والالب ومن بين العشائر الجرمانية المتوحشة لشد أزر جنده من الفرنج. ثم زحف نحو الجنوب بين التلال والا كام لملاقاة العرب. وكان الجيش الاسلامي في تلك الآونة قد زحف على مدينة تور الواقعة على نهر اللوار واستولى عليها. وينسب مؤرخو العرب (١) ارتداد المسلمين هنالك ألى ما حل بهم من غضب الله لما ارتكبته قبائل البربر من الآثام والقبائح. والحقيقة أن الطلائع الاسلامية أخطات تقدير قوات العدو. وحينما تهيأ عبد الرحمن لاقتحام نهر اللوار وملاقاة الفرنج فاجأه شارل بجموعه الجرارة. وألفى عبد الرحمن جيوش الفرنجه تفوقه في الكثرة فانقلب راجعا من ضفاف النهر ألى السهل الواقع بين مدينتي تور وبواتييه.

وكانت حال الجيش الاسلامي داعية ألى القلق فأن الشقاق كان مستحكما بين قبائل البربر وكانت تتوق ألى الانسحاب. وكانت الغنائم التي استولى عليها المسلمون جسيمة جداً بحيث أحدثت في صفوف المقاتلين اختلالا. وخشي عبد الرحمن أن تكون سبباً في تعطيل حركات الجيش وانشغال الجند فحاول أن يحملهم على ترك جزء منها ولكنه لم

(١) راجع الفقره السابعه من هذا الفصل

يشدد في ذلك خيفة التمرد . وكان جيش شارل مؤلفا من من فرسان كثيرة ومشاة يتشحون بجلود الذئاب وتنسدل شعورهم المتجعدة فوق أكتافهم العارية فعبر اللوار على قيد أميال من معسكر العرب وتحصن على ضفاف النهر فنشبت بين الجيشين معارك صغيرة مدى أيام ثمانية وفي اليوم التاسع ابتدأت بينهما معركة عامة فتقاتلا حتى انسدال الظلام . واستأنفا القتال في اليوم التالي فضاعف المسلمون قواهم حتى أخذت قوى الفرنج في الاضمحلال وأصبح النصر من المسلمين قاب قوسين . ولكن حدث عندئذ أن صاح في المواقع الاسلامية صائح بأن جند المسلمين وغنائمهم في خطر عظيم فوقع الاختلال بين الصفوف وتواثب الجند للدفاع عن غنائمهم فحاول عبد الرحمن أن يعيد النظام وأن يهدأ من ثورة الجند فذهبت مساعيه سدي . وأصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته فعم الاضطراب في الجيش الاسلامي وانتهز الفرنج تلك الفرصة فهجموا على المسلمين على أنهم قد آنسوا ثقل الحسام العربي فرحبوا بقدوم الظلام وافترق الجيشان عند انسداله

وفي الحال قام النزاع بين قواد الجيش العربي وضباطه واختلفت القبائل وهاجت الخواطر فنبذ المسلمون فكرة النصر وعولوا على الانسحاب في أمن وسلام فارتد القواد المسلمون الى سبتمانيا (لانجدوك) في ظلام الليل . وفي فجر الغد أقلق شارل وحليفه أودسكون المعسكرات العربية فتقدما منها بحذر وأحجام فألفياها خاوية خالية ألا من بعض

الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب فذبحوا على الاثر ولم يجرأ شارل على مطاردة العرب بل عاد بجنده شمالا

٧ . — ويبالغ الرواة القسس فى تقدير الرعب الذى أحاق بالفرنج من غزو العرب والمصائب التى حلت بهم من جرائه فيقولون أن العرب وملكهم أسمه عبد الرحمن خرجوا من أسبانيا مع نسائهم وأولادهم وعددهم وأقواتهم فى جموع لا تحصى وحملوا كل ما استطاعوا من الأسلحة والذخائر كأنما عولوا على البقاء بأرض فرنسا (١)

ولما رأى عبد الرحمن أن السهول قد غصت بجموعه اقتحم الجبال وتوغل فى السهول وأثخن فى أمة الفرنج وسلط السيف على الرقاب بدرجة هائلة حتى أن أودو حينما تقدم لقتاله على نهر الجارون وفر منهزما أمامه لم يكن يعرف عدد القتلي سوى الله وحده . ثم طارد عبد الرحمن الكونت أودو . وحينما حاول أن ينهب ويحرق كنائس تور المقدسة التقي بشارل امير فرنج أوستراسيا وهو رجل ذو أقدام وشجاعة منذ نعومة أظفاره . وكان أودو قد بادر بأخطاره . وهنالك قضى الفريقان أسبوعا في التأهب ثم وقفت أمم الشمال كسور منيع أو ككتلة من الثلج وذبحوا العرب بحد السيف

1 (*Lors issirent d'Espaigne li Sarrazins, et un leur Roi qui avoit mom Abdirames, et ont leur fames et leur enfans et toute leur substance en si grand plente que nus ne le prevoit nombrer ne estimer; tout leur harnois et quanques il avoient amenement avec entz, aussi comme si il deussent toujours mes habiter en France.*)

ويجمع مؤرخو الفرنج والنصرانية على أن مقتل عبد الرحمن فى صدر الموقعة كان من أهم ارتداد العرب الذين بعد أن قتل قائدهم انسحبوا فى ظلام الليل دون أن يشعر بهم المسيحيون الذين كانوا يتوقعون هجومهم فى اليوم التالى — والروايات العربية تلقي شيئاً من الضياء على تلك الحوادث العظيمة فى حين أن الروايات الفرنجية يحفها الشك والمبالغة والتعصب فقد دون العرب حروب مواطنيهم وذكروا حملة غاليا بقيادة اميرهم عبد الرحمن وارتداده ومقتله فى موقعة استعر لظاها بين ملك الفرنج قلدوس (١) (شارل) وكيف أن أمير الحدود الفرنجه جمع جيوشاً جرارة وحارب المسلمين مدة كانت سجالا قال مؤرخو العرب «ولكن عبد الرحمن ردهم وكان رجال الأمير قد شتدت عزائمهم بما أحرزوه من النصر المستمر ولهم بشجاعته وخبرته فى الحروب ثقة وطيدة الدعائم فمزق المسلمون أعداءهم وعبروا نهر الجارون واثخنوا فى هاتيك السهول وسبوا جموعا لا تحصى . ثم اندفع ذلك الجيش كعاصفة هائلة . وكان الظفر قد أظمأ هؤلاء الغزاة فعند عبور النهر

(١) ان التفاصيل الآتيه المنسوبة الي مؤرخى العرب جمعها ونقلها العلامة كوندى الاسبانى فى كتابه *(Historia de la dominacion de los Arabos en Espana,* (تاريخ دولة العرب فى أسبانيا) وقد أوردتها معربة لانى لم أعثر على أصلها العربي ويظهر أن المؤرخ المذكور جمعها من كتب أو رسائل محفوظة فى مكتبة الاسكوريال اما بأصلها العربي أو مترجمه عن اللاتينية . وقد حافظت فى ترجمتها على الروح العربية ما استطعت

ألجأ عبد الرحمن الكونت ألى الفرار والتمنع بعقله ولكن العرب هاجموه ودخلوه عنوة وذبحوا الكونت [١] وكل شيء كان يخضع لسيوفهم القابضة للأرواح . وارتجت أمة الفرنجه بأسرها رعبا من ذلك الجيش المهول . فتقدمت ألى ملكها قلدوس وأخبرته بما ارتكبه المسلمون من التخريب والسفك وكيف أنهم قهروا السهول الممتدة من ناربون وتولوز وبوردو وقتلوا الكونت فطمنهم الملك ووعدهم بالخير . وفى سنة ١١٤ من الهجرة ركب جواده وسار على رأس جموع لا تحصى للقاء المسلمين فأشرف على مدينة تور العظيمة . ورأى عبد الرحمن وأولى الحزم من ضباطه أن الاختلال كان سائدا فى صفوف المسلمين المثقلين بالغنائم ولكنهم خشوا التمرد أذا أمروهم بترك الاسلاب والاقتصار على أسلحتهم وخيولهم . واعتمد عبد الرحمن على شجاعة جنده وحسن طالعه الذى أخلص في محالفته . ولكن الاختلال خطر خالد على سلامة الجيش فأن عبد الرحمن وجنده هجموا على تور ليضاعفوا غنائمهم ، وقاتلوا حصونها بشدة رائعة حتي سقطت المدينة في أيديهم أمام أعين الجيش القادم لأنقاذها وانقض المسلمون على سكانها بوثبات الضوارى المفترسة قالوا « ولا ريب أن عقاب الله كان على وشك الانقضاض على من تجاوز الحدود وكان طالع المسلمين ولى »

« وبالقرب من نهر الأوار (اللوار) اصطف رجال اللغتين وأئمة

---

(١) يظهر أن المقصود بذلك هو تاثر بن بي نسه الذى حالف الدرق أود كما تقدم

الحزين . ولما كانت قلوب عبد الرحمن ورجاله وضباطه تفيض بالكبرياء والسخط فأنهم بدأوا القتال وحمل فرسان المسلمين على صفوف الفرنج بشدة متناهية وقابلهم هؤلاء بثبات فقتل كثير من الفريقين ألى أن غابت الشمس وخيم الظلام ففرق الجيشين وفي اليوم التالى عاد المسلمون الى الهجوم وشق فرسانهم الطريق الى قلب الجيش النصرانى ولكن كثيراً منهم كان قلقا على الغنائم التي تركت في الخيام . وصاح بينهم صائح مخادع بأن يد العدو قد امتدت الى معسكراتهم بالسلب فارتدت عدة فرق منهم لحماية الخيام فغلب على الظن انهم ارتدوا الى الفرار واختلط الحابل بالنابل . وبينما كان الأمير عبد الرحمن يحاول ارجاع المرتدين واعادة النظام فى الصفوف احتاط به فرسان الفرنجه وأثخنوه جراحا بالغة خر لها قتيلا فارتد الجيش امام العدو وقتل كثيرون حال الارتداد . وقد وقعت هذه الهزيمة بالمسلمين وقتل اميرهم عبد الرحمن الطيب الذكر فى العام الخامس عشر بعد المائة من الهجرة.

في سهول تورو بواتييه فقد العرب سيادة العالم بأسره[1] وقد كانت منهم

---

(١) قال الفيلسوف جيبون أن حوادث هذه الموقعة « أنقذت أسلافنا البريطانين وجيراننا الغاليين من نير القرآن المدنى والدينى واستبقت لبها روما وجلالها وأخرت استعباد القسطنطينيه وشدت بأزر النصرانيه وأوقعت بأعدائها الفشل والتفرق » (الفصل الثانى والخمسون) – ويعنيها شايجل « بالنصر الباهر » ويذكر كيف أن شارل مارتل أنقذ النصرانيه وأمم الغرب من قبضه الاسلام القاتكة (فلسفه التاريخ) ويقول رانك « أن فاتحة القرن الثامن عشر أهم عصور تاريخ العالم ففيها كانت تعاليم

قريبة المنازل دانية القطوف ولكن الخلاف والحسد اللذين هما نقمة الجماعات الاسلامية أديا الى تلك العاقبة السيئة فسكن تيار الفتح المزبد وقصرت أشعة الاسلام عن تناول الممالك الشمالية

محمد تنذر بامتلاك أيطاليا وغاليا والوثنيه بالامتداد ألى ماوراء الرين فنهض أزاء ذلك الخطر فتى من عشيرة جرمانية يدعي كارل مارتل وأيد هيبة النظامات المسيحية التي كادت تمحي بنضال جهاد تقتضيه غريزة الاحتفاظ بالنفس ودفعها ألى بلاد جديدة » (تاريخ الاشراق) ويعتبر أرنولد الموقعة « أحدى هاته المواقف الحاسمة لنجاة الانسانية وضمان سعادتها مدى قرون » (تاريخ الجمهورية الرومانيه) ولكن المؤرخين سيسموندى وميشليه لايعلقان أهمية كبيرة على تأثير الموقعه وذكر فنلى « أن كبرياء مؤرخي غاليا عظمت شأن تغلب شارل مارتل على حملة ناهبة من عرب أسبانيا وصورته كانتصار باهر . ونسبت خلاص أوربا من نير العرب الى شجاعة الفرنج فى حين أن حجابا القي على عزيمة ليو الثالث الذى نشأ جنديا بحث وراء طالعه ولم يكد يجلس على عرش القسطنطينية حتى أحبط تدابير الوليد وسليمان » (تاريخ الدولة البيزنطية) على أن النقد الحديث مجمع على أن التفرق والثورات الداخليه أدت الى النصرانيه خدمات أجل مما أدته موقعه تور

ومما يؤخذ في هذا المقام على مؤرخي العرب أنهم لم يحاولوا التعليق على أهميه الموقعه فاكتفي بعضهم بأن ذكرها فى بضعه كلمات (المقرى ج ١ ص ١٠٩) (بن الاثير ج ٥ ص ٦٤) ولم يذكر عنها بن خلدون شيئا أصلا ويدعونها جميعا موقعه بلاط الشداء لكثرة من استشهد فيها من عظماء المسلمين

وقد بالغ الرواة القسس فقدروا خسائر المسلمين بثلاثمائة الف مقاتل[١] أى مايزيد عن أربعة أضعاف الجيش الاسلامي قبل اختراقه لفرنسا وخسائر الفرنج بنيف والف وهو بون شاسع ينسبونه ألى العناية الالٰهية فى الأخذ بناصر النصرانية . وتظهر قيمة المبالغة متى علمنا أنه لم تمض بضعة أشهر حتى استأنف العرب هجومهم بجيش ولو أنه لم يكن منظما كجيش عبد الرحمن ويروى الرهبان أيضا أن العرب أرادوا الانتقام لمقتل قائدهم فهبوا دير سولنيان أثناء انسحابهم ألى الجنوب

---

(١) قال ادوارد جيبون بمناسبة الكلام عن ذلك « ولكن تلك القصة الخرافية يكن ردها بأحجام شارل عن مطاردة العرب خشية الفشل والخديعة وتفرقة الجيش . أن سكون الفاتح ينم عن نقد الدماء والقوة وأن تمزيق الخصم لا يتأتى حين التحام الصفوف وأنما حين الانسحاب وتوليه الادبار » (الفصل الحادى والخمسون) على أن للوقعة أصابت الاسلام فى مقتل عبد الرحمن فهو الرجل الوحيد الذي كان نافذ الكلمة فى مضر وحمير ولم يملك سواه عليهما ذلك النفوذ

القسم الثالث

الحرب الداخلية

٨ . — لما علم هشام بن عبد الملك بالخطب الجلل الذى أصاب المسلمين فى سهول تور عين عبد الملك بن قطن الفهرى حاكما للأندلس وأمره أن يعمل على استعادة هيبة المسلمين فى هاتيك الأقطار . وكان ثوار المقاطعات الشمالية قد انتهزوا فرصة مقتل عبد الرحمن وحاولوا أن ينزعوا عنهم نير المسلمين فسير عبد الملك جيوشه ألى أراجوان (١) ونافار حيث هزم الثوار فى عدة مواقع واضطروا ألى طلب الصلح . ثم غزا لانجدوك وحصن مواقع المسلمين فيها . وفى سنة ٧٠٤ م اتحد يوسف حاكم أربونه المسلم، ومرنتيوس دوق مرسيليا الذى كان محالفا للمسلمين على غزو شرق فرنسا فعبرا نهر الرون، واستوليا على سان ريمي التى كانت تسمي حينئذ فريتا . ثم زحفا على مدينة أفنيون وهزما جموع الفرنجه التى تصدت لايقافهما واستوليا عليها بعد حصار قصير ، واستولى المسلمون بعد ذلك علي آرل وايون

وبعدئذ عاد عبد الملك ألى الجنوب ولكنه عزل فى شهر رمضان سنة ١١٦ هـ — نوفمبر سنة ٧٣٤ م أما لما أصابه من الفشل فى مفاوز البرنيه

---

(١) الثغر الاعلى

في مقاتلة الثوار وأما لأنه كان ظلوما جائرا في حكومته(١) فخلفه عقبة ابن الحجاج السلولي الذي عينه عبد الله بن الحبحاب عامل أفريقية. وكان عقبة خير مثال للعدل والتقوى فرد المظالم وأرضى جميع العناصر والقبائل وفي الخمس سنين التي تولى فيها أدارة الجزيرة غزا فرنسا عدة مرات ودفع الفتوحات العربية ألى أبعد مما كانت عليه فحصن جميع المواقع الاسلامية الحربية على ضفاف الرون واتخذ أربونه قاعدة للغزو والجهاد فحصنها وملاها بالرجال والذخائر. وفي سنة ١١٨ هـ - ٧٣٦ م اخترق ولاية دوفينيه واستولى على سانبول وتروا شاتوودنزير وفالانس ونيوليون وانتشرت الجيوش الاسلامية في بورجونيا وهددت عاصمة فرنسا(٢) وكان المسلمون قد افتتحوا بيومون قبل ذلك بعام وانشأوا بها معاقل حربيه

والفي شارل زعيم الفرنجة نفسه عاجزا عن مناهضة السيل الاسلامي فاستنصر بلوتبراند ملك اللومبارد وحشد اخوه شلدبراند جيشا من الولايات الفرنجيه الشماليه ثم زحفت الجيوش المتحدة على مواقع المسلمين وفي الوقت نفسه حرض شارل البشكنس والغسقونيين على العصيان والثورة فهاجموا الممرات الجبلية ليحولوا بذلك دون انسحاب عقبه. وهكذا هو جم

---

(١) نفح عن الرازي ج ص ١١٠

(٢) لم نجد في المراجع العربية تفصيلا لذلك. ويظهر أن الامير عقبه قام بهذه الغزوة انتقاما لارتداد المسلمين في تور فكان شأنها شأن الغزوات الأولى في فرنسا من الاقتصار على المعاقبة والاغتنام والسبي وهذا على الأقل ما يدعيه مؤرخو الفرنج

المسلمون من كل صوب فسلمت أفنيون بعد حصار طويل وذبحت حاميتها الاسلامية وحاصر شارل أربونه ولكنه اضطر إلى رفع الحصار بعد أن تكبد من دفاع المسلمين أفدح الخسائر. ثم حول السهل الواقع فى جنوب اللوار الى بلقع قفر ليحول بذلك دون تقدم المسلمين فخرب بزييه وآدج اللتين كانتا ضاحكتين أيان الحكم الاسلامي وحول نيم ذات المباني الفخيمة والآثار الغراء القديمة الي كثيب من الرماد ولم يبق الا اطلالا دارسة من ماجيلون التى وصلت الي غاية من الحضارة والرقى لم تصلها فى عهد القوط والفرنجه .

٩٠ — وفى تلك الاثناء خرج بافريقيه كلثوم بن عياض الذى خلف ابن الحبحاب وتحالف مع بلج بن بشر على قتال البربر وعصفت بالمغرب ريح ثورة تناول شررها الولايات الاسبانية فعم فيها الخلل والاضطراب وثار عبد الملك بن قطن الحاكم المعزول ضد عقبه الذى أسره الثوار وقتلوه سنة ١٢٣ هـ قال الرازى «ثار اهل الاندلس بأميرهم عقبه في صفر سنة ثلاثة وعشرين في خلافة هشام بن عبد الملك وولوا عليهم عبد الملك بن قطن ولايته الثانية وكانت ولاية عقبه ستة اعوام واربعة اشهر وتوفي بقرمونه في صفر سنة ثلاثة وعشرين واستقام الامر لعبد الملك» وقبض عبد الملك على أزمة الحكومة على أنه مالبث أن ثارت عليه قبائل الشام بقيادة بلج بن بشر القشيرى الذى فر من أفرقيه ناجيا من واقعه كلثوم بن عياض فثار على عبد الملك وقتله ومثل بجثته واستتب له الامر بعد ذلك وانحاز

الفهريون الي جانبه واجتمع اليهم من انكر فعلته بابن قطن وثار قطن وأميه أبنا عبد الملك على بلج فقتل سنة ١٢٤ وعين اصحابه من بينهم حاكما يدعى ثعلبه بن سلامه فاستعرت نيران الحرب الاهلية وانضم المولدون (مسلمو الاسبان) الى ابنى عبد الملك وانضمت قبائل الشام الى ثعلبه والف البربر حزبا ثالثا فاختلت أدارة الحكومه وتركت المواقع الشمالية دون معونة وغادر اربونه حاكمها المسلم ليأخذ بناصر ابنى عبد الملك وأقفرت المدائن الاخرى من وسائل الدفاع .

ولو أن ببين القصير الذى خلف أباه كمحافظ للبلاط الميروفنجى هاجم المواقع الاسلامية عندئذ لاخذها دون مشقة ولكن الفرنج لم ينسوا الدروس التى القاها المسلمون عليهم فى الحروب الماضية فانتظروا حتى يسود الضعف عليهم وتنهك الحرب الاهلية قواهم

وصادق هشام بن عبد الملك على ولاية ثعلبه فاظهر العدل ودانت له الاندلس ولكن انحيازه الى اليمنيين كان سببا في هياج المضريين فانضم اليه البربر والمولدون وسار ثعلبه لقتال الثائرين فهزمهم عند اسوار مارده واسر منهم جموعا كبيره عول على ذبحها في اليوم التالى ولكن قدم عندئذ رسول الخليفة بامر تعيين حاكم جديد يدعي ابو الخطار حسام الكلبي وهو من اليمنيه اوفده حنظله بن صفوان عامل افريقية تبعا لاوامر هشام ليضع حدا للحرب الاهلية ويحسم النزاع بين القبائل فدخل قرطبه في شهر رجب سنة ١٢٥ فسكن الاضطراب وهدأت الفتن وتصالح الثوار

أقدم ثعلبه بين الطائفتين وعاد الى الشام ولكن ابو الخطار انحاز الى الحميريين فعادت الحرب الاهلية واستعرت بين الفريقين فهزم اليمنيون في شقنده بالقرب من قرطبة وقتل ابو الخطار ثم اختار المضريون ثوابة بن سلامه أحد زعماء اليمنية حاكما عليهم واختار لمساعدته أحدهم المدعو الصميل فتولى ثوابة إدارة الحكومة بمصادقة عبد الرحمن بن حبيب عامل أفريقية ستة عشر شهرا وعند وفاته انتخب الجيش مكانه يوسف بن عبد الرحمن الفهري حفيد عقبة بن الحجاج فسكنت الأمور وتراضى الفريقان ولبث يوسف في منصبه دون مصادقة الخليفة نحو عشر سنين وفي عهده خرج عبد الرحمن اللخمي حاكم اربونه الذي سمي «الفارس الاندلسي» لشجاعته الخارقة ورفع لواء الثورة فلم يلبث حتى قتله خائن انصاره وقامت ثورات اخرى في باجه والجزيرة واشبيلية فاخمد يوسف تلك الفتن واحدة بعد الاخرى ولا ريب انه كان يفكر في الاستئثار بالسلطة وتأسيس مملكة قوية لولا ان قدم اذ ذاك حفيد هشام الى المغرب فغير قدومه مجرى الحوادث وتغلب الامير الاموي على جميع الصعاب بهمة لا تعرف الكلل فاحيا مجد اسرته المندثر وأسس بالجزيرة مملكة عظيمة. ومن هنا تجب معاملة التاريخ الاندلسي مستقلا عن تاريخ الخلافه

وبينما كان يوسف مشتغلا بتسكين الثورة في المقاطعات حشد بين القصير جيشا ضخما وغزا المواقع الاسلامية في لانجدوك وساقوا اخربها وقتل سكانها المسلمين ولكن الحاميات الاسلامية ثبتت في وجهه ونازعته

كل شبر من الارض فـزحف على أربونه سنة ٧٥٥ م وضيق الحصار عليها فلبث الحصار أربع سنين ثم فتح أهلها النصارى أبوابها على حين غفلة من حراسها المسلمين فدخلتها جموع الفرنجة وذبح بين سكانها المسلمين دون رأفة وخرب مساجدها ودورها ومعاهدها وفي الوقت نفسه أدى الاضطراب داخل الجزيرة الى استظهار ثوار المقاطعات الشمالية في ليون وأخلاء المسلمين للمعاقل الجبلية التي اتخذها المسيحيون فيما بعد قاعدة لتشييد مملكة قوية

﴿ تم الكتاب الاول ﴾

الكتاب الثاني

﴿ دولة بني أمية في الأندلس ﴾

العصر الاول

الفصل الاول

ولاية عبد الرحمن الداخل لغاية ولاية عبد الرحمن الاوسط

سنة ١٣٨ — ٢٣٨ هـ — سنة٧٥٦ — ٨٥٢ م

(١) سقوط الدولة الاموية ونهوض الدولة العباسية (٢) عبد الرحمن بن معاوية نشأته وفراره الى أفريقية وعبوره الى الاندلس . محاربته ليوسف بن عبدالرحمن. هزيمة يوسف ومقتله (٣) ثوره القبائل والاشراف. دسائس الفرنج. مهاجمة بن مغيث لعبد الرحمن. هزيمته ومقتله . غارات اميرلبون. غزوة شارلمان. هزيمته أمام سرقسطه. موقعة رونشفال (٤) اخلاق عبد الرحمن ووفاته (٥) هشام بن عبدالرحمن واخلاقه. خروج عبد الله وسليمان ابنا عبد الرحمن . الثوره في طرطوشه وبرشلونه . قتال عبد الرحمن للفرنج . استيلاؤه على اربونه وجيرونده . موقعة فيلدن. فتنة بنا كدنا هزيمة الجليقيين(٦) الحكم المنتصر واخلاقه . خروج عبد الله وسليمان . غارات الفرنج وتصرف الحكم. الثورة في قرطبه وماردة وباجـه (٧) الثوره في طليطله. ولاية عمروس بن يوسف لطليطله . واقعة الحفره . واقعة الربض (٨) وفاة الحكم. ولاية عبد الرحمن الاوسط. غارات الفرنج . ظهور النورمان . الثورة في مارده وباجه وطليطله (٩) تعصب النصارى في قرطبه . مجلس الاساقفة . سفارة تيوفيلس

١ . — تركنا الأندلس تفيض بالاضطراب والفتن تتنازع سيادتها الأحزاب المختلفةمن عرب وبربر وأسبان ويثب فيها أمير على أمير دون اكتراث للخلافة أو عمالها بافريقية في حين أن الدولة الأموية التي ابثت إلى ذلك الحين قوية الدعائم نافذة الشوكة يتراءى أنها في أبان ضخامتها وشدة بأسها قد سرى إلى أوصالها احتضار مفاجيء فتولى مروان الثاني عرش أجداده دون أن يتوقع انهيار صرحه العتيد فيتخذ العدة للصراع الاخير. وكانت الدعوة العباسية التي أيدها أبو مسلم قد ظللت خراسان وغشيت فيها سلطة الأمويين ثم تخطت هذه الولاية الى شرق الفرات فهب مروان للدفاع عن عرش اجداده يرجح فوزه على الشيعة الثائرة سلطة وطيدة الدعائم وجيش ضخم كامل الاهبة فالتقت المسودة أو شيعة العباس بمروان على ضفاف الزاب سنة ١٣٢ هـ وقضى الله ان تشتت القوة الثائرة الضئيلة شمل الجيش الجرار وأن تكون تلك الموقعة قبرا للملك الاموبين في المشرق. فذوى غصن بني أمية غض الاهاب وأمعن في مطاردتهم قاهر دولتهم ابو العباس عبدالله السفاح أمير العباسيين واول خلفائهم ومزقهم شر ممزق فتشتتوا في الاقطار شرقا وغربا وسالت دماؤهم على ظباة العباسيين اينما وجدوا .

٢ . — وكان ممن نجا من فتك السفاح وقبضته الذريعة الامير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك. ولد سنة ١١٣ من الهجرة بدير حنا من اعمال دمشق وقيل بالعليا من تدمير وتوفي ابوه في أيام أبيه

هشام سنة ١١٨ هـ فكفله وأخوته جدهم هشام فلماحلت النكبه باسرته وتشتت افرادها فر من فلسطين الي افريقية ونزل على اخواله نفرة من برابرة طرابلس وشعر به عبدالرحمن بن حبيب وكان قدقتل ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك لمادخلا افريقية ففر اليمغيلة وقبل ألى مكناسه[1] ونزل عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس فاختفى عنده زمانا حتى لحق به بدر مولى أبيه باموال أنفذتها إليه أخته بن ذهب وجوهر[2] وكان عبد الرحمن قدجعل أفريقية مطمح آماله بعدأن أيقن أن بنى أميه لن تقوم لهم قائمة بالمشرق ولكنه بعد أن تجول فيها بضع سنين رأى الاستيلاء عليها أمر امستحيلا فحول أنظاره إلي الأندلس وأرسل إليها بدر امولاه ليسبر غور القبائل وليجمع كلمة أنصار بنى أمية فيها . ووافق قدومه ماكان بين اليمنية والمضرية من النزاع فانحازت اليه اليمنية وقبائل الشأم. وفى سبتمبر سنة ٧٥٥ م (١٣٨ هـ) عبر البحر الي الجزيرة ونزل ببقعة تعرف بالمنكب (المونيكار) فبايعه بعض أهالى اشبيلية. ثم بايعه عامل ريه ثم عامل شذونه . وبعدئذ ذهب الي قرطبه فاجتمعت اليه اليمنيه ولم تمض ايام حتى صار لديه قوة كبيره

وكان يوسف بن عبدالرحمن الفهرى مشتغلا في ذلك الحين بمحاربة ثوار ليون وجليقية من اقطاعات الشمالية فاما علم اليه ما كان من أمر عبدالرحمن فرق جيشه واسرع بالعوده الى قرطبه وأشار عليه وزيره الصميل ان يتلطف

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢١

(٢) نفح ج ١ ص ١٥٦

بالامير الفتى حتى يتسنى له المكر به والغدر فلم يتم له ما أراد . وزحف عبد الرحمن على مالقه فبايعه جندها ثم زحف على رنده وشريش واشبيلية فتوافدت اليه جنود الامصار والمضريه ولم يبق مع يوسف بن عبد الرحمن ووزيره الصميل غير الفهرية والقيسية (١) فاضطر ان ينتظر المدد من عامل افريقية ودخل الشتاء فحال دون التحام الفريقين وانتهز عبد الرحمن تلك الفرصة لحشد الجند وتنظيم الجيش

وفي ربيع سنة ٧٥٦ تجهز عبد الرحمن للحرب ودخل أرشدونه وأشبيليه فقابله الاهلون بالحماس والترحيب ثم زحف على قرطبه وكان يوسف قد سار لملاقاته فالتقى الجيشان ببقعة تعرف بالمصعرة على ضفاف الوادي الكبير في يوم الأضحى فهزم يوسف شر هزيمة ودخل عبد الرحمن قرطبه ظافرا واستتب له الأمر بها . ولجأ يوسف إلى غرناطه فتحصن بها ثم طلب الصلح فرضي عبد الرحمن وسمح له بسكني قرطبه ولكنه نكث عهده سنة ١٤١ هـ وسار إلى طليطله واجتمع إليه زهاء عشرين ألفا من البربر فارسل عبد الرحمن لقتاله قائده عبد الملك بن عمر المراوني فهزم يوسف وأركن إلى الفرار واغتاله بعض أصحابه بناحية طليطله وقدم رأسه لعبد الرحمن فاستقام له الامر واستقر بقرطبه (١) واصبح الطريد البائس امير مملكة قوية

٣ — على ان رؤساء القبائل لم يرق لهم الخضوع لامير مطلق وشاطرهم البربر ذلك الشعور وكان كلاهما يرمي الي تقسيم الجزيرة الي امارات صغيرة

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢١

تكون حرة في محاربة بعضها بعض وتجتمع حين الحاجة لرد غارات المسيحيين فذهبت مساعي عبد الرحمن فى اعادة الامن والنظام سدى وتصدى له البربر ورؤساء القبائل واستنصر ثوار العرب كثوار النصارى بيبين القصير ثم بولده شارلمان . وكانت سياسة امراء الفرنجه ترمي الي تأييد كل عصيان يرمي به الثوار الي الاستقلال عن حكومة قرطبه . ولطالما دبروا بانفسهم تلك الفتن واتخذوا الحكام المسلمين آلات للقيام بها فلم تبق بالاندلس مدينة الا ثارت على عبد الرحمن ولا قبيلة الا نازعته في الرئاسة [١] ولكنه تهيأ لاخماد هذه الثورات بحزم وعزم واتخذ الدهاء رائده في المحافظة على السلام والامن : كانت المعركة معركة الامارات والمملكة ولحسن طالعه لم يكن ثمة اتحاد بين القبائل المختلفة ولا من يجمع كلمة الاشراف فلم يمض عام حتى مزق شمل اعدائه واستقام له الامر وثبت قدمه فى الملك [٢]

وفى سنة ١٤٦ هـ (٧٦٣ م) تجهز بن مغيث اليحصبي عامل افريقية لغزو الاندلس فعبر البحر فى سبعة آلاف مقاتل و نزل بباجه داعيا لابى جعفر المنصور . فسار عبد الرحمن لقتاله . وتلاقيا بظاهر اشبيليه فهزم ابن مغيث وقتل مع كثير من أصحابه . وبعث عبد الرحمن برءوسهم إلى القيروان ومكة فألقيت فى أسواقها سرا ومعها اللواء الاسود (شعار بنى

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣

(٢) امير على (مختصر تاريخ العرب)

العباس) وكتاب المنصور لابن مغيث فارتاع المنصور لذلك وقال ما هذا الا شيطان والحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر [١] قال المقرى «وكثرت ثورة رؤساء العرب على عبد الرحمن الداخل ونافسوه ملكه ولقى منهم خطوبا عظيمة وكانت العاقبة له واستراب فى آخر أمره بالعرب لكثرة من قام عليه منهم فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالى . ثم غزا بلاد الفرنج والبشكنس ومن وراءهم ورجع بالظفر » [٢]

وبينما كان عبد الرحمن مشتغلا بهزيمة أعدائه فى الداخل أغار المسيحيون على البلاد الاسلامية الشماليه وخربوا معاهدها وضياعها وقتلوا وأسروا كثيرا من سكانها فعم بها البلاء والفوضى وانتهز فرويلا (فرويله) [٣] بن الفونسو أمير ليون تلك الفرصة فاغار على لوجو (لك) وأوبورتو فى البرتغال وشلمنقه وقسطيله [٤] وزامورا (سموره) وسيجوفيا (سيقوبيه)

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦

(٣) ويسميه ابن الاثير تدفيليا . اما الفونسو فيسميه مؤرخو العرب بالادفنش ويستعملونها سمة الملوك ليون مثل قارله التى يستعملونها سمة الملوك فرنسا ويظهر ان ذلك راجع الى وحدة هذه الاسماء فقد تولى امارة ليون الى القرن الثالث عشر امراء عدة باسم الفونسو

(٤) يسمى مؤرخو العرب ولايتى قسطيله وآلفا (ألبه والقلاع) محرفة عن اللاتينية القديمة (*Alava et Castella Vetula*) أما نافار فيسمونها بلاد البشكنس (*Bascons*) واحيانا يطلقون ذلك الاسم على بلاد غسقونيه (*Gascogne*) المجاورة لجبال البرنية التى يسمونها جبل البرت أو المدرات وكان بها خمس ممرات توصل من

وأخرج المسلمين منها واستولي عليها وصارت جزءاً من امارة ليون حتى افتتحها المنصور بن عامر كما سيأتي. وفي سنة ١٦١ عبر عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي من افريقية الي الاندلس مظهراً للدعوة العباسية ونزل بتدمير واجتمع اليه البربر وكان سليمان بن يقظان الكلبي أحد الخارجين على عبد الرحمن عاملا على برشلونه فكتب اليه الصقلبي يدعوه الي امره فلم يجبه فسار اليه في البربر ولقيه سليمان فهزمه فعاد الي تدمير وحاصره عبد الرحمن وأحرق سفنه بالبحر حتى يقطع علاقته مع افريقية فاستعصم الثائر بجبال بلنسيه حتى قتله رجل من البربر[١] أما سليمان فانه عبر جبال البرنيه واستنصر بشارلمان ملك الفرنج وأمبراطور الدولة الرومانية المقدسة فيما بعد (ويسميه ابن الاثير قارله) فألفى أمير الفرنجة الفرصة سانحة لتحقيق سياسته من الاستيلاء على الجزيرة بتفريق كلمتها وتغليب أمير على امير ولم يكن باستطاعة شارلمان أن يلبث هادئاً أزاء انتشار الدعوة

اسبانيا إلى فرنسا كان العرب يستعملونها في عبور الجبال حين الغزو وهي : — (١) ممر بريفيان الموصل من برشلونه إلى أرونه (٢) بايكاردي الموصل إلى سردانيه (٣) الممر الموصل من بنبلونه الى سان جان دى بيدبور من مفاوز رونشفال ويسميه الادريسي باب الشرزى (٤) الطريق الى تولوز من بايونة (٥) الطريق الموصل الى جاكا عن طريق بيارن. ويسمي مؤرخو العرب كذلك طليطله وأعمالها في دولة بني أمية بالثغر الادني، ويسمون سرقسطه وجهاتها بالثغر الاعلى (ولاية اراجون الحديثة)

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ٢١

الاسلاميه واشتداد ساعدها فى جنوب البرنيه بل كان عليه ان يستأصل شافة الاسلام تاييداً لهيبة الكنيسه وان يسحق دوله الاندلس المستقله احتفاظا بكبرياء الفتح والظفر. وسنحت هذه الفرصة كما قدمنا بدعوة سليمان ويقول رواة الاسبان ان الذى استنصر به هو الفونسو ملك أوستر ياس الذى خلف بلايو فى امارة ليون ولكن من المرجح أن الدعوة اليه كانت من الثائر وبعض زعماء القبائل التى قضى على سيادتها استئثار عبد الرحمن بالسلطة. وكانت الدعوه في وقت ملائم لأن شارلمان كان قد انتهى من اخضاع السكسونيين وهزيمة زعيمهم فتيكيت فحشد جيشا ضخما ثم عبر البرنية بعد أن استولى على المعاقل الاسلامية الشمالية. ولكن الثوار اختلفوا فاشتغلوا عن معاونة الفرنج بقتال بعضهم بعضاً. وزحف شارلمان على سرقسطه وحاصرها. وكان حاكمها حسين بن يحيي الانصارى قد انضم إلى سليمان بن يقظان. فأشرف عبد الرحمن الاموى بجموعه على سرقسطه فرد شارلمان بخسارة فادحة وارتاب في أمر الثائر فقبض عليه ثم عاد بفلوله. ولكنه حين اختراق البرنيه هاجم مؤخرة جيشه مطروح وعيشون ابنا سليمان بن يقظان بمعاونة البشكنس وذلك فى مفاوز رونشفال فمزقت مؤخرة الفرنج شر ممزق وهلكت فى تلك الموقعة زهرة الجيش الفرنجي (١). ثم لجأ عبد الرحمن الى مداراة شارلمان ودعاه

(١) وفي تلك الموقعه نظم رولان وصف شارلمان غنوته الخالدة (*Chanson de Roland*) التى يعدها الفرنسيون أول أنشودة حماسية حربية ولو أنها تفيض بالخزعبلات والاكاذيب

الي المصاهرة والسلم فاجابه الي السلم ولم تتم المصاهرة [١]

٤ . — وهكذا شيدت دعائم ملك بنى أمية فى المغرب وتغلب عبد الرحمن على جميع أعدائه . ومع أنه كان يلجأ فى ذلك الي القسوة والشدة وأحيانا الي الخيانة فأنه كان بطبيعته لين العريكة رقيق الطبع . ويصفه بن الأثير بانه مديد القامة نحيف القوام حاد الخلقة عالى الهمة ذكي الفهم وافر النشاط والكرم آية فى الصراحة وحرية القول [٢] ويعرف بعبد الرحمن الداخل لأنه أول داخل من ملوك بنى مروان الى الاندلس وكان أبو جعفر المنصور يسميه صقر قريش لما رأى من فعله بالاندلس وماركب اليها من الاخطار وأنه وفد عليها من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا أنصار فغلب أهلها على أمرهم وتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة ومضاء عزم [٣] وشبهه بن حيان بأبى جعفر فى الصرامة والاجتراء

(١) نفح عن بن حيان ج ١ ص ١٥٥

(٢) يجدر بنا ان نذكر الفاظ ابن الاثير فى وصف عبد الرحمن فأنها صورة حية من صفات الرجل العظيم قال « كان فصيحا لسنا . شاعرا . عالما . حليما حازما سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه . لايخلد الي راحة ولايسكن الى دعة . لايكل الامور الى غيره . ولاينظر فى الامور برأيه شجاعا مقداما . بعيد الغور شديد الحذر سخيا جوادا . وكان يقاس بالمنصور فى حزمه وشدته وضبط المملكة »
(ابن الاثير ج ٦ ص ٣٨)

(٣) نفح ج ١ ص ١٥٥ — بن خلدون ج ٤ ص ١٢٢

على الكبائر والقسوة (١). وكان ماهرا في الادارة معضدا للفنون والصناعة فزين قرطبة بالمباني الفخيمة والحدائق الغناء وأدار اسوارها وبدأ بانشاء مسجدها الباهر الاغر غير انه توفى قبل اتمامه. وبني بها الرصافة تشبها بجده هشام حيث بنى الرصافة بالشام. وكان قد أمر بعدم الدعاء في الخطبة لبني العباس سنة ١٥٦ هـ غير أنه لم يتخذ لقب أمير المؤمنين قطعا لما منه لكرسي الخلافة الذي كان لا يزال بيد الاسلام مجتمع القبائل واكتفى بلقب الامير (٢)

وكان عبد الرحمن بن معاوية شاعرا مجيداً ومن ذوي البراعة في العلم والادب فمما أنشد قوله يتشوق الى معاهده بالشام :

أيها الركب الميمم ارضي ... أقر من بعضي السلام لبعضي
ان جسمي كما علمت بارض ... وفؤادي ومالكيه بارض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي

ورأى بالرصافة نخلة منفردة فقال :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بارض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي بالتغرب والنوى ... وطول التنائي عن بني وعن أهلي
نشأت بارض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي

(١) نفح عن ابن حيان ج ١ ص ١٥٦
(٢) هذا قول المقرى وذكر المسعودى ان بنى امية بالاندلس لم يتخذوا ذلك اللقب طالما كانت البقاع المقدسة في حوزة بني العباس لان الخلافة عندهم لمن كان مالكا للحرمين (المسعودى على هامش نفح الطيب ج ١ ص ١٩٩)

سقتك غوادي المزن من صوبها الذي يسح ويستمري السماكين بالوبل

وله شعر كثير . توفي سنة ١٧٣ هـ [١] (٧٨٩ م) وكانت ولايته منذ أن استولي على قرطبه إلي أن توفي اثنتين وثلاثين سنة . وقبره بمسجدها الجامع الذي شاده الى الآن .

٥٠ — وخلف عبد الرحمن ابنه هشام بعهد منه اليه . وكان عاملا لماردة « وكان حازما ذا رأي وشجاعة وعدل وخير محبا لأهل الخير والصلاح شديدا على الاعداء راغبا في الجهاد» [٢] بلغ من تواضعه انه كان يطوف شوارع قرطبة مختلطا بالرعية يسمع المظالم بنفسه ويعود المرضى ويشهد الجنائز وربما كان يخرج في الليالي الظلام الباردة لاغاثة البائس والملهوف وتعزية المصاب والمنكوب [٣] وكان يذهب بسيرته مذهب عمر بن العزيز فكان يبعث بقوم من ثقاته إلي الكور فيسألون الناس عن سير عماله وحقائقها فإذا انتهى أليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه [٤] وكان فوق ذلك حكيما حازما فقمع الفتن وساد الأمن في عصره وأتم بناء الجامع الكبير الذي أسسه أبوه وبنى عدة مساجد أخرى وزين قرطبة بالمباني الغراء الفخيمة

(١) سنة ١٧١ هـ علي قول ابن الاثير

(٢) ابن الاثير ج ٦ ص ٤٩

(٣) عبد الواحد المراكشي ص ١٠

(٤) نفح ج ١ ص ١٥٨ — وذكر صاحب العقد الفريد أنه « كان أحسن الناس وجها وأشرفهم نفسا الكامل المروءة الحاكم بالكتاب والسنة الذي أخذ الزكاة على حلها ووضعها في حقها لم يعرف عنه هفوة في حداثته ولا زلة في أيام صباه »

وجددقنطرتها التي بناها السمح بن مالك .

وحين وفاة عبدالرحمن كان ابنه عبد الله حاضرا بقرطبه وابنه الاكبر سليمان عاملا على طليطله فلما ولى هشام وأخذ له عبد الله البيعة حقد عليه سليمان فاظهر الخلاف بطليطله ولحق به اخوه عبد الله فسار هشام لحصارهما بطليطلة وحاول سليمان أن يثير عوصف الثورة على أخيه بقرطبة فلم يظفر بشيء . وفى سنة ١٧٤ ﻫ (٧٨٩ م) أرسل هشام ابنه معاوية لحصار أخيه سليمان بتدمير فتوغل فى تلك الناحية وهرب سليمان ألى جبال بلنسية فاستعصم بها ثم طلب العبور ألى عدوة البربر بأهله فأجازه هشام وأعطاه ستين ألف دينار صلحا على تركة أبيه وأقام بعدوة المغرب وسار معه أخوه عبد الله وعفا هشام عنهما . ثم خرج عليه سعيد بن الحسين ابن يحى الانصارى بطرطوشة وكان قد التجأ أليها حين قتل أبوه ودعى الى اليمانية فتمسكوا وأخرج عاملها يوسف العبسى فعارضه موسى بن فرقوق فى المضرية بدعوة هشام [1] وخرج أيضا مطروح بن سليمان بن يقظان بمدينة برشلونة ومعه جمع كثير فملك مدينة سرقسطة ومدينة وشقة (يوسكا) وتغلب على تلك الجهة وقوى أمره فسير اليه هشام جيشاً كبيراً بقيادة عبد الله بن عثمان فهزمه على ضفاف الايبرو بعد موقعة كبيرة واستعاد سرقسطة وبرشلونة .

وكان ثوار المقاطعات الشمالية يكثرون من الغارة على البلاد الاسلامية

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤

والفتك بأهلها وطالما شجعهم الفرنج على العصيان وأضرام نار الثورة فجهز هشام جيشين للغزو وردسائس الفرنج سار احدهما الى فرنسا مخترقا كاتالونيا فعبر سردانية واستولى على اربونه وجيروندو وعدة معاقل اخرى واشترط هشام على المعاهدين من أهل جليقية نقل عدد من أحمال التراب من سور أربونه يحملونها الى باب قصره بقرطبه وابتنى منه مسجداً تجاه باب الجنان [١] ثم هزم ذلك الجيش جموع الكونت دى تولوز الذى أوفده شارلمان لحماية سبتمانيا على ضفاف الاوربينا بمكان يعرف بفيلدن (سنة ٧٩٢م) . وسار الجيش الآخر بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الي جليقية لمحاربة ثوارها الذين تجمعوا تحت لواء زعيمهم برموده (برمنده) وحلفائهم البشكنس فهزمهم وشتت جموعهم . وفى هذه السنة هاجت فتنة بتاكدنا وهي بلادرندو خلع البربر هنالك الطاعة فبعث اليهم هشام ابن عبد القادر بن أبان فأبادهم وخرب بلادهم وفرق ما بقي منهم فدخلوا فى القبائل وبقيت بتاكدنا قفراء خالية سبع سنين وفى سنة ١٧٩ هـ سار عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث الى جليقية فاخترقها حتى أسترقه واستنصر الجليقيون بامبرى ليونو نافار فهزمهم بن مغيث بعد ان انتصروا في عدة وقائع محليه [٢] ثم ساد الامن حينا فى المقاطعات الشمالية

---

(١) نفح ج ١ ص ١٥٨

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٥

وكان هشام كثير الاحترام لمذهب مالك [١] شديد التمسك به وفي عصره قوى نفوذ الفقهاء و كثر تداخلهم في مصالح الدولة فأدى ذلك الي اضطراب سنذكره بعد

٦ . — وفي صفر سنة ١٨٨ ه توفى هشام (سنة ٧٩٦ م) فخلفه بعهد منه ابنه الحكم الملقب بالمنتصر وكان صارما حازما وهو أول من استكثر من المماليك بالأندلس وأظهر فخامة الملك وأسرف في تأييد هيبته وكان ميالا الي اللهو مولعا بالصيد يؤثر مجالس الشعراء والمغنيين على مجالس الفقهاء والعلماء الذين اشتد نفوذهم في عهد هشام وكاد أن يغشى نفوذ الامير وكانت سياسة الحكم ترمي الي ابعادهم عن التداخل في مصالح الدولة وقصر نفوذهم على أقامة العدل والشعائر . وكانوا بالعكس يرمون الى انتزاع السلطة السياسية ليحكموا الامة بواسطة جمهورية دينية فجاءت سياسة الحكم ضربة قاضية على مساعيهم وأبت كبرياؤهم الدينية احتمال ذلك [٢] فأخذوا يسبون الامير على المنابر ويكثرون من تحريض العامة على الهياج والعصيان وكان الأعراب يعاملون المولدين (مسلمو الأسبان) بالكبرياء والأنفة ويقصونهم عن الوظائف فنشأوا على بعض الأعراب ولطالما ثار الاسبان

(١) نشأ عن ذلك ان حمل هشام الناس على اعتناق مذهب مالك وسار على سنته من اتباعه من خلفه من حكام الأندلس . وكانوا قبل ذلك يأخذون بمذهب الاوزعي فهشام هو السبب فى انتشار مذهب مالك بالغرب

(٢) المسيو دوزى (تاريخ دولة المسلمين في اسبانيا)

المسلمون ضد السلطة الحاكمة وانضم الفقهاء الى جانبهم تشجيعا لهم على القيام فى وجه الامير

وبينما كانت ريح الحرب الاهلية تعصف بالولايات الاسلامية ثار عبد الله وسليمان عما الحكم مرة أخرى . فسعى عبد الله فى مقابلة شارلمان فى ايكسلا شابيل ولم يك زعيم الفرنجه كما قدمنا يترك فرصة الا انتهزها لاثارة الفتن في الدولة الاسلامية فأوفد مع الثائر جيشا زحف به على طليطله واستولى عليها واستولى سليمان على بلنسيه وفى الوقت نفسه أغار شارل ولويس ابنا شارلمان على الولايات الشمالية ورفعا بها أعلام الخراب والموت وأغار الفونسو أمير جليقية على ولاية اراجون (الثغر الأعلى) وخرب معاهدها . فاسرع الحكم بالزحف على أراجون بعد أن سير الى طليطله جيشا صغيرا للمحافظة عليها . ثم غزا جليقية وافتتح حصونها وفرق جموع الثوار هنالك . ثم عاد لقتال الفرنج وأجلاهم عن الاراضى الاسبانية وبعدئذ عاد الى طليطله فقتل سليمان مدافعا عنها وسلم عبد الله فعفا عنه

وفى تلك الاثناء ثار حاكم برشلونه المسلم واستدعى الفرنج طمعا فى الاستقلال بها فعاد الفرنج واستولوا عليها وأصبح شارلمان قابضا على معقل من اكبر المعاقل الاسلامية فانقسمت بذلك أملاكه الاسبانية الى ولايتين أحداهما تشمل كاتالونيا وعاصمتها برشلونه وتشمل الاخرى غسقونية وأملاكه فى نافار . ثم استولى الحكم على كاتالونيا سنة ١٨٩ ﻫ

فعادت ألي قبضة المسلمين

وفي سنة ٨٠٥ م حدث هياج بقرطبه فأخمده الحكم دون رأفة ولكن ثار عليه أهل ماردة في السنة التالية بقيادة أصبع بن عبد الله وأخرجوا عاملها فسار الحكم وحاصرها. وبينما كان مجداً في الحصار أتاه الخبر عن عودة أهل قرطبه للثورة فاسرع بالعودة اليها وفى تلك المرة لم يترك وسيلة رائعة الا استعملها في اخماد الهياج وفي ذلك الحين (سنة ٨٠٧ م) زحف الفرنج على طرطوشة بقيادة لودفيج (لويس) ابن شارلمان فخلصها من يدهم عبد الرحمن بن الحكم. ثم ثار في باجه حزم بن وهب وقصد بجموعه مدينة لشبونه فسير اليه الحكم ابنه هشاما في جيش كبير ضيق عليه الحصار حتى أذعن لطاب الأمان

٧. — وكانت طليطله حاضرة القوط لم تبرح منذ الفتح تفيض بعوامل الهياج والثورة فأن سكانها لم ينسوا سالف عزهم ومجدهم وغرتهم كثرتهم وثروتهم ومناعة اسوارهم فتمادوا في العصيان وشق عصا الطاعة فخرجوا الأول مرة سنة ١٨١ هـ بقيادة عبيدة بن حميد وظلوا كذلك مدة ثم أمر الحكم قائده عمروس بن يوسف الذى كان يقود الجيش في طلبيره (تالافيرا) ان يحارب الثائرين فزحف عليهم وأخمد الثورة دون مشقة وكان عمروس مولدا من أهل وشقه فانحاز اليه بعض وجهاء المدينة واستعان بهم على استمالة اهلها الي الخضوع والأقرار بسلطة الحكم. ولكنهم استأنفوا الثورة سنة ١٩١ هـ (٨١٣م) ولم ير الحكم وسيلة لاخضاعهم سوى تعيين عمروس

حاكما لهم وكان قدظهر في ذلك الوقت بالثغر الأعلى وأظهر طاعة الحكم ودعا اليه فولاه الحكم طليطله وكتب الي اهلها يقول أني اخترت لكم فلانا وهو منكم لتطمئن قلوبكم اليه وعافيتكم ممن تكرهون من عمالنا ومواليناولتعرفوا جميل رأينا فيكم (١) فمضى عمروس اليهم ودخل طليطله فانس به أهلها وتظاهر أمامهم بالبغض لبنى أمية والموافقة على خلع طاعتهم. ثم بنى بظاهر المدينة قلعة حصينه دعا اليها وجهاء المدينة ذات يوم وقتلهم عن آخرهم. وهلك فى تلك المذبحة التى تعرف بواقعة الحفرة نحو خمسة آلاف من أشراف طليطله. والفت المدينة الثائرة نفسها مجردة من زعمائها فأركنت الي السكون لسبع سنين أخرى (٢)

وفى سنة ١٩٧ هـ حل بالولايات الشمالية قحط شديد فأكثر فيها الحكم مواساة أهل الحاجات وتخفيف الويل عنهم. وفى ذلك يمتدحه عباس بن ناصح الجزيرى بقوله:

نكد الزمان فآمنت أيامه من أن يكون بعصره عسر

طلع الزمان بأزمة جلت له تلك الكريهة جوده الغمر

وفى سنة ١٩٨ هـ وصل هياج القرطبيين أشده. وفى ذات يوم تعرض أحد العامة لاهانة الأمير وتهديده فى المسجد فأمر الحكم بقتله فادي ذلك الى هياج كبير في ضاحية قرطبة المساه شقنده وحاصر الثوار الامير

---

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ٧٩

(٢) دبر الحكم هذه المذبحة بالاتفاق مع عمروس وتراجع تفاصيلها فى ابن

في قصره ولكنه فرق شملهم بيد من حديد وقتل منهم جموعا كثيرة ثم أمر بديارهم ومساجدهم فهدمت وأحرقت وأمر بنفي من بقي منهم عن الجزيرة فهاجر بعضهم الى فأس وسافر معظمهم الى الاسكندرية ثم أبحروا الى أقريطش (كريت) وتغلبوا عليها مدة حتى استعادها اليونان منهم واختار بعضهم سكنى صقليه [1] وفي سنة ٨١٦ م عقد الحكم الصلح مع لويس بن شارلمان الذي خلف أباه على عرش فرنسا فلم يدم الصلح ألا اعواما قليله

وكان الحكم أول من جند بالاندلس الاجناد والمرتزقه وجمع الاسلحة والعدد واستكثر من الخدم والحواشي والحشم وارتبط الخيول على بابه واتخذ المماليك وكان له عيون يطالعونه بأحوال الناس وكان يباشر الامور بنفسه ويقرب العلماء والصالحين وهو الذي وطأ الملك لعقبه بالاندلس [2] وكان يشبه بأبي جعفر المنصور في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الاعداء [3] وكان له فيما حكي غير واحد ألفا فرس مرتبطة على شاطيء النهر تجاه قصره يجمعها داران وهو القائل لما قتل اهل الربض

الاثير ج ٦ ص ٨٠، بن خلدون ج ٤ ص ١٢٧

(١) يدعو مؤرخو العرب تلك الثورة بواقعة الربض وينسب بعضهم وقوعها سنة ١٩٠ هـ وتراجم تفاصيلها في بن الاثير ج٦ ص١٢٢ وبن خلدون ج ٤ ص١٢٦ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٦

(٢) بن خلدون ج ٤ ص ١٢٧

(٣) نفح ج ١ ص ١٥٩

وهدم ديارهم :

رأيت صدوع الارض بالسيف واقعا   وقدماً لأمت الشعب مذ كنت يافعا

فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرة   أبادرها مستنضي السيف دارعا

تنبيك انى لم أكن في قراعهم   بوان وقدما كنت بالسيف قارعا

وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم   فوافوا منايا قدرت ومصارعا

فهذى بلادى أننى قد تركتها   مهادا ولم اترك عليها منازعا

وقال ابن حزم فى حقه أنه كان من المجاهرين بالمعاصي السافكين للدماء ولذا خرج عليه الفقهاء والعلماء [1] ومن نظمه قوله متغزلا

قضيب من البان ماست فوق كثبان   ولى عنى وقد أزمعن هجراني

ومنها

من لى بمقتضيات الروح من بدني   يغصبني في الهوى عزى وسلطاني

٨ — وتوفي الحكم في شهر ذى الحجة سنة ٢٠٦ ﻫ فخلفه ابنه عبد الرحمن بعهد منه . وفى عهده سادالأمن في الولايات الأندلسية وحسنت حال الرعية وكثر الخراج وكان ميالا للآداب والفنون مولعا بمجالس العلماء والأدباء فوصل البلاط في أيامه ألى درجة لم تسبق من الاعزاز والفخامة والرونق وسطعت به آيات من جمال الاخلاق العربية وظرفها ورقة شمائلها : ذلك البهاء الذى حاولت فروسية النصرانيه أن تقتبس

(١) نفح ج ١ ص ١٦٠

منه فيما تلاق القرون [١]

وسرعان ماتولى عبد الرحمن الحكم حتى أغار أمير ليون الفونسو الثاني [٢] على مدينة سالم من أعمال الثغر الاعلى وحذت حذوه بعض القبائل المسيحية الثائرة فأغارت على البلاد الاسلامية وعاثت فيها فسير عبد الرحمن قوة كبيرة لقتال الثائرين ورد غاراتهم بقيادة عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث فسار ألى ألبه والقلاع وهزم الثوار في عدة مواقع ونهب آلفا (ألبه) وخرب ليون وأحرق حصونها. واشترط على الثوار أن يدفعوا جزية فادحة وأن يطلقوا أسارى المسلمين وأن يسلموا بعض زعمائهم كفالة بسكينتهم وحسن طاعتهم وانتهز الفرنج تلك الفرصة الاغارة على البلاد الاسلامية فى كاتالونيا فبعث عبد الرحمن ابنه محمداً فى جيش ضخم فزحف على بنبلونة عاصمة نافار واستولى عليها بعد أن شتت جموع الفرنج وقتل جرسيه ملك نافار وخرب حصونه وقصوره وطرد الثوار ألى ما وراء البرنية.

وفي ذلك الحين ظهر النورمان (المجوس) على السواحل الاسبانية ونهبوا عدة مواضع. فظهروا أولا فى أشبونه وحاربهم أهلها ثلاثة عشر يوماثم تقدموا ألى قادس ثم ألى شدونه ثم قصدوا أشبيليه نهرا ونزلوا قريبا منها وقاتلوا أهلها فهزمهم المسلمون وغنموا بعض مراكبهم. ثم

(١) الدبو سدبو (تاريخ العرب)
٢) لودريك أولدريق

مضوا ألى باجه وأشبونه وفروا من هنالك [١] عند اقتراب أسطول وجيش أرسلها عبد الرحمن لعقابهم فسكنت البلاد وأخذ عبد الرحمن بأصلاح ما خربوه من البلاد. ثم ثار المسيحيون من أهل ماردة بتحريض لويس ملك الفرنجه وقتلوا عاملها فسير أليهم عبد الرحمن جيشاً حاصرهم وأتلف زرعهم ولكنهم استأنفوا الثورة سنة ٢١٤ هـ فسار إليهم الأمير بنفسه وضيق عليهم الحصار حتى سكنت الفتنة. وقامت ثورة أخرى بباجه فسار إليها ودخلها عنوة. ثم ثار أهل طليطله بقيادة هاشم الضراب وكان ممن أفلت منها في وقعة الحفرة وقويت شوكته فاغار على شنت بريه وجرى بينه وبين البربر وقائع كثيرة واستفحل أمره حتى هزمته جيوش عبد الرحمن سنة ٢٢٦ هـ بالقرب من حصن سمسطا بمجاورة روريه سنة ٨٣٧ م

٩٠ — وفي نهاية حكم عبد الرحمن اشتد تعصب نصارى قرطبه اشتدادا عظما وبدت منه بوادر تنذر بالهياج والثورة ولم يك ثمة في النظام العربى ما يسوء النصارى في قرطبة أو غيرها أو ما يكدر صفو اعتقادهم ويمنعهم من إقامة شعائرهم أو الاحتماء بشرائعهم ولطالما حاربوا مع المسلمين جنبا لجنب وعينوا في أرقى الوظائف الحربية والسياسية واشتغل عامتهم في ضياع الامراء المسلمين. بل طالما بهرتهم الفصاحة العربية فانطلقت بها ألسنتهم ووضعوا بها مؤلفاتهم وتخلقوا باخلاق العرب وعاداتهم وكان ذلك الفريق المعتدل من النصارى موضعا لبغض الفريق المتعصب الذى

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٩ — بن الاثير ج ٧ ص ٧

كان يرميه بالكفر و لالحاد والقسس مابين ذلك تبذر بذور الشقاق وتضرم نار الفتنة وتوغر قلوب المتطرفين » وكان هـؤلاء يبغضـون المسلمين أشد البغض ويهزأون بمحمد وتعاليمه مستعينين على تلك المعرفة بوجودهم بين العرب . كانوا يأخذون بالظاهر منها دون أن يتعرضـوا للحجج التي كانت تسطع أمام أبواب دورهم . فكانوا يقنعون بأن يسمعوا ثم يعيدوا كل الخرافات المضحكة التي أحاطت بظهور بني مكة [1] » ولم يك بغضهم قاصرا على دين العرب وأنما كانوا يبغضون فخامة الهيئة الحاكمة ورونقها وقوى دعائم ذلك الحقد في نفوسهم ماكانوا يعانونه من خشونة عامة قرطبه وزعانفها حتى تحول حماسهم في عهد الرحمن الى اضطراب ظاهر فانقلبوا في رؤوس الجبال لصوصا وسفاكين . وفي قرطبة « شهداء وقديسين » وجاهروا بسب النبي العربي ودينه وسب النبي جريمة شنعاء فعوقب القاذفون بالموت وأدرك عبد الرحمن خطورة المأزق فاستدعى مجلسا من القسس من جميع أطراف المملكة وعين للانابة عنه فيه أحد زعماء النصرانية ومستشارى الحكومة [2] فأصدر الأساقفة قراراً يحظر المجاهرة بسب النبي وقرروا المجرم عقوبة صارمة . ولكن قرار الأساقفة لم يكف لتسكين التعصب المزبد وتمادى المسيحيون في عصيانهم

---

(١) المسيو دوزى (تاريخ دولة المسلمين في اسبانيا)

(٢) اسمه جومز بن انتونى بن جولياز . وكان النصارى المتطرفون يجاهرون بلعنه لاشتراكه في ذلك المجلس

فثار المسلمون أعزازا لديهم وأودع المتطرفون غيابة السجن ولكنهم ظلوا مصدراً للاضطراب حتى وفاة عبد الرحمن سنة ٨٠٢ م

وكان عبد الرحمن أديباً شاعراً عالما بعلوم الشريعة والفلسفة . شيد بقرطبه قصورا ومتنزهات وجلب أليها المياه من الجبال ونظم شوارعها وأقام بها الجسور وزاد في بناء جامعها الكبير وشيد المساجد بغيرها من بلاد الأندلس ورتب رسوم المملكة واحتجب عن العامة ويعرف بعبد الرحمن الاوسط لأن الاول عبد الرحمن الداخل والثالث عبد الرحمن الناصر . وكان نافذ الهيبة لدى ملوك النصرانية وأمرائها وفدت عليه سنة ٢٢٥هـ (سنة ٨٣٦ م) رسل تيوفلس امبراطور القسطنطينيه بهدية يطلب مواصلته ويرغبه في ملك أجداده بالمشرق حقدا منه على المامون والمعتصم الذين عاثا في أملاكه الأسيوية حتى أنه عبر عنهما في كتابه بجوبيتر ومارز فكافأه عبد الرحمن عن الهدية وبعث أليه يحي بن الغزال من كبار الدولة وكان مشهوراً بالشعر والحكمة فاحكم بينهما الصلة والتحالف [١] وكانت ولايته حدى وثلاثين سنة ومن نظمه قوله

ولقد تعارض أوجه لأوامر   فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ أن يحو النهى بتجارب   فشباب رأس القوم عند شبابها

وقوله حين خرج غازيا بجليقية

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ ويسمى المقري تيوفلس توفلس أو توفاس ويسميه المسعودي نظر توفل

فكم قد تخطيت من سبسب ولاقيت بعد دروب دروبا
ألاقى بوجهي سموم الهجيـــر أذ كاد منه الحصى أن يـذوبا .
تدارك بى الله دين الهدى فأحيـــيته وأمت الصليبا
وسرت ألى الشرك فى جحفل ملأت الحزون بها والسهوبا

الفصل الثانى

الأندلس الثائرة

ولاية محمد بن عبد الرحمن . المنذر بن محمد . عبد الله بن محمد

(سنة ٢٣٨ ـ سنة ٣٠٠هـ — سنة ٨٥٢ ـ سنة ٩١٢ م)

(١) ولاية محمد بن عبد الرحمن • الثورة فى طليطلة • هزيمة الثوار . عودة النورمان . غزوة نافار(٢) امتداد الثورة • خروج بن لب بن موسى بالثغر الأعلى بن مروان الجليقى بماردة • قطن بن ذى النون يثبت بريه • ابن حفصون ببشتر ومالقه وريه • تصرف محمد وابنه المنذر • هزيمة الثوار فى سرقسطة • غزو ألبه مقاتلة ابن مروان ببطليوس . هزيمة بن مروان وبن حفصون • وفاة محمد وولاية ابنه المنذر • محاصرة المنذر لابن حفصون • وفاه المنذر • (٣) ولاية عبد الله بن محمد • انتشار الثورة • ثورة بن مروان وابن تاكيت بمارده • اختلاف الثائرين • ثورة بن حجاج بأشبيلية • خضوعه لعبد الله • عودة بن حفصون ألى الثورة • قتال عبد الله لابن حفصون • موقعة بولى • وفاة عبدالله (٤) العرب فى بيومون وسافوا وسويسرة

١ . — كان على خلفاء عبد الرحمن الأوسط أن يتأهبوا لاخماد ثورة رائعة فأن العناصر المضطربة التى كانت كامنة فى أحشاء الأندلس تجيش فى صدور المنافقين والطامعين بدأت بمظاهرها البادية تنذر باقتلاع عرش بنى أمية

تولى محمد بن عبد الرحمن الملك بعد وفاة أبيه . فسار على أثره من العناية بالاصلاح [١] وبدأ بأرسال العساكر مع أخيه الحكم ألى قلعة رباح (كالاترافا) لاصلاح أسوارها التى خربها ثوار طليطلة. وبعث جيشاً مع موسى بن موسى والى تطيلة (تيوديلا) ألى ألبه والقلاع لردغارات الثائرين من النصارى فهزمهم فى عدة مواقع وافتتح بعض حصونهم وافتتحت عساكر أخرى حصونا من برشلونه وفى سنة ٢٤٠ استأنف الثورة أهل طليطلة واستنصروا بأميرى جليقيه ونافار فانضم اليهم جمع من المسيحيين وسار محمد بنفسه لقتالهم وكمن بجيوشه فى مكان يعرف بوادى سليطه والتقى الفريقان فهزم الثوار وحلفاؤهم الفرنج هزيمة شديدة وقتل منهم عشرون الفا [٢] ولكن لم تمض ثلاثة أعوام حتى استجمع الثوار فلولهم وعادوا ألى الثورة فعاد محمد لقتالهم وفى تلك المرة لم يترك وسيلة رائعة الا استعملها فى أخماد الهياج فخرب طليطله وحصونها وألجأ الثوار ألى طلب الصلح

---

(١) قال ابن الاثير انه أول من أقام أبهة الملك بالاندلس ورتب رسوم المماكة وعلا عن التبذل للعامة وفى ذلك شبه بالوليد بن عبدالملك (ج ٧ ص ٢٧)

(٢) بن خلدون ج ٤ ص ١٣٠

والخضوع والطاعة ثم عاد ألى قرطبة وتأهب لقمع الفتن وعقاب الثائرين من النصارى وكان الفرنج قد انتهزوا الفرصة كعادتهم للأغارة على الولايات الشمالية فسير محمد ألى تلك الجهة جيشا لحمايتها ولم يمض ألا قليل حتى خبا حماس المسيحيين ولم يبق منه ألا تذكاره [١]

وفي سنة ٢٤٥ ﻫ ظهر النورمان وأخذوا في نهب الثغور وبعد أن خربوا شاطيء بروفانس تفرقوا على الشواطيء الاسبانية وتقدموا مرة أخرى ألى أشبيلية وتدمير ودخلوا عاصمتها أريوله ونهبوا كثيرا من قرى المسلمين وحمل عليهم الأسطول الأندلسي فحطم بعض سفنهم بعد قتال عنيف استشهد فيه كثير من المسلمين . فتفرقوا على الشواطيء الشمالية واقتحموا الشاطيء ألى بنبلونه عاصمة نافار واستولوا عليها . وفي سنة ٨٦١ م زحف عامل طرطوشه المسلم على نافار وهاجم بنبلونه وخرب حصونها . وفي الوقت نفسه أغارت الجند الأسلامية على ألبه والقلاع واضطروا صاحبها ألى الخضوع وطلب الصلح .

٢ . — وفي نهاية حكم محمد انفجر بركان الثورة في المقاطعات الاسلامية واشتد ساعد الثوار ففي ولاية الثغر الاعلى ثار شخص يعرف بلب [٢] بن محمد بن لب بن موسى من قبيلة بني قصي وهو من ذرية القوط الذين أسلموا عند الفتح فاستولى على سرقسطه وتطيله ووشقة وتلقب بالامير

---

(١) المسيو دوزي

(٢) المسيو دوزي – ويسميه الاسبان في تواريخهم لوبيز (Lupez)

وخرج في الولايات الغربية في مارده عبدالرحمن بن مروان الجليقي فيمن معه من المولدين وتحالف مع الفونسو الثالث امير ليون وكان أهل مارده قدثاروا قبل ذلك فحاصرهم الامير محمد وضيق عليهم حتى انقادوا ألى التسليم والطاعة فنقلهم وأموالهم ألى قرطبة وهدم أسوارها وخرب أبنيتها حتى صارت قفرا بقعا [1] فهرب بن مروان من قرطبه وعاد ألى مارده ورفع بها لواء الثوره . فأرسل محمد لقتاله وزيره هاشم بن عبد الرحمن سنة ٢٦٣ هـ فهزمه بن مروان وأسره ولم يرالامير مناصا من مصالحة الثائر فتنازل أليه عن بطليوس على أن يطلق صراح الوزير فتولى الثائر بطليوس وحصنها وكان الفونسو الثالث قد نكث مع ابن مروان فسار لمحاربته و استولى على بلاده من ليون وجليقيه وأضافها ألى بطليوس وخرج في شنتبريه مظفر ابن موسى بن ذى النون وزحف على طليطله فلقيه جندها فهزمهم هزيمة فادحة واشتد أمره في تلك الجهة وأضاف ألى شنت بريه ما حولها من البلاد والحصون . وكذا ثار أسد بن الحرث

(١) ابن الاثير وذكر المقري أن ماردة خربت في أيام الامير محمد ولم يبق لها أثر وذكر بعضهم انه رأى بالمشرق هذه الابيات قبل أن تخرب ماردة بأعوام ولم يعلم قائلها وذلك سنة ٢٥٤ :

ويل لماردة التي مردت ... وتكبرت من عدوة النهر
كانت ترى لهم بها زهر ... خلت من الزهرات كالقفر
فالويل ثم الويح حين عزا ... بجميعهم من صاحب الامر

بجهة بتاكدنا (رنده) (١) . وخرج فى ذلك الحين بقاطعة بيشتر ثائر أقوى ساعداً وأشد بطشاً . وكانت سلسلة التلال الواقعة بين رندة ومالقة مأوى للصوص والقتلة والعصاة وفيها نهض عمر بن حفصون (٢) أعظم ثوار الاندلس وأشدهم خطراً عليها . وكان بن حفصون جندياً فر من جيش الامير فانضم اليه جمع من اللصوص والعصاة فثار بجبل ببشتر من جهة رية ومالقة وانضم اليه كثير من الجند الخارجة واستعصم بهاتيك الجبال وابتنى بها قلاعاً حصينة وامتد نفوذه فى غرب الاندلس الى رندة وعلى الساحل من استجه الى البيرة . واشتهر أمر الثائرين فى المقاطعات وتناول شرر الثورة معظم المدائن فعاد النصارى الى تدبير الفتن ودس الدسائس حتى كاد يهوى عرش قرطبة

ففى تلك الآونة العصيبة جهز محمد بن عبد الرحمن ابنه المنذر بجيش ضخم وكان المنذر قائداً عظيماً ذا شجاعة وبأس فزحف على الولايات الشمالية وقصد سرقسطه فخرب حصونها وافتتح حصن روطه وأسر به عبد الواحد الروطى «اشجع أهل عصره (٣) » ثم استولى على لاردة وقرطاجنة وكان اسماعيل بن موسى الثائر بسرقسطه مستعصما بها فعاد الى الطاعة وأعطى رهائنه .

(١) بن خلدون ج ٤ ص ١٣١

(٢) قال بن خلدون عن ابن حيان أنه عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن ادفونش القس (ج٤ص١٣٤)

(٣) بن الاثير ج ٧ ص ١٧٢

وسار المنذر بعدئذ الى ألبة والقلاع وردجموع النصارى التى كانت تريد انتهاز الفرصة لافتتاح المقاطعات الاسلامية المتاخمة لها . وفى سنة ٢٧١ هـ عاد المنذر الى الحرب وسار الى مدينة بطليوس ففر منها بن مروان الجليقى وكان قد عاد الى الثورة وتحصن (باشير غرة) فاحرق المنذر بطليوس. وسير الامير محمد فى الوقت نفسه جيشاً مع هاشم بن عبد العزيز الى مدينة سرقسطه وبها محمد بن لب بن موسى وحليفه بن حفصون المتقدم ذكره فاستولى عليها بعد قتال رائع وفر الثائران الى الجبال . ولكنهما ظهرا ثانية بعد عودة الجيش الى قرطبة واستعصم بن حفصون بمدينة الحامة فتجهز المنذر لقتاله ثانية وحاصر الحامة (سنة ٨٨٦ م). وسير محمد جيشا آخر بقيادة هاشم لحصار ابن مروان بحصن أشير غرة فحاصره مدة ثم عاد دون اخضاعه. فأغار ابن مروان على اشبيليه . ثم تصالح مع الامير واستقام على الطاعة

وفى ذلك الحين توفى محمد بن عبد الرحمن (فى صفر سنة ٢٧٣ هـ) فترك المنذر حصار بن حفصون وبادر بالعودة الى قرطبة ليرقى عرش أبيه. فانتهز الثائر تلك الفرصة للاغارة على كثير من الحصون الاسلامية واستولى على رية ورندة واستجة

وكان المنذر حازماً نشيطاً فتأهب لاتمام المهمة التى بدأها من اخضاع الثوار واعادة الامن الى نصابه . فسار بجيشه الى أرشدونة واستولى عليها ثم زحف على « ببشتر » التى استعصم بها بن حفصون سنة ٢٧٤ هـ وافتتح رية ومالقة وقتل بها عيشون واليها من قبل الثائر. ثم شدد عليه الحصار ومنع

عنه الاقوات والذخيرة حتى أذعن لطلب الصلح فأجابه المنذر الى ذلك. ثم نكث بن حفصون عهده فعاد المنذر لقتاله ولكنه قتل بالقرب من بيشتر فى إحدى المعارك (١) بعد حكم لم يطل أمده سوى سنة واحدى عشر شهراً وبموته اشتد ساعد الثائر واستفحل أمره وامتدت سلطته الى كثير من البلاد والحصون

٣ .- ولما توفى المنذر بويع اخوه عبدالله بن محمد «وفى أيامه امتلأت الاندلس بالفتن وصار فى كل جهة متغلب ولم يزل كذلك طول ولايته(٢)» وارتقى عبدالله العرش والخلاف يمزق أوصال المملكة . ولم تكن الثورة قاصرة على ثوار الجبال بل تناولت رؤساء القبائل الذين رأوا الفرصة سانحة لاستقلالهم . ونشبت بين العرب والمولدين فى اشبيلية معارك دموية واستعصم كثير من زعماء البربر بالحصون الداخلية واستولى أمراء العرب على منتسا ومدينة سالم ولارقه. وثار ابراهيم بن حجاج القوطى باشبيلية واستولى على ماجاورها من البلاد وانشأ بها امارة مستقلة . واستقل زعماء المولدين بباجة وجيان ومرسية . واستقر ابن مروان بيطليوس بينما أنشأ محمد بن موسى فى الثغر الاعلى (أراجون) امارة مستقلة .وانتهز بن حفصون الفرصة لتأييد سلطته وتوسيع أملاكه وأخذ يتأهب للاستيلاء على قرطبة. وللتفصيل

(١) ذكر دوزى انه مات مسموماً بين مايبيه ويضع تاريخ وفاته فى ٢٩ يونيه سنة ٨٨٨ ويضعه بن الاثير فى المحرم ٢٧٤ . والمقرى سنة ٢٧٥هـ

(٢) بن الاثير ج ٧ ص١٧٤

نأتى على أخبار الثوار والمقاطعات الثائرة فرادى:

(١) بعد أن استقام لب بن محمد بن موسى فى عهد الامير محمد وحافظ على الطاعة الى نهاية حكمه عاد فانتقض على عبدالله وحاصر تطيلة. وكان ابن مروان الجليق لايزال ممتنعا ببطليوس فأقره عبد الله على حكمها. واستولى حليفه الثائر سعدون السرساقى على بعض الحصون مابين قلنبرة وباجة. ثم افتتح قلنبرة. ولكنه لم يلبث أن قتل فى حرب نشبت بينه وبين ألفونسو الثالث

وكان محمد بن تاكيت المصمودى أحد زعماء البربر قد ثار بالثغر الاعلى اقتداء بابن لب وزحف على ماردة وامتلكها فسارت اليه الجند من قرطبة وتقدم لانجاده ابن مروان ناكثا لعهده. فلبث الحصار مدة ارتحلت بعدها جنود الامير خائبة. وكان بماردة جموع من العرب وكتامة ومصمودة احدى القبائل البربرية ذات القوة والبأس فتحيل ابن تاكيت على العرب وكتامة وأخرجها منها واستقل بها مع شيعته. فنشبت بينه وبين مروان الحرب وهزمه ابن تاكيت فى ألقنت. وظهر ابن مروان على مصمودة وغيرها من قبائل البربر. ثم توفى فخلفه ابنه عبدالرحمن. واشتد فى مطاردة البربر ولكن لم تدم ولايته سوى شهرين. وبوفاة بن مروان وخلفه تخلص عبد الله من ثائر شغل أمره العرش أعواما مديدة. وترك الامير أمر ابن تاكيت الى عامل بطليوس فحاربه وأخضعه وساد الامن تلك الجهة (١)

---

(١) بن خلدون ج ٤ ص ١٣٣ — ١٣٤

(٢) ثار باشبيلية في عهد الامير عبد الله أمية بن عبد الغافر وعبد الله بن حجاج وغيرهما من زعماء القبائل فارسل عبد الله ابنه محمدا الى الثوار لقتالهم فهزموه وفر ناجيا بنفسه . ثم استبد أمية بالولاية ودس على عبد الله بن حجاج من قتله فقام أخوه ابراهيم مكانه وظاهر رؤساء القبائل على قتل أمية وحالف بن حفصون . ثم رأى خير وسيلة لامتلاك أشبيلية أن يفاوض عبد الله في ذلك فرضيه الامير لولايتها وتقدم الثائر الى الطاعة مختارا . وأرسل ابنه كرهينة الى قرطبة فاعاده اليه عبد الله مكرما . وحصن ابن حجاج مدينة قرمونة وتولى حفظ الامن وقمع الثوار فيما بينها وبين أشبيلية (١) وكان انحياز بن حجاج الى عبد الله سببا في تقوية العرش واستعادة هيبته فعاد الى الطاعة معظم النواحي وهدأ بنو قسى الثائرون بالثغر الاعلى

(٣) لما قتل المنذر عند أسوار بباشتر كما قدمنا مقاتلا لابن حفصون عاد عبد الله بالجيش الى قرطبة لارتقاء العرش وتدبير الخطط لمقاتلة الثوار في مختلف الجهات . فالفى الثائر نفسه حرا في تنفيذ مآربه وتوسيع أملاكه فعاد الى افتتاح الحصون والمدائن واستعاد رية ورندة وأستجة وكاتب ابن الاغلب صاحب افريقية وأظهر دعوة العباسيين بالاندلس . ثم تقدم الى قرطبة وأكثر من الاغاوة عليها وابتنى حصن بلاية بالقرب منها . ورأى عبد الله عرش آبائه على وشك السقوط فنهض مستقتلا في سبيل

---

(١) بن خلدون ج ٤ ص ١٣٦

انقاذه . فتقدم لحصار الثائر بحصنه ولكن دون جدوى. وتبعه ابن حفصون فكر عليه الامير وهزمه في موقعة فاصلة . واستولى على البيرة من أعماله وشدد في حصاره . ثم أرسل عبد الله جيشا كامل الاهبة بقيادة أحمد ابن أبي عبيدة لقتال ابن حفصون فاستنجد الثائر بابراهيم ابن حجاج الثائر في أشبيلية ولقياه فهزمها ابن أبي عبيدة بالقرب من بولى (ابريل سنة ٨٩١)(١). وكانت هذه موقعة جاسمة أنقذ بها ابن أبي عبيده المملكة . ثم استولى على بولى واستجه وأرشدونه وجيان . وعاد ابن حجاج الى الطاعة مختارا كما قدمنا

وتوفى الامير عبد الله في السادسة والثمانين بعد أن حكم ستا وعشرين سنة ملؤها الاضطراب والفتن . وذلك في ربيع الاول سنة ثلاثمائة من الهجرة (٩١٢ م) فاستنفد جهاده في مقاتلة الثوار موارد المملكة ونشاط الجيش وقل الخراج (٢)

ومن نظم الامير عبد الله قوله.

يامهجة المشتاق ما أوجعك ... وياأسير الحب ما أخشعك
ويارسول العين من لحظها ... بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسر فتأتى به ... في مجلس يخفى على من معك
كم حاجة أنجزت ابرازها ... تبارك الرحمن ما أطوعك

٤ .— ويرى السائح المتأمل على ساحل ليجوريا وفى هضاب الالب وفى

(١) بن خلدون ج ٤ ص ١٣٥
(٢) بن خلدون ج ٤ ص ١٣٣

بيومون ودوفينه آثارا دارسة تنم عن الحضارة العربية فيتساءل. هل طرق المسلمون هاتيك الاقطار؟ فى العصر الذى نتحدث عنه (سنة ٨٩٠م) دخل المسلمون جنوب فرنسا من خليج سان تروبيه وانتشروا فى بروفانس ودوفينه. وكانت هذه حركة مستقلة قام بها بعض المغامرين الرحل الذين هاجروا من ثغور اسبانيا وأفريقية. وفى سنة ٩٠٦ اخترقوا جبال دوفينه ثم عبروا جبل سنيس واحتلوا بيومون وليجوريا وتوغلوا فى سويسرا حتى بحيرة كونستانس حيث انشأوا مستعمرة كبيرة. واستولوا فى فرنسا على فريجوس ومرسيليا وجرينوبل. واحتلوا نيس مدة طويلة. ومن آثار حكمهم أن جزءاً من هذه المدينة لا يزال يعرف بحى العرب(١)

---

(١) السير السيد امير على «مختصر تاريخ العرب»

نبذة
فى تاريخ نصارى الشمال

-١-

(١) البشكنش . ناقار . أرجون. (٢) قيام مملكة جليقية وبرجوس
وكاستيلا . مملكة ليون

١ . ـ لم يعن العرب بعد أن افتتحوا اسبانيا وشادوا بها دولتهم أن يؤيدوا سلامتها باخماد العناصر الثائرة من النصارى فى الشمال والغرب . وكان موسى بن نصير قد فكر فى سحق البقية الباقية من القوط والبشكنس واقتحام الجبال الشمالية واخضاع معاقلها فحال دون ذلك أن استدعاه بلاط دمشق قبل تنفيذ مشروعه . ثم نشط ولاة الاندلس لمحاربة الفرنج والتوغل فى جنوب فرنسا وأهملوا أمر العصاة من النصارى لضعف أمرهم عندئذ . وعقب ذلك فترة من الخلاف والفوضى فى حكومة الاندلس فتحرك ثوار الشمال لاول مرة بعد الفتح ونما شأنهم واشتد ساعدهم حتى بدأوا فى عهد عبد الرحمن الداخل يعتدون على الحدود والمدائن الاسلامية . ولم يأت عهد عبد الرحمن الناصر حتى كانت لهم ممالك وامارات قوية . وقد رأينا اتماما لما نتلوه من وقائعهم وحروبهم مع العرب التى نذكر كلا منها فى مقامها المناسب أن نأتى على نبذة مستقلة فى تاريخهم وعوامل نهضتهم

لبث أعداء العرب من النصارى أمداً طويلا ضعافا تعصف بهم الفوضى ولكن لم تعوزهم قط الاهلية لانشاء دولة ترتكز الى أسس متينة من النظم السياسية والقانونية والتقاليد القومية وهو ما كان ينقص العرب والبربر . وكانت ممالك النصارى واقعة على الهضاب والجبال الشمالية . ففي أواسط الشمال كان يقطن البشكنس (Bascons) على جانبي البرنية يدفعون المسلمين عن استقلالهم الذي حاربوا القوط من أجله دهراً . وفي شرق البشكنس وفي مفاوز البرنيه أيضاً كانت تجثم قبائل أخرى من أجناس ودماء متماثلة تحتفظ بحرية همجية في قمم الجبال أو منبسط السهول . وكان العرب اذا ما هاجموا سبتمانيا (لانجدوك) أو فرنسا الجنوبية يجتاحون أوطان البشكنس وجيرانهم في الذهاب والعودة ولكنهم لم يخضعوهم قط لسلطانهم تمام الخضوع . ثم نمت في تلك الهضاب جذور امارات نافار وسوبراب وأراجون . ولم يكن العرب ألد أعداء هذه الامارات بادىء بدء بل كان ذلك العدو أسرة الكارولنجيان التي قبضت على أعنة الحكم في مملكة الفرنج . وعلى يد البشكنس وحلفائهم من القبائل الجبلية نكب شارلمان حين ارتد منهزماً امام جيش عبدالرحمن الداخل عند أسوار سرقسطة ومزقت مؤخرة جيشه في رونشفال (١) . ثم استعان البشكنس بمحالفة بني قسى الاسبان المسلمين على طرد رسل الكارولنجيان ومواليهم من الكونتات والدوقات . ولم يلق الفرنج في شرق البرنية مقاومة شديدة . فأسسوا هنالك

(١) راجع ص ٧٦ من هذا الكتاب

امارة صغيرة تولى حكومتها لويس الصالح واتخذها موالى الفرنج ورؤساؤهم قاعدة للتوسع والفتح

٢ .— ولكن أشد العصابات النصرانيه وأعظمها بأساً اجتمعت فى غرب بلاد البشكنس فى جبال استوريا س واختارت بلايو ملكا عليها . ومن المحقق أنه نشأت فى تلك المنطقة جذور مملكتى قسطيلة (قشتالة) وليون اللتين اتحدتا فيما بعد وصارتا مهد العصبية النصرانية فى اسبانيا . وقد جاهدت هذه العصابات فى رد سيل الفتح العربى واستبسلت فى الدفاع عن استقلالها . على أن صمت الرواية التى ترتبط باسم أيزيدور الباجى (دى بيجا) تدل على أن أمر تلك المقاومة لم يعرف تماما فى الجنوب حيث كان يقيم ذلك المؤرخ . وتولى بلايو الحكم من سنة ٧١٨ الى سنة ٧٣٧ م ثم خلفه أخوه فافيلا فحكم الى سنة ٧٣٩ . وعقبه ألفونسو الاول الكاثوليكى (الادفنش) فاستطال حكمه الى سنة ٧٥٧

وأسس الفونسو الاول دوق كانتابريا مملكة ليون التى يسميها العرب جليقيه فى ظروف شديدة وخطوب فادحة . وسميت كذلك لانها قامت على حدود الولاية الرومانية القديمة التى كانت تسمى بهذا الاسم وتمتد من خليج غسقونية الى نهر دورو ومن المحيط الى جبال نافار .وكانت تنقسم فى الداخل الى منطقتين . فسواحل الخليج والهضاب والسهول الشمالية والغربية كانت آهلة بالسكان . ولكن منطقة عظيمة من الخراب والاقفار كانت تفصل بينها وبين المنطقة التى كانت تستعر فيها لظى الحرب مع

المسلمين . وقد اجتاح الفونسو تلك المنطقة وذبح من كان بها من العرب والبربر ودفع النصارى الى الشمال . وفيما وراء ذلك البلقع كانت المملكة النصرانية تنمو ويشتد ساعدها. ولم تكن مملكة ليون (جيليقيه) من عهد وفاة الفونسو الاول الى نهاية حكم راميرو الثاني (سنة ٩٣١ـ٩٥٠م) عرضة لهجمات شديدة ولو أن التلاحم على الحدود لم ينقطع قط . ولم تنج كذلك من عدوان النورمان فانهم اقتحموا ساحلها مرارا ولكنهم لم يؤسسوا بها فتوحات ثابتة . وكانت حدود المملكة السياسية تمتد الى سهول ليون وقسطيله كلما نما سكانها يدل على ذلك نقل قاعدتها من كانجاس دونا الى أوفيدو ومن أوفيدو الى مدينة ليون . ثم نزحت الى الحدود قبائل مخاطرة متوحشة وحلت فى بردوليا القديمة التى كانت تسمى كاستيلا (الحصن) نظرا لمناعة حصونها وقلاعها واتخذت برجوس (برغش) قاعدة لها . وكانت منطقة برجوس الجبلية وخصوصا البقعة المعروفة بألفوز دى لارا منبتا لابطال عدة اشتركوا فى تحرير اسبانيا وحملوا عن قسطيلة نصيبها من الجهاد والكفاح ضد العرب ، ثم ثبتت دعائم الحدود السياسية فصارت أمارة برشلونه منطقة فرنجية . وتولى زعماء بردوليا امارة قسطيلة التى ظلت زمنا تنافس مملكة ليون حتى صار ملكها أخيرا ملكا لقسطيله وتولى زعامة الثورة النصرانية ضد العرب

ولم تنشأ علائق ما بين هذه المملكة وبين باقى الدول الاوروبية بل لم تمتزج بجيرانها فى الشمال الغربي امتزاجا يؤثر على نظمها وعوائدها فسارت

هذه النظم على سنن المملكة القوطية واستمر الحلالقة حينا يسمون أنفسهم قوطا ويدعون النسبة الى القوط وتنهج حكومتهم منهج السياسة القوطية فالملك مطلق يقبض على زمام القوة التشريعية والتنفيذية ولا يقيد النبلاء سلطته الا بالثورة أو جهودهم فى حمل العرش انتخابيا . وكذا بقيت الفروق الاجتماعية بين الاقلية الغنية والاكثرية المستعبدة على أن الطبقات المستعبدة سارت الى حريتها بخطوات واسعة منذ أن اشتدت الحاجة الى التجنيد للذود عن الحدود وانقلب الرقيق جندا يثور ضد مسترقه . هكذا شيدت دعائم دولة سياسية ثابتة تحدها من الشرق مملكة نافار التى استقلت بعد أن تخلصت من دوقات الكارولنجيان بصنائعهم وأقامت أسس الملك فيما بين جبالها ومفاوزها الحصينة واحتاط بها سياج من الامارات الصغيرة فى أواسط البرنيه كان ملك نافار فى بنبلونه يجتاحها واحدة فأخرى

العصر الثاني

الفصل الثالث

عبد الرحمن الناصر

سنة ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ : ٩١٢ ـ ٩٦١ م

القسم الاول ـ الثورة فى عهد عبد الرحمن ـ (١) ولاية عبد الرحمن الحكومة الاندلس (٢) محاربته لابن حفصون هزيمته الثوار . اخضاعه لالبيرة وأشبيليه ورية مطاردته لابن حفصون . استيلاؤه على سرقسطه . رفضه لمطالب ابن حفصون (٣) استئناف الحرب . وفاة بن حفصون . اخضاع اريوله وقرمونه ولبله . محاربة عبد الرحمن لسليمان وجعفر ابنى حفصون . استيلاؤه على جيان وألحامه وطليطلة . **القسم الثانى** ـ حروب الناصر مع نصارى الشمال ـ (٤) الولايات الشمالية . مملكة ليون. غزو أردونو الثانى لماردة . هزيمة أردونو . اغارته على طلبيره . محاصرة المسلمين لسنت استيفان . قدوم النصارى . هزيمة المسلمين (٥) استئناف الحرب مسير عبد الرحمن الى ليون . الحرب بينه وبين النصارى . استيلاؤه على أوسمه وسانت استيفان وكلونيا وكاركار. تحالف ملكى نافار وليون . موقعة جونكيرا. هزيمة النصارى (٦) اعتداء النصارى على الولايات الاسلامية . غزوة نافار . استيلاء عبد الرحمن على بنبلونه . وفاة أردونو الثانى وولاية راميرو . ثورة طليطلة وأخضاعها الحرب بين عبد الرحمن وراميرو (٧) الثورة فى قلعة ايوب وسرقسطه . خروج أمية بن اسحاق بشنترين . محالفته لراميرو . هزيمة الثوار . تسليم سرقسطة وحصن روطه (٨) غزوة نافار الثانية . مسير عبد الرحمن لمحاربة النصارى . اختلاف الروايات العربية

والافرنجية. رواية العرب عن الموقعة. رواية الافرنج هزيمة المسلمين فى الاندلس (الخندق) ـ القسم الثالث ـ حروب الناصر فى افريقية ـ (٩) فتحه لسبتة. عبوره الى مراكش ومحاربته الفاطميين ـ القسم الرابع ـ عهد الناصر ذروة الدولة الاموية ـ (١٠) ضخامة الدولة الاموية وغناها اتخاذ الناصر لسمة الخلافة. سياسته فى الحكم واصطفاؤه الصقالبة. الوزارة والحجابة فى عهده. سفارات ملوك النصرانية. مبانى الناصر وبناؤه الزهراء. وفاته وأخلاقه

القسم الاول

الثورة فى عهد عبدالرحمن الناصر

١ — توفى الامير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن والاندلس لا تزال تضطرم بعناصر الثورة والفتن وملك بنى أمية يرقب سقوطه العصاة والطامعون. كادت الثورات الداخلية فى عهد هذا الامير تذهب بدولة بنى أمية فاشتد ساعد نصارى الشمال أيما اشتداد حتى كاد يصبح وجود الدولة الاسلامية فى أسبانيا او عدمها متوقفاً على اراده ملك ليون (١) ولكن سرعان ماذهب الخطر وتبدلت الحال فلم تمض بضع سنين حتى تمزقت أسبانيا النصرانية الى دويلات صغيرة وظفرت دولة بنى أمية بسلطان ومنعة لم تظفر بها منذ حكم عبد الرحمن الداخل

خلف الامير محمداحفيده عبد الرحمن ابن ابنه محمد غير متجاوز الثانية

(١) وصف أشباخ ـ تاريخ الامويين فى اسبانيا ـ ج٢ ص٣ وهو المشار اليه فيما يلى

والعشرين من عمره . ومن الغريب أنه ولى الملك مع وجود أعمامه وأعمام أبيه وهم أكبر منه سناوأكثر خبرة فتصدى للولاية وحازها دونهم (١) فقرت بذلك أعينهم واتخذوه فألا حسنا اذ توسموا فى الامير الفتى آيات العظمة والبطولة ورأوا فيه خير ناهض بملكهم المزعزع . وفى ذلك يقول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد يوم أن تولى عبد الرحمن الملك فى مستهل ربيع الاول سنة ٣٠٠ هـ

بدا الهلال جديدا ‏ ‏ ‏ ‏ والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدى ‏ ‏ ‏ ‏ ان كان فيك مزيد
ان كان للصوم فطر ‏ ‏ ‏ ‏ فأنت للدهر عيد

وكانت أم عبد الرحمن نصرانية أسبانية تسمى ماريا (٢) وكان بالرغم من حداثته بارعا فى العلوم والمعارف الى درجة تسمو على سنه فقد درس القرآن والسنة وهو طفل لم يجاوز العاشرة وأجاد النحو والشعر والتاريخ ومهر بالاخص فى فنون الحرب والفروسية

واعتزم عبد الرحمن بادىء بدء أن يعدل عن سياسة الوفاق والتردد التى اتبعها أجداده فى معاملة الثائرين والعصاة ولم يرض أن يسلك فى ذلك سبيلا وسطا بل صمم ألا يقنع منهم بالجزية أو مجرد الخضوع أو الخلود الى السكينة وأعلن أنه لا يريد سوى حصونهم وبلادهم فاذا أذعنوا

(١) ابن الاثير . وبن خلدون ج ٤ ص ١٣٧
(٢) ويسميها بن الاثير مزنه (ج ٨ ص ١٧٦)

عفا عنهم واذا أبوا جد فى مطاردتهم وبالغ فى عقابهم

٢. ـ وفى ابريل سنة ٩١٣م ظهر عبد الرحمن فى الجيش وتولى القيادة بنفسه فأثار ظهور الامير الفتى فى الصفوف حماسة الجند وأكبروا اقدامه على مشاطرتهم الآلام والمشاق . وسار الامير نحو طليطلة على رأس جيشه المنظم فرد ثوار تلك الجهة الى نهر الايبرو ثم اخترق تلك المنطقة الى حيث كان يرابط بن حفصون بجيش ضخم (١) يضم أشجع الضباط والقواد وتؤازره على مايظهر قوة من نصارى البشكنس (٢) فعهد الامير بقيادة مقدمة جيشه الى عمه المظفر وتولى هو قيادة القلب بجناحيه وكان ابن حفصون يمتاز بكثرة العدد لكن جيش عبد الرحمن كان أتم أهبة وأكثر دربة تؤيده قوة منيعة من الفرسان فما كادت تبدأ الموقعة بقرع الطبول وعجيج الابواق حتى شق فرسان عبد الرحمن طريقهم الى قلب الثوار وهزموهم هزيمة فادحة فقتل منهم نحو سبعة آلاف وارتد بن حفصون منهزما الى قلاع اسبانيا الشرقية

ولم تمض ثلاثة أشهر حتى تم لعبد الرحمن اخضاع البيره وجيان وهما من المعاقل التى اتخذها ابن حفصون قاعدة للاغارة واضرام نار الثورة وتداعت أمامه سواها من الحصون والقلاع المنيعة وأباد اللصوص والعصاة فى

(١) قدره كاردون بعشرين الف مقاتل فقط (تاريخ افريقية واسبانيا تحت حكم المسلمين)

(٢) اشباخ ج ٢ ص٧

هاتيك الاقطار. وكذا كان نجاحه فى جبال «سيارا نفادا» الشاهخة فانه فرق شمل العصاة أو قتلهم. وقدم ابراهيم بن حجاج الذى خلف أباه فى ولاية أشبيلية طاعته وذلك بعد أن حاول أهلها دفاعا وثاروا بقيادة احمد بن مسلمة فحاصره عبد الرحمن وامتلكها من يده (١). وسار الامير بعدئذ لقتال الثوار فى «سيارا دى رجيو» (مقاطعة ريه) فأخضع زعماءهم. وألقى حلفاء الثوار من النصارى اسلحتهم متأثرين بعدل الامير ولينه، وفى هذا يقول دوزى «ومها يقل عن تصرف الهيئة الحاكمة فانها أبدت تسامحا وكرما فى معاملة النصارى» وبعد أن عهد عبد الرحمن بمطاردة بن حفصون الى عمه المظفر عاد الى قرطبة على رأس جيشه الظافر

على انه لم يلبث فى عاصمته الا قليلا اذ عاد ابن حفصون فاستقر فى طليطلة وبسط حكمه على شرق اسبانيا وأطلق العنان لسطوته وجبروته، فتأهب عبد الرحمن لقتاله ثانية (٣٠٢ هـ - ٩١٤ م) وحشد جيشا كبيرا فرقه من مرسية على طول الساحل حتى نهر الايبرو وشتت شمل الثوار فى تلك المنطقة. ثم سار بجيشه الى سرقسطة التى كانت تضطرم بنار الثورة ففاوض أهلها فى التسليم. وكان بها كثير من أتباع ابن حفصون على أنها لم تكن كلها خارجة على الامير. ورأى أنصار الثائر أنهم لا يستطيعون وحدهم دفاعا عنها فالتمسوا العفو من عبد الرحمن فعفا عنهم. وقبل أن يغادرها وفد عليه رسول من قبل ابن حفصون يطلب الصلح متعهدا بتسليم طليطلة وامداد عبد الرحمن بالجند

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٩

وحماية الحدود الشرقية من النصارى بشرط أن تترك له ولاعقابه الاراضى الواقعة على الايبرو ليحكم فيها بسلام وسكينة. فرفض عبد الرحمن شروطه وطلب التسليم بلا قيد ولا شرط. فاعلن الثائر عندئذ أنه سيقاتل حتى الموت وشجعه أنه كان يحتمى بقلاع منيعة ولا سيما طليطلة وأن أمراء ليون ونافار كانوا يساعدونه بالاقوات والجند

٣. ـ فظهر فى ميدان الحرب وعبد الرحمن لا يزال فى سرقسطة وأطلق العنان لطغيانه فأثار فى البشرات وجبال البيرة ثورة كبيرة وفرض على سكان تلك الانحاء مغارم فادحة . فعهد عبد الرحمن بقتاله الى عمه المظفر وأسرع بالعودة الى قرطبة فحشد الجند والفرسان ثم عاد لقتال الثوار بنفسه(١) على أنه آنس مصاعب فادحة فى منازلة الحصون والعصابات فعهد الى والى جيان بالاستمرار فى الحرب وعاد الى قرطبة حيث بلغه انتصار عمه المظفر على الثوار فى عدة مواقع ووفاة ابن حفصون (٣٠٦ هـ ـ ٩١٨م) وكان موت الثائر خلال الحرب ضربة شديدة على الثوار فكادت تبدد جموعه لولا أن نهض ابناه سليمان وجعفر لقيادة الثورة وكلاهما طاغية شديد البأس .

وكانت جيوش عبد الرحمن فى ذلك الحين قد استولت على عدة مدن أخرى فهزم قائده اسحاق بن محمد الثوار فى عدة مواقع واستولى على أريولة

(١) يقول كوندى ان تلك الحرب حدثت فى سنة ٣٠٦ هـ (٩١٨م) (ج ٢ ص ٧٢) ولكن أشباخ يقول انها كانت قبل ذلك

قاعدة تدمير وافتتح قرمونة من يد حبيب بن سوارة الذى كان ثائراً بها ثم استولى على حصن ستمرية وحصن طرش واخضع ثوار الحامة. واستولى بدر مولاه على مدينة لبلة وأسر بها الثائر عثمان بن نصر وأرسله مصفدا الى قرطبة

على أن عبد الرحمن آنس فى الاعوام التالية (١) صعابا فادحة فقد اضطرمت الاندلس ثانية بقلاقل كادت تجعل عهده شبيها بعهد سلفه عبد الله وعصف بها وباء هائل واشتعلت نار الحرب فى كل ناحية واستأنف ثوار الجبال الجنوبية عدوانهم واستولوا على جيان وغيرها من المعاقل ودب الرعب فى قلوب جند عبد الرحمن .

ووصلته هذه الانباء وهو فى قرطبة فبادر بحشد الجند وسار بنفسه الى جيان وهزم ثوارها ثم قصد الحامة فحاصرها وأحرقها واستولى عليها. فقوى بذلك أمله فى التغلب على جند سليمان وجعفر ابنى حفصون وانصارهما بالرغم من تحالفهما مع ملكى ليون ونافار اللذين كانا يمدانهما بالمال والجند. وكانت طليطلة أمنع حصن للثوار فقطع علائقها مع باقى اسبانيا مدى عامين فلما كادت تنفد مواردها عهد بحصارها الى حاكمي ماردة وبلنسية وكان الحصار شاقا بطيئا .ولكن المدينة الثائرة سلمت أخيرا وعفا عبد الرحمن

(١) هى من سنة ٩١٨ الى ٩٢٣ م على قول كوندى . ولكن أشباخ يرجح انها كانت من سنة ٩١٥ الى سنة ٩١٨ م

عن سكانها (١)

ولم ير جعفر بن حفصون بعد سقوط طليطلة الا أن يلجأ الى ملوك الشمال ولكنهم لم يروا رأيه فى محاربة عبد الرحمن فقد راعهم ما بدا من عزمه وبأسه فأخلدوا الى السكينة حينا. وهكذا عادت سلطة بنى أمية الى ذروتها فى أعوام قليلة بعد أن لاح لألفونسو الثالث تضاؤلها أمام ثورة ابن حفصون (٢)

القسم الثانى

حروب الناصر مع نصارى الشمال

٤ ـ لم ينس عبد الرحمن أثناء اشتغاله باخضاع الثوار داخل المملكة

(١) يقول كوندى نقلا عن أبى الفدا ان تسليم طليطلة كان فى سنة ٣١٥ هـ (٩٢٧ م) ولكن أشباخ يقول ان الحوادث تدل على انه كان قبل ذلك بعشر سنين

(٢) لا نعرف بعد ذلك مصيرا لابنى حفصون ولا يذكرها تاريخ الاندلس اللهم الا فى سنة ٩٤٤ م حيث نسمع بوجودها فى لاردة وضواحيها. فقد ذكر كوندى (ج ٢ ص ٤٨٢ من الطبعة الاسبانية) «ان الوالى عبد الرحمن بن محمد طارد ابنى حفصون فى جبال لاردة الشرقية .. الخ» . ولكن مؤرخى العرب يروون عن مصيرها رواية أخرى فيقول ابن خلدون ان جعفر بن حفصون قام مكان ابيه وأقره الناصر على أعماله، ثم دس عليه أخوه سليمان من قتله وتملك ببشتر واعمالها وأقره الناصر كذلك ولكنه نكث عهده مرارا وأرسل عبد الرحمن لقتاله وزيره عبد الحميد بن سبيل فهزمه وقتله وقدم المولدون أخاه حفص بن عمر فاستمر على العصيان ومضى عبد الرحمن فى قتاله حتى أذعن (ج ٤ ص ١٣٥)

ان يتحين الفرص لمقاتلة عدوين كان هو على يقين من عدوانهما وسوء مقاصدهما نحو الاندلس : أولهما نصارى الشمال وثانيهما الفاطميون فى أفريقية

فى أواسط القرن الثامن عصف بالولايات الشمالية قحط شديد هاجر بسببه كثيرون الى أفريقية ومعظمهم من العرب الذين استوطنوا هذه الجهات عقب الفتح الاسلامى .فانتهز الثوار من سكان جليقية (من ولايات ليون) هذه الفرصة لاهلاك من بقى منهم . ولم تمض بضع سنين حتى استوحش البربر لفقد مواطنيهم وارتاعوا لقتلهم فى هاتيك السهول فأخلوا عدة مدائن مثل استورقة وليون وسمورة (زامورا) وشلمنقة وسقوبية وميرانده ولم يحاول الفونسو الثالث ملك ليون أن يضم هذه الجهة الى أملاكه فاكتفى بقتل من بقى فيها من المسلمين القلائل ثم عاد الى جباله . وعمل من خلفه من امراء ليون على الاستفادة من الحروب الداخلية التى كانت تمزق أوصال الدولة الاسلامية ،وترقب فرصة يحملون بها مقاطعة ليون مهدا لدولتهم . وفى منتصف القرن التاسع لما فاضت الاندلس بالثورات الداخلية دفعوا حدودهم الى نهر دورو واختطوا هنالك أربع قلاع منيعة كانوا يتخذونها قاعدة للاغارة على الحدود الاسلامية ومطاردة المسلمين العزل بالسيف والنار وقتل النساء والاطفال والشيوخ بلا رأفة يدفعهم الى ذلك الفقر المدقع . وكانوا ينظرون الى غنى الاندلس وخيراتها الوافرة بعين المقت والحسد ويبغضون الحضارة العربية التى كان

يبهر ضياؤها أعينهم فـكان على عبد الرحمن أن ينقذ ملك الاندلس وحضارتها الزاهرة من أولئك الحاسدين الطامحين ولقد عمل على ذلك بعزم دونه عزائم

ولم يك عبد الرحمن يميل الى محاربة ثوار الشمال بل كان يؤثر دوام السلم بينه وبينهم . غير أنهم اضطروه الى الحرب . ففى سنة ٩١٤ م نهض الليونيون بقيادة ملـكهم أردونو الثانى (أردون) وهاجموا مقاطعة مريدا (مارده) ونهبوها وعاثوا فيها بالنار والسيف وأسروا وذبحوا سكانها واستولوا على قلعة ألاينة وقتلوا كل المدافعين عنها وسبوا النساء والاطفال فارتاع سكان بطليوس ورشوهم بالمال والحلى ثم عبروا نهر الدورو مثقلين بالغنائم والاسرى

وكان سكان المنطقة التى غزاها أردونو من الثائرين على عبد الرحمن وكان بوسعه أن يغضى عما أنزله النصارى بهم ولـكنه أراد أن يأسر قلوب الثوار بالدفاع عنها فاعتزم معـاقبة ملك ليون بالرغم من اشتغاله بمحاربة الفاطميين فى أفريقية وسير اليه فى يوليه سنة ٩١٦ م جيشا بقيادة وزيره احمد بن أبى عبيدة فهزم النصارى وغنم منهم غنائم كبيرة . وفى العام التالى عاد أردونو فعاث فى منطقة تلافيرا (طلبيره) وأحرق مدنها وضياعها فضج المسلمون من ذلك وتضرعوا الى عبد الرحمن أن ينقذهم من اعتداء النصارى وسفكهم

فأرسل عبد الرحمن قائده أحمد بن أبى عبيدة ثانية على رأس جيش ضخم وأمره أن يهاجم أردونو وأن يحاصر قلعة سنت استيفان (شنت

اشتبن)التى كانت تسمى أيضاً(كسترو موروس).فبدأ المسلمون بحصارها وكادت تسقط فى أيديهم لولا أن قدم لاغاثتها أردونو فى آخر لحظة وهاجم المسلمين . وكان الجيش الاسلامى بالرغم من كثرته مفكك العرى اذ كان سواده من البربر المرتزقة الذين استقدمهم عبد الرحمن من طنجة ومن الاسبان وجند الحدود ممن لا يعتمد على شجاعتهم وأمانتهم .وكانوا يحرصون على غنائمهم وعلى الدفاع عنها أ كثر من حرصهم على مقاتلة العدو .فانهزم المسلمون هزيمة فادحة وارتدوا أمام قوات أردونو ودب الاضطراب فى صفوفهم .ولكن قائدهم الشجاع فضل الموت على الارتداد والتف حوله نفر من شجعان ضباطه وجنده فقتلهم النصارى جميعا .ويقول مؤرخو العرب ان بقية الجيش عادت سالمة الى الاراضى الاسلامية .ولكن رواة الاسبان يقولون « ان هزيمة المسلمين كانت رائعة بحيث غصت بقتلاهم واشلائهم السهول والغابات الممتدة من الدورو الى اتيزا » (١)

٥ ـ فلما علم عبد الرحمن بذلك الخطب الجلل نهض لملافاته والتأهب لغزوة كبيرة يقوم بها بنفسه فى العام التالى ولكن الحرب فى افريقية اضطرته الى تأجيل مشروعه عاما آخر

وفى ربيع سنة ٩١٨ م عاد أردونو الثانى الذى ضاعفت جرأته موقعة سانت استيفان وحليفه سانكو (شانجه) ملك نافار فعاثا فى ضواحى ناجيرا وطليطلة واستولى سانكو على منطقة فالتيرا وأحرق مسجدها .

(١) دوزى: تاريخ المسلمين فى اسبانيا ج ٣ ص ٣٤ ـ ٣٦ وهو المشار اليه فيما يلى

وكان عبد الرحمن يتوق الى الانتقام لهزيمته الفادحة ومقتل قائده الشهم. ولم ينس أن أردونو سمر رأسه فى جدار سانت استيفان . فحشد جيشا كبيرا عهد بقيادته الى حاجبه بدر وامر سكان الحدود بالانضمام اليه حتى ينتقموا لما لحقهم من الاعتداء المتكرر . وخرج ذلك الجيش من قرطبة فى ٧ يوليه سنة ٩١٨ م وساروا توا الى حدود ليون ثم هاجم العدو المستعصم بالجبال وهزمه هزيمتين كبيرتين فى ١٣و١٥ اغسطس فى مكان يسمى متونيا ومن ثم استمرت نار الحرب بين الفريقين بشدة هائلة واستمرت كذلك شهورا عديدة

وفى يونيه سنة ٩٢٠ م سار عبد الرحمن لقيادة الجيش بنفسه فاستولى على أوسمة وأحرقها ثم زحف على سانت استيفان التى فرت حاميتها عند اقترابه فهدم قلاعها .ثم اتجه الى كلونيا وهى مدينة قديمة لم تبق منها اليوم سوى أطلال دارسة فألفاها خالية فهدم دورها وكنائسها . والظاهر أن النصارى أعتزموا ألا يعترضوا سبيل المسلمين فى تلك المنطقة لان عبد الرحمن عند ما زحف لمهاجمة قلعة كاركار التى بناها سانكو ليتخذها قاعدة للاغارة على طليطلة ألفاها خالية أيضا . وكذلك الفى كالاهورا التى فر منها سانكو ليستعصم فى أورنيدو ولكنه حينما اجتاز نهر الايبرو هاجم سانكو مقدمته فهزمه ورده الى الجبال

فالتجأ سانكو الى حليفه أردونو واعتزم الملكان عندئذ أن يهاجما المسلمين. واستعصما بالجبال الواقعة على الحدود وانقضا على الجيش الاسلامى

حين مروره فى مفاوز البرنيه فأحدثا به تشويها وشمر عبدالرحمن بخطر المـأزق فعرج بجيشـه على مكان يسمى جونكيرا حيث تحول المر الى سهل متسع ثم تـسكر هنالك.« وهنا ارتكب النصارى غلطة فاحشة فانهم بدلا من البقاء فى حمى الجبال نزلوا الى السهل وقبلوا محاربة المسلمين بجرأة دفعوا ثمنها هزيمة فادحة . وطاردهم المسلمون حتى أنقذهم ظلام الليـل . وأسروا كثيراً من زعمائهم ومن بينهم اسقفان من أساقفة شلمنقة كانا يحاربان كجنديين طبقا لعادة ذلك العصر . ولجأ نحو ألف من النصارى الى قلعة مويز فحاصرها عبد الرحمن وقتل كل من فيها » (١)

ولم يلق المسلمون مقاومة بعد ذلك فاقتحموا نافار وغنموا منها غنائم هائلة .وفى ٨ سبتمبر بدأ عبد الرحمن بالعودة فوصل قرطبة على رأس جيشه الظافر فى ٢٤ منه .

٦ . ـ وكان عبـد الرحمن يؤمل أن يكون ذلك الدرس بعيد الاثر رادعا للنصارى .ولـكنه أخطأ الظن فانه لم يمض عامان حتى أغار أردونو على ناجيرا واستولى عليها واستولى حليفه سانكو على فجويرا فأثار سقوطها ارتياعا هائلا فى أرجاء الاندلس لان سانكو قتل كل من فيها ومنهم كثير من العظماء الذين ينتمون الى أسر كبيرة .فضجت الاندلس لذلك ولم يك ثمة مناص من مجاراة الرأى العام فى طلب الانتقام لتلك النذالة اذا لم يكن عبـد الرحمن نفسه يريد الحرب . على أن قلب الاميركان يفيض حقـدا

(١) دوزى ج ٣ ص ٤٤

وسخطا لما يرتكبه النصارى من التدمير والسفك المستمرين فى المقاطعات الشمالية فلم يصبر على انتظار الربيع بل غادر قرطبة فى ابريل سنة ٩٢٤م وسار توا الى ميدان الحرب فدخل نافار فى العاشر من يوليه . وكان اسمه كافيا لالقاء الرعب فى قلوب النصارى فترك العدو عند اقترابه قلاعه وحصونه . فاستولى على كاركار وبيرالتا وفالشيس وكاركاستيللو وأحرق كل معاهدها وحصونها ثم نفذ الى قلب نافار وزحف على عاصمتها بنبلونة . وحاول سانكو مرارا أن يقفه فى الجبال فكان يرد فى كل مرة بخسائر فادحة. ودخل عبد الرحمن بنبلونة التى فر سكانها رعبا منه فدمرها وأحرق كنائسها وخرب قصور الملك والامراء عقابا لهم . ووصلت الى سانكو نجدة من أراجون فهاجم المسلمين مرتين ولكنه هزم فى كلتيهما شر هزيمة . وبذا تم اخضاع زعيم البشكنس وأصبح عاجزا عن أن يلحق بالمسلمين أذى .

وفى ذلك الحين توفى أردونو الثانى ملك ليون (سنة ٩٢٥ م) فنشبت بين أبنائه حرب أهلية استمرت بضع سنين ومنعت ليون حينا من محاربة المسلمين. فانتهز عبد الرحمن تلك الفرصة لتوطيد سلطته وقمع الفتن والثورات داخل بلاده

ثم انتهت الحرب الاهلية فى ليون سنة ٩٣٢ م بولاية راميرو الثانى (رودمير). وعندئذ تغيرت أحوال الشمال فان راميرو كان ملكا مقداما يفيض قلبه ببغض المسلمين . وكانت طليطلة بعد سكونها حينا قد عادت الى

الثورة بتحريض ليون فأرسل عبد الرحمن الى الثائرين وفدا من العلماء يخطب طاعتهم فأجابه الثائرون بإباء وكبر معتمدين على مساعدة النصارى فبادر عبد الرحمن بالزحف على طليطلة وبدأ حصارها . فسار ملك ليون لانجادها واستولى في طريقه على مدريد . ولكنه لم ينجح في انقاذ طليطلة لانه قسما من الجيش المحاصر لهاسار لملاقاته فاضطر أن يترك المدينة الثائرة لمصيرها. وفقدت طليطلة بذلك كل أمل في المقاومة فسلمت سنة ٩٣٢م

أما راميرو فاتجه الى أوسمة التي كان يهددها المسلمون وهزمهم. وانتقم عبد الرحمن لنفسه سنة ١٣٤ فسار الى أوسمة ولما أعيته الحيلة في أن يحمل راميرو على الخروج من قلاعه ومحاربته سار بجنده شمالا وأمعن في قتل النصارى وقتل كل أحبارهم وعددهم مائتان بالقرب من برغش عاصمة قشتالة ثم هدمها وأحرقها وخرب عددا كبيرا من قلاعها

٧ .ــ ولما توفى سانكو وليت الملك أرملته تيودا (طوطه) لتحكم البلاد بالوصاية على ابنه جارسيه فالتزمت السكينة حتى سنة ٣٢٥ هـ وفيها أغار البشكنس على بعض الحصون الاسلامية وفى نفس الوقت ثار مطرف بن منذف في قلعة أيوب وتحالف مع ملك ليون وكان محمد بن هشام التجيبي حاكم سرقسطة قد فاوض راميرو سرا في أن يعلن خضوعه اليه مقابل مساعدته على الخروج على عبد الرحمن ومحاربته فأصغى اليه. وبينما كان عبد الرحمن يحارب راميرو سنة ٩٣٤ كما تقدم ثار محمد بن هشام علنا ورفض مساعدة الجيش الاسلامي . ثم اعترف بسيادة ليون على سرقسطة

سنة ٩٣٧ م وأبى كثير من قواد الحصون مجاراته فى خيانته فهاجم راميرو تلك المنطقة وأخضع قلاعها وسلمها الى الثائر . وعقد كلاهما محالفة مع تيودا ملكة نافار وبذا تحالف الشمال كله على عبد الرحمن

فسار بنفسه لمقاتلة الثوار سنة ٩٣٧ م وبدأ بقلعة أيوب فحاصرها وقتل مطرفا ومن معه من نصارى الية الذين أرسلهم راميرو لانجاده . وعرج على البة (آلفا) فافتتح عددا من حصونها (١) وبث جيوشه فى الشرق فاستولى على بطليوس بعد حصار دام أكثر من سنة . ثم اتجه بعدئذ الى سرقسطة فمهد بحصارها الى كبير من أسرتهم واحمد بن اسحاق قائد الفرسان وعينه حاكما للحدود . ولكنه تهاون فى الحصار وتوانى لمرض فى قلبه ولاطماع كانت تجيش بها نفسه فعزله عبد الرحمن وأهانه . فتعاون مع أخيه أمية بن اسحاق على التآمر عليه فاكتشف أمرهما ونفاهما من الاندلس . فاستولى أمية على مدينة سنتريم (شنترين) ورفع بها علم الثورة وتحالف مع ملك ليون ودله على الاماكن السهلة التى يمكن منها مهاجمة المملكة الاسلامية . ولكنه خرج من سنتريم ذات يوم للصيد فأعاد أحد الضباط حكم الامير على المدينة . فالتجأ أمية الى راميرو . وكان أخاه فى ذلك الحين لا يزال يتآمر على عبد الرحمن ويفاوض الفاطميين أعداءه فسعى فى القبض عليه وأعدمه (٢)

وفى ذلك الحين فازت جيوش عبد الرحمن فى الشمال فاستولت على

(١) بن خلدون ج ٤ ص ١٤٠ (٢) بن الاثير ج ٨ ص ١١٥

سرقسطة وحصونها من يد محمد بن هشام وعلى حصن روطة وأسرت به يحيى بن هشام أخا محمد (١) . واذ كان محمد بن هشام أقدر رجال الدولة فقد عفا عنه عبد الرحمن وأبقاه فى منصبه

٨ . ـ واهتم عبد الرحمن فى نفس الوقت بمحاربة النصارى. فلما أغار البشكنس على حصونه زحف على نافار وافتتح بنبلونة وخرب معاهدها وحصونها وأخضع البشكنس خضوعا تاما. ولما انتهى من حصار سرقسطة غزاهم ثانية واقتحم بنبلونة مرة أخرى فقدمت اليه تيودا طاعتها وأقر ولدها جارسيه على ملك نافار.

وفى سنة ٩٣٩م حشد كل جيوشه وتأهب لمحاربة راميرو الثانى .وكان اضطهاده لاشراف القبائل وافصاؤهم عن مناصب الدولة واسنادها الى الاجانب والصقالبة (٢) قد بدأت تحدث أثرها . فسخط عليه الاشراف وثارت كبرياء القواد والضباط العرب وتغيرت نفوسهم وفترت حماستهم حينما عهد بقيادة جيشه الضخم الذى بلغ زهاء مائة ألف الى صقلبي اسمه نجدة (٣) .ثم سار متجها نحو سيمانقا . وتأهب راميرو الثانى لقتال المسلمين وزوده حليفه الخائن أمية بن اسحاق بنصائح ومعلومات ثمينة . وانضمت اليه تيودا ملكة نافار نا كثة لعهدها .

(١) بن خلدون ج ٤ ص ١٤٣
(٢) فصلنا ذلك فى القسم الرابع من هذا الفصل
(٣) دوزى ج ٣ ص ٦١

وهنا تختلف الروايات العربية والافرنجية اختلافا بينا سواء فى تاريخ الموقعة أو مكانها . وبينما نجد الرواية العربية غامضة مقتضبة اذا بالرواية الافرنجية واضحة مفصلة. وقد يكون ذلك لان مؤرخى العرب آثروا الاغضاء عن الايضاح والاسهاب فى موقعة هزم فيها أمير من أكبر أمراء الاسلام شر هزيمة وأصيب فيها المسلمون بكارثة فادحة(١) وقد يرجع تفوق الرواية الافرنجية الى أن مؤرخى الافرنج رجعوا الى المصادر الاسبانية والعربية معا وأنهم يحسنون الالمام بالمواقع الجغرافية لولايات أسبانيا الشمالية . على أننا نورد الروايتين ففى المقارنة بينهما فائدة .

تقول الرواية العربية ان عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف على زامررا (سمورة) عاصمتها وكانت فى غاية المناعة يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان قد أحكمتها الملوك السالفة . وبين الاسوار خنادق متسعة تفيض بالماء فافتتح المسلمون منها سورين واحتمى النصارى بداخل المدينة . ثم لحق المسلمين الاعياء من امتناع المكان وحصانته فكر عليهم النصارى بشدة وحماسة وساد الاختلال بين المسلمين فهزموا هزيمة شديدة حتى قدر بعض المؤرخين قتلاهم بخمسين الف . ويسمى العرب

---

(١) وهذا ماانبعوه بالنسبة لموقعة تور التى هزم فيها المسلمون أيضا وقد علقنا على ذلك فى مكانه — راجع ص ٦١ من هذا الكتاب.

تلك الموقعة بالخندق لحصولها على خنادق زامورا (١)

وتقول الرواية الافرنجية ان عبد الرحمن سار بجيشه متجها نحو سيمانقا فلاقاه راميرو وتيودا فى ١٥ اغسطس سنة ٩٣٩ م ونشب القتال بين الفريقين « فتوانى الضباط العرب وتراجعوا » ولكن حدث مالم يكن يتوقعه المسلمون فان النصارى طاردوا المسلمين . وارتد المسلمون أمامهم حتى مدينة فى جنوب شلمنقة اسمها ألاندجا (الخندق) ثم وقفوا وكروا على النصارى . ولكنهم هزموا هزيمة كبيرة وأمعن فيهم النصارى قتلا وأسرا فساد الخلل فى الجيش الاسلامى ومزقت منه فرق كثيرة برمتها وقتل القائد نجدة وأسر محمد بن هشام حاكم سرقسطة فى بدء الموقعة وزج الى سجون ليون ومزق جيشه . وأثخن عبد الرحمن نفسه جراحا ولم ينج من الاسر والموت الا بأعجوبة . فولى شطر قرطبة مع نفر من الفرسان (٢) : ولم يطارد راميرو المسلمين بعد الموقعة . ويقال ان الذى منعه من مطاردتهم هو أمية بن اسحاق حيث أخافه الكمين ورغبه فيما خلفوه

---

(١) هذا مارواه المسعودى ونقله عنه المقرى (نفح ج ١ ص ١٦٥ على هامشه فى مروج الذهب ص ١٩٤) ولم يذكر بن خلدون تفصيلا لتلك الموقعة وبضع تاريخها سنة ٣٢٣ (ج ٤ ص ١٣٧) ويضعه بن الاثير والمسعودى فى سنة ٣٢٧ ه (بن الاثير ج ٥ ص ١١٥)

(٢ دوزى ج ٣ ص ٦٣ ويقول ان عبد الرحمن لم يصحبه فى فراره سوى تسعة وأربعين فارسا ــ يوسف اشباخ ج ٢ ص ٥٠

من الاسلاب والاموال (١) ولولا ذلك لفنى الجيش الاسلامى قاطبة. ثم ان أمية استأمن بعد ذلك عبد الرحمن فأمنه وحسنت طاعته. كان لانتصار راميرو دوى عظيم فى المشرق واوربا. على أن الموقعة فى ذاتها لم تكن بعيدة الاثر فى قوى الجيش الاسلامى فسرعان ما وصل عبد الرحمن الى قرطبة حتى أخذ فى تنظيم الجيش واصلاحه ولكن الموقعة كانت خاتمة أعماله الحربية فلم يغز بعدها بنفسه.

القسم الثالث

حروب الناصر فى أفريقية

٩ ـ لم ينس عبد الرحمن أثناء اشتغاله بمحاربة النصارى والثوار أن يهتم بمقاومة الدعوة الفاطمية التى اجتاحت مصر وافريقية ووصلت شواطىء المحيط وسبتة وأخذت تهدد الاندلس. وكان الثوار فى الاندلس يفاوضون الفاطميين ويأتمرون معهم على الدعوة لهم. واذ كان عبد الرحمن يتحين الفرصة ليقصى تلك الدعوة الخطرة عن مملكته فقد اجتاز البحر الى سبتة سنة ٣١٧ هـ واستولى عليها من ولاتها البربر بنى عصام حلفاء الفاطميين وبادر أمراء البربر من الادارسة وزناته الى طاعته ومهادنته وامتدت دعوته الى فأس (٢). وفى سنة ٣٢١ هـ هزم حليفه موسى بن أبى العافية

(١) نفح ج ١ ص ١٦٥ ـ ابن الابار ج ٨ ص ١١٥
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ — نفح ج ١ ص ١٦٩

أمير مكناسة وصاحب المغرب جيوش عبيد الله الفاطمي التي أرسلها لغزو المغرب واستئصال دعوة الناصر بقيادة قائده ابن يصل عامل تاهرت (١) ثم اجتازت جيوش عبد الرحمن بعد ذلك الى أفريقية مرارا وحاربت جيوش الفاطميين وحلفاءهم من أمراء البربر . ودعى لعبدالرحمن الناصر على منابر مراكش . على أن ذلك الفتح لم يكن ثابت الدعائم فانقضت آثاره بانقضاء دولة الامراء المحالفين لبني أمية بالمغرب

القسم الرابع

عهد الناصر ذروة الدولة الاموية

١٠ . ـ لاريب أن عهد عبد الرحمن الناصر أرفع ذروة بلغتها عظمة الدولة الاموية بالاندلس وهو أيضاً حد فاصل بين دور تقدمها ورفعتها ودور اضمحلالها وسقوطها

— ١ —

تولى الناصر عرش مملكة مزقها التفرق واستنفدت مواردها الثورة والتي لديه لاخمادها جيشاً شوهته الحروب المستمرة . ولكن اجتماع الحزم والنشاط والعزيمة في نفس الامير الفتى كان كافيا لان يبعث روحا جديدا الى جهود الجيش وأن يثير الروع في قلوب العصاة والمتمردين

وتأهب عبد الرحمن لقمع الفتن بادىء بدء فتوالت حملاته على الثوار والمقاطعات الثائرة ، واستعان بالتفرق الذى أثارته الاطماع والمنافسة في

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤١

قلوب الثائرين فيما بينهم على تبديدقواهم وتمزيق فلولهم وافتتاح حصونهم. فما لبثت الثورة التى بلغ لهيبها أروعه فى عهد الامير عبد الله أن أخذت فى دور الاضمحلال . ولم ينس عبد الرحمن أن يتخذ المهادنة لاولى البأس منهم سبيلا الى اخضاع غيرهم حتى يتفرغ بعد الى نضالهم . وكان موت عمر بن حفصون (سنة ٩١٧ م) عماد الثورة ومثير ضرامها ضربة شديدة على الروح الثائرة فساد الضعف بين المنازعين والمتنافسين فى طلب الرآسة وألفى الامير الطريق ممهدا لعقابهم واستئصال عدوانهم . وكان النصارى، كما ذكرنا غير مرة ، لا يتركون فرصة تسنح من اختلال أحوال المملكة الاسلامية أو اضطرابها بالثورات الداخلية الا انتهزوها لسفك دماء المسلمين ونهب أموالهم وتخريب ضياعهم ومعاهدهم . وكان عبد الرحمن مرغما فى صدر ولايته أن ينظر الى جرائمهم بعين التهاون والاغضاء حتى ينتهى أمره مع الثوار . وسرعان ماخمدت الثورة حتى نشط الى عقابهم وسحق عدوانهم، فحارب ملوك ليون ونافار وهزمهم مرارا ،وضم نافار وبعض حصون ليون الى ولاياته الشمالية . وألفى زعماء النصارى أنفسهم عاجزين عن مناوأة أمير المسلمين ومقاومته فلزموا السكينة. ولم تمض سنة ٩٢٩ م حتى تم لعبد الرحمن اخضاع الجزيرة بأسرها

وعنى الناصر باصلاح الجيش وتقويته عناية كبيرة فحشد الجند من أقاصى اسبانيا والمغرب واستكثر من الاسلحة والذخائر . وأمدت الثورة الجيش العربى بقواد أولى دراية وبأس ،وجند أولى شجاعة وجلد .

وكان اهتمام الامير بقيادة الجند بنفسه ، كأقدمنا ، معيدا لعهد الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة . وفى عهده أصلح الاسطول اصلاحا كبيرا وأضيفت اليه وحدات وسفن جديدة وأصبح لبني أمية من ذلك العهد أسطول ثابت كامل الاهبة ينازع الفاطميين سيادة البحر الابيض . وبه استعان عبد الرحمن على فتح سبتة والعبور الى مراكش

وكان عهد الناصر على استمرار الغزو والحروب عهد رخاء ويسر كثر فيه الخراج وامتلأت خزائن بنى أمية بالاموال بعد أن استنفدت معينها حروب الامير عبدالله ، وذلك لوفرة ما كان يغنمه الجيش الظافر من جهة ولان اخماد الثورة وعودة السلام مكنا السكان من العناية بالزراعة والتجارة والصناعة من جهة أخرى . وقد وصل الخراج فى أيام الناصر الى مبلغ لم يصله فى التاريخ الاندلسي قاطبة حتى قيل انه خلف خمسة آلاف الف الف دينار (خمسة آلاف مليون) . وكانت جباية الاندلس يومئذ من المدائن والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة الف وثمانين الف ومن السوق والمستخلص سبعمائة الف و خمسة وستين الف . وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا تحصى (١) . وفى سنة ٩٥١م كان فى الخزانة العامة عشرون مليون قطعة من الذهب وأكد ابن حوقل أن عبد الرحمن الناصر كان أغنى ملوك عصره . وقد بلغت الاندلس فى عهده من الرخاء والامن والسعادة والعزة مالم تبلغه قط . وزهت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والفنون وساد

---

(١) نفح ج ١ ص ١٧٧

الامن فى أقاصى المملكة ورخصت كلفة العيش . وتقدمت التجارة تقدما هائلا . ونمت قرطبة حتى بلغ سكانها خمسمائة الف وبلغت مساجدها ثلاثة آلاف ومنازلها مائة وثلاثة عشر الف وحماماتها ثلاثمائة وضواحيها ثمانى وعشرين وازدانت بعدد عظيم من القصور الفخيمة ودوت شهرتها فى الآفاق ووصلت الى قاصية الشمال حتى ان الراهبة السكسونية هروسوتيا نظمت عنها القصائد باللاتينية وأسمتها فى نظمها « زينة الدنيا » (١)

— ٢ —

كان عبد الرحمن الاول (الداخل) قد أمر بعدم الدعاء لبنى العباس منذ سنة ١٥٦ غير أنه لم يتخذ سمة الخلافة . ولم يكن لخلفائه من الجرأة أو الرغبة مايحملهم على منافسة بنى العباس فى شعار كان يعتبر ميراثا خالصا لهم كأبناء آل البيت ولأنهم كانوا يملكون الحرمين (٢) . ولكن تغيرت الحوادث الى عهد عبد الرحمن الناصر تغيرا يذكر فان دولة بنى العباس دخلت فى دور انحلالها واستبد موالى الترك بالامر وأصبح الخلفاء آلات فى أيديهم . واشتد ساعد العلويين فى افريقية وبلغ الناصر أن الخليفة المقتدر بالله العباسى قتله مولاه مؤنس المظفر سنة سبع عشرة وثلاثمائة فأباح لنفسه عندئذ أن يتخذ سمة الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين

(١) دوزى ج ٣ ص ٩٠ — ٩١

(٢) المسعودى على هامش نفح الطيب ج١ ص ١٩٩

عبد الرحمن الناصر لدين الله (١). فكان أول أمير من بنى أميـة بالاندلس اتخذ ذلك اللقب. وابتدأت الدعوة لبنى أمية بالقاب الخلافة فى الاندلس والمغرب الاقصى وضربت على السكة من أحد وجهيها سمة الخلافة (٢)

— ٣ —

اقتفى عبد الرحمن الناصر أثر عبد الرحمن الاول فى الاستئثار بالسلطة والاسترابة بالقبائل العربية ذوات العصبية فأقصى زعماءها عن مناصب الدولة وجمع كل مقاليد الحكم فى يده فلم يبق سلطة فعلية لحاجب أو وزير. وعهد بالمناصب الى رجال وضيعى المنبت من المعتقين والارقاء والاجانب: رجال لا ارادة لهم بل هم آلات خاضعة فى يده يرجعون اليه فى كل صغيرة وكبيرة. وكان يثق خاصة بالاجانب الذين يعرفون بالصقالبة والذين يبدأ نفوذهم من عهده

وقد كانت كلمة الصقالبة تطلق فى الاصل على الاسرى الذين يأسرهم الالمان من الامم السلافية ويبيعونهم لعرب اسبانيا. ولكنها بمضى الزمن صارت تطلق على جميع الاجانب الذين يخدمون فى القصر وفى الجيش مهما كانت جنسيتهم. وقد ذكر ابن حوقل الذى زار الاندلس فى القرن العاشر أنه

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص ١٩٠ و ج ٤ ص ١٣٧ — نفح ج ١ ص ١٦٥ — ابو الفداء ج ٢ ص ١٠٢. وذكر ابن الاثير (ج ٨ ص ١٧٨) وابن خلدون أن اتخاذ الناصر لسمة الخلافة كان سنة سبع وعشرين.

(٢) دوزى ج ٣ ص ٦

كان بين الصقالبة الذين يخدمون فى بلاط الخليفة المان وفرنسيون وجليقيون ولومبارد وروس . واذ كان معظم هؤلاء الصقالبة يؤتى بهم أطفالا بواسطة اليهود الذين يبيعونهم أو القرصان العرب الذين يخطفونهم فقد كانوا يعتنقون الاسلام واللغة العربية بسهولة ويربون تربية راقية حتى لقد نبغ بعضهم فى النثر والنظم . وقد فاق عددهم فى عهد الناصر أى عهد آخر فبلغ على قول المقرى ١٣٧٥٠ . وكان لهم نفوذ كبير وأملاك شاسعة وكان يعهد اليهم بأهم الوظائف فى الجيش والحكومة . وكان الناصر يرغم اشراف العرب ورؤساء القبائل ذوى النفوذ والعصبية على الخضوع لهؤلاء الصقالبة ويعاملهم بمنتهى الازدراء والشدة .

وقد أثارت هذه السياسة سخط القبائل العربية فترتب على ذلك انحلال الجيش فى أواخر حكم عبد الرحمن اذ كان سواد ضباطه من العرب وكان ذلك الانحلال كما رأينا من عوامل هزيمة المسلمين فى ألانديجا (١)

- ٤ -

كانت قاعدة الوزارة فى عهد بنى امية مشتركة فى جماعة يعينهم الامير للاعانة والمشورة ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصا لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه الحاجب .وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم متوارثة فى بيوت معلومة (٢).ولا تقتصر أعمال الوزارة على سياسة الدولة بل فى الغالب كانت تتناول الاعمال الحربية . وربما كان أنجب القواد هم

(١) دوزى ج ٣ ص ٦١ (٢) نفح ج ١ ص ١٠١

طائفة الوزراء مثل ابن مغيث وزير هشام بن عبد الرحمن والحكم المنتصر واحمد بن أبي عبيدة وزير عبدالله بن محمد . أما فى عهد الناصر فقد اتخذت الوزارة منزعا آخر فتولاها كتاب وشعراء مجيدون. وضعف أمر الحجابة لتولى الامير مقاليد الامور بنفسه . ولم يكن الوزراء أو الحجاب الى ذلك العهد قد اختصوا بشيء من النفوذ السياسى . ولكن نشأت فى أواخر عهد الناصر جراثيم طبقة الحجاب التى وثبت فيما بعد على ملك بن أمية واغتصبته . وتمخضت الثورة الفكرية والاجتماعية ـ التى ترتبت على بلوغ الدولة الاموية غايتها من الرفعة والحضارة ـ عن أفراد أولى اطماع وبأس تغلبوا فيما بعد على المقاطعات والمدائن المختلفة ليؤسسوا على انقاض الدولة المضمحلة دولا جديدة، وأولئك هم ملوك الطوائف. وكان أمراء بنى أمية يجمعون فى أشخاصهم صفتى الامارة والحكم فهم الامراء وهم الدولة . فلما تعاظم نفوذ الوزارة والحجابة وغشى نفوذ الامير لم يبق له سوى الامارة. وكان من حجاب عبد الرحمن الناصر موسى بن موسى بن يحيى . ومن وزرائه عبد الملك بن جهور بن عبد الملك . واحمد بن عبد الملك بن شهيد الذى أهدى له هديته المشهورة المتعددة الاصناف ذكرها بن حيان وغيره؛ وهى مما نقل من ضخامة الدولة الاموية واتساع أحوالها وذلك سنة ٣٢٧ هـ (١)

ـ ٥ ـ

كان من آثار هيبة عبد الرحمن الناصر فى نفوس ملوك النصرانية

(١) بن خلدون ج٤ ص١٣٨ ـ نفح ج١ ص١٦٦

وأمرائها أن توالت عليه وفودهم وسفاراتهم من أقاصى الدول فى طلب المهادنة والسلام والتحالف ففى صفر سنة ٣٣٦ ﻫ (٩٤٨م.)(١) وفدت عليه رسل قسطنطين السابع امبراطور القسطنطينية المعروف ببورفيرجنتوس بهدية ثمينة ،واحتفل الناصر بقدومهم فى يوم مشهود(هو السبت ١١ربيع الاول من السنة المذكورة) فركبت فيه العساكر بالسلاح فى أكمل شكل وزين القصر الخلافى بانواع الزينة وأصناف الستور ،وجمل السرير الخلافى بمقاعد الابناء والاخوة والاعمام والقرابة ورتب الوزراء والخدمة فى موقفهم ،ودخل الرسل فهالهم مارأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان(٢) وقدموا كتاب ملكهم قسطنطين السابع وهو فى رق ذى لون سماوى مكتوب بالخط الاغريقى وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ومكتوبة بنفس اللغة فيها وصف هدية الامبراطور التى أرسل بها، وعلى الكتاب طابع ذهبى على احدى وجهيه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الامبراطور قسطنطين مصنوعة من الزجاج الملون البديع. وكان فى ترجمة عنوانه فى سطر منه « قسطنطين ورومانين (٣) المؤمنان بالمسيح

(١) هذا قول ابن خلدون وذكر صاحب نفح الطيب عن ابن حيان مؤرخ الاندلس أنها سنة ٣٣٨ﻫ الموافقة لسنة ٩٥٠ من الميلاد

(٢) بن خلدون ج ٤ ص ١٤٢

(٣) هو رومانوس الثانى ابن قسطنطين السابع امبراطور القسطنطينية حكم من سنة (٩٥٩ – ٩٦٣ م)

الملكان العظيمان ملكا الروم » وفى سطر آخر « العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالاندلس أطال الله بقاه »(١) وأمر الناصر لدين الله أن يخطب الاعلام يومئذ فى ذلك المجلس ويعظموا من أمر الاسلام والخلافة ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه واعزازه وذلة عدوه فاستعدوا لذلك ثم بهرهم هول المجلس فوجموا وشرعوا فى القول فارتج عليهم.وكان فيهم أبو على القالى وافد العراق ندبه عبد الرحمن لذلك استثاراً بفخره فتعلثم وبهت .فقام عندئذ منذر ابن سعيد البلوطى من غير استعداد ولا روية ولا سابق توقع فالقى خطبة غراء أجاد فيها خير اجادة وأنشد شعرا طويلا ارتجله لذلك الغرض (٢) ففاز بفخر

---

(١) نفح ج ١ ص ١٧١

(٢) ننقل هنا نبذة من خطبة ابن سعيد فى ذلك اليوم فانها تتضمن وصفا تاريخيا بعهد عبد الرحمن الناصر . قال بعد الديباجة:

«وانى أذكركم بايام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التى لمت شعثكم وأمنت سربكم ورفعت قوتكم بعد أن كنتم قليلا فكثركم ومستضعفين فقوا كم. ومستذلين فنصركم .ولاه الله رعايتكم وأسند اليه امامتكم أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق وأحاطت بكم شعل النفاق حتى صرتم فى مثل حدقة البعير من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء وانتقلتم بيمن سياسته الى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاد أنشدكم بالله معاشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها والسبل مخوفة فأمنها والاموال منتهبة فأحرزها وحصنها ألم تكن البلاد خرابا فعمرها وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها ؟ »

ذلك المجلس وعجب الناس من شأنه أ كثر من كل ماوقع. وأعجب به الناصر

ثم قال «فأصبحتم بنعمة الله اخوانا وبلى أمير المؤمنين لشملكم على اعدائه أعوانا حتى توارت لديكم الفتوحات وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخير والبركات. وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم وآمال الاقصين والادنين مستخدمة اليه واليكم يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق »

ثم قال «فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لامامكم والتزام الطاعة لخليفتكم فان من نزع يدا من الطاعة وسعى فى تفريق الجماعة ومرق من الدين فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين. وقد علمتم أن فى التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها حفظ الاموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء وان بقوام الطاعة تقام الحدود وتوفى العهود ... فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به فانه تبارك وتعالى يقول (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم) وقد علمتم ماأحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصفوف الملحدين الساعين فى شق عصاكم وتفريق ملاكم الاخذين فى مخاذلة دينكم وتوهين دعوة نبيكم ....»

ومن شعر ابن سعيد فى وصف ذلك الاحتفال قوله .

مقالى كحد السيف وسط المحافل ... فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكى ترتمى جمراته ... كبارق رعد عند رعش الانامل
فما دحضت رجلى ولازل مقولى ... ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل
وقد حدقت حولى عيون أخالها ... كمثل سهام أثبتت فى المقاتل
لخير امام كان أو هو كائن ... لمقتبل أو فى العصور الاوائل
ترى الناس أفواجا يؤمون بابه ... وكلهم مابين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه ... مخافة باس أو رجاء لنائل
فعش سالما أقصى حياة مؤملا ... فانت رجاء الكل حاف وناعل

وولاه القضاء وأصبح من رجال الدولة المشهورين (١)

ولما انصرف رسل قسطنطين بعث الناصر معهم هشام ابن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف فرجع بعد سنتين وقد أحكم صلة الاميرين وعادت معه رسل قسطنطين

ثم توالت وفود ملوك النصرانية بعدئذ على عبد الرحمن فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ الملك بيتر (٢) ورسل ملك الالمان أوتو الاول (الكبير) (٣) ورسل ملك فرنسا فاحتفل لقدومهم كذلك. وبعث مع وفد الصقالبة ربيعا (ريفا) الاسقف الى ملكهم. وفي سنة ٣٤٤ جاء اليه رسول الفونسو الرابع ملك ليون في طلب السلام فاجابه اليه. ووفدت عليه طوطه أميرة نافار سنة سبع وأربعين فعقد معها السلم وأقر

ستملكها مابين شرق ومغرب الى درب قسطنطين أوأرض بابل

(١) بن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ — ٤٣ ولم نعثر في تواريخ الدولة البيزنطية على تفاصيل هذه السفارة. ولكن الروايات العربية واضحة جلية وقد أسهب المؤرخ الالماني يوسف أشباخ في ذكر تفاصيل هذه السفارات نقلا عن المؤرخ الاسباني كونده الذي نقلها عن صاحب نفح الطيب (اشباخ: تاريخ الامويين في اسبانيا ج ٢ ص ٩٥ — ١٠٠)

(٢) بيتر أو بطرس بن سيميون الكبير ملك بلغاريا ولم يكن بين الصقالبة مستقل سواها في ذلك الحين وكلمة الصقالبة تطلق عند العرب على سكان البلقان خلا البيزنطيين واليونان وتطلق كذلك على الروس والالمان — يوسف أشباخ ج ٢ ص ٩٩

(٣) دوزي ج ٣ ص ٥٨

ولدها على مملكة نافار كما تقدم. ثم وفدت عليه رسل الباباجون الثانى عشر في طلب المودة والتحالف فاجابه الى ذلك (١)

— ٦ —

أتقان البناء من شواهد التقدم والرقى ولا تنتج الابنية الفخيمة الشامخة الاحضارة ضخمة وشعوب لها شأن فى فنون الهندسة والعمارة ونزعة الى حسن الذوق . والعرب من أكثر الشعوب كلفا بتشييد الابنية والتفنن فى اتقانها وآثارهم فى كل قطر تشهد بما وصلوا اليه من التقدم فى ذلك الفن ، ولقد رأينا أمراء بنى أمية بالاندلس ينهجون ذلك المنهج فابتنى عبد الرحمن الداخل مسجده الكبير بقرطبة وشيد كل من الحكم المنتصر وابنه عبد الرحمن الاوسط وحافده الامير محمد قصورا منيعة بأكمل اتقان وفخامة كان منها المجلس الزاهر والبهو الكامل والقصر المنيف ـ ولم يكن عبد الرحمن الناصر أقل شغفا بالعمارة من أسلافه فلما استفحل ملكه وخيم السلام على ربوعه صرف عنايته الى اقامة المعاهد والآثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان ولقد أعرب عن ذلك فى أبيات قالها :

هم الملوك اذا أرادوا ذكرها　　من بعدهم فبألسن البنيان .
أو ماترى الهرمين قد بقيا وكم　　ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاظم شأنه　　أضحى يدل على عظيم الشان

---

(١) بن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

فابتنى الى جانب القصر الزاهر قصره العظيم وسماه دار الروضة وجلب الماء اليه من الجبل واستدعى نوابغ المهندسين والبنائين من كل فج فتوافدوا عليه واجتمع اليه أمهر صناع القسطنطينية وبغداد . ثم أخذ فى بناء المتنزهات وساق اليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر تشهد لمبتدعها بحسن المعرفة وسلامة الذوق ثم اختط مدينة الزهراء واتخذها قاعدة للملك بدلا من قرطبة

وكان البدء فى بناء الزهراء أول سنة خمس وعشرين وثلثمائة فاستمر الى نهاية عهد الناصر (سنة ٣٥٠ هـ) وتناول شطرا من عهد ابنه الحكم المستنصر . وقدر بعض المؤرخين النفقة على بنائها فى كل عام بثلاثمائة الف دينار . وبالغ الناصر فى تنميق حاضرته الجديدة وزخرفتها . وأحدث بها المهندسون من عجائب الصناعة العربية والبيزنطية والاغريقية ما يحار فيه العقل ويسحر الناظر . فمن أجمل ما صنعوه بها قناة يجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة الى قصر الناعورة على حنايا معقودة يجرى ماؤها الى بحيرة عظيمة قد أقيم عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صنع الملوك فى غابر الدهر مطلى بالذهب وعيناه جوهرتان لهما ضوء ساطع يجوز الماء الى مؤخره فيدفعه الى البحيرة من فيه فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وقد تم ذلك فى نحو عام فقط. وابتنى الناصر أيضا بالزهراء مسجده الباهر وكان يعمل فيه حين شرع فى بنائه

من حذاق الفعلة كل يوم الف نسمة فتم بناؤه فى خمسين يوم (١) وجاء غاية فى الاتقان والبهاء . وأنشأ بها مجالات الوحوش فسيحة البناء متباعدة السياج. ومسارح للطيور مظللة بالشباك واتخذ فيها دارا لصناعة آلات الحرب وغيرها من المهن (٢) . وذكر ابن حيان مؤرخ الاندلس أن مبانى الزهراء اشتملت على أربعه آلاف سارية ما بين كبيرة وصغيرة منها ما جاب من مدينة رومه ومنها ما أهداه امبراطور القسطنطينية. وأن مصاريع أبوابها كانت نيفا وخمسة عشرة الفا كلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه . وذكر آخر أن عدد الفتيان بالزهراء كان نيفا وثلاثة عشر الفا وعدد النساء والخدم بقصرها ستة آلاف وثلاثمائة وعدد الصبيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة (٣) وهى أرقام وأوصاف تنبىء عن اتساع ثروة الدولة الاموية بالاندلس وعظيم ما وصلت اليه من الجاه والبذخ

قال رينهارت دوزى فى ختام كلامه عن عبد الرحمن الناصر: « لقد كانت هذه نتائج باهرة ولكننا نجد اذا مادرسنا ذلك العهد الزاهر أن الصانع يثير الاعجاب والدهشه أكثر مما يثيرها المصنوع . تثيرها تلك العبقرية الشاملة التى لم يفلت شىء منها والتى كانت تدعو الى الاعجاب فى تصرفها نحو الصغائر كما تدعو اليه فى أسمى الامور .

(١) نفح ج ١ ص ٣٦٤
(٢) بن خلدون ج ٤ ص ١٤٤
(٣) نفح ج ١ ص ٣٦٥

ان ذلك الرجل الحكيم النابه الذى استأثر بعقاليد الحكم وأسس وحدة الامة ووحدة السلطة معا وشاد بواسطةمماهداته نوعامن التوازن السياسى، والذى اتسم تسامحه الفياض لان يدعو الى نصحه رجالامن غير لمسلمين لا جدر بأن يعتبرقرينا لملوك العصر الحديث لاخليفة من خلفاء القرون الوسطى»(١)

وتوفى الناصر لدين الله فى شهر رمضان سنة خمسين وثلثمائة (١٦ اكتوبر سنة ٩٦١ م) فى السبعين من عمره نخلفه ابنه الحكم الملقب بالمستنصر بالله

(١) دوزى ج ٣ ص ٩٣ ـ ٩٤

الفصل الرابع

الحكم المستنصر بالله

٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ : ٩٦١ ـ ٩٧٦ م

(١) ولاية الحكم . محاربته اردونيو ملك أمير قشتاله . هزيمته للنصارى . استيلاؤه على سنت أستيفان وسبانقاوزامورا. محاربته لنافار والنورمان .(٢) التحالف بين الحكم وبين ملوك الشمال (٣) حروب الحكم في المغرب الاقصى . هزيمة جيشه . استئناف الحرب . هزيمة البربر . استيلاء الحكم على فاس (٤) الآداب في عصر الحكم

١ ـ كان عبد الرحمن الناصر آخر عظيم من ملوك بني أمية بالاندلس وعهده كما قدمنا ذروة مجدهم ورفعتهم . ولم يكن ابنه الحكم ضعيفا في ادارة المملكة أو مقصرا في تحمل تبعاتها ولكنه كان مشغولا عن مجد الحرب وفخار الظفر بالآداب وتشييد الابنية وتنميقها . على انه لم يهمل في الوقت ذاته أمر العناية بتوطيد دعائم المملكة ورعاية شئونها

وفي مبدأ ولايته ثارت الحرب بين النصارى والمسلمين . ولم يكن المعتدي في تلك المرة ليون فانها حافظت على الصلح الذي عقدته .ولكن الحرب نشبت بين الخليفة وبين فردينا ند كونزالز أمير قشتاله . وكان الكونت قد انفصل عن ليون وكاد يستقل بأمارة قشتاله . وكانت صداقة ليون للخليفة الاموى سببا في العداء بين المسلمين والكونت فهرع الى لوائه كثير من النصارى المتعصبين فنما بذلك جيشه واشتد بأسه ولم يكن

فرديناند يخشى هجوما لجاثيا لمناعة قلاعه وحصونه الواقعة على الحدود ولـكنه كان يطمح الى توسيع أملاكه فأخذ فى يده ولاية الحكم يغير على الاراضى الاسلامية . وقد أغضى الحكم عن ذلك حينا لتخوفه من عاقبة الحرب . ولـكنه لما رأى تمادى الـكونت فى عدوانه تأهب للحرب وسار الى طليطلة وأعلن الجهاد فاجتمعت اليه الجيوش هنالك فسار فى اتجاه نهر الدورو (دويره) لملاقاة الـكونت وحاصر قلعة سانت استيفان وهنا لك أشرفت عليـه جيوش قشتاله . ويقول مؤرخو العرب ان الحكم هزم النصارى هزيمة فادحة وأسر منهم جموعا كبيرة (١) واستولى على سنت استيفان وسيانقا وقاوقة وأوسما وكلونيه بل يقولون انه استولى على زامورا أمنع قلاع النصارى على نهر الدورو وخرب قلاعها . ثم عاد الى قرطبة مثقلا بالغنائم. واتخذ من الموقعة سمته (المستنصر بالله)(٢) وافتتح غالب مولاه مدينة سالم عاصمة جليقية . وهزم الجلالقة فى أشنة وكان سانكو ملك نافار قد أغار على الحدود الاسلامية نا كثا العهد فسار لقتاله يحي التجيبي حاكم سرقسطة . وتحالف الجلالقة والنافاريون فهزمتهم جيوش الحكم (٣) وامتنعوا بمدينـة قورية . وأرسل الحكم جيوشا

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

(٢) أشباخ ج ٢ ص ١٣٣

(٣) يضع مؤرخو الافرنج تاريخ هذه الحروب ما بين ٩٦٣ و ٩٦٥ م ويقولون أن الحرب لم تنشب بين الحكم وبين ملك ليون خلافا للرواية العربية (أشباخ ج٢ ص١٣٥)

أخرى الى برشلونة وألبة والقلاع لماقبة الثوار والعصاة وتأييـد السلام والامن فنفذت مهمتها بنجاح ولا سيا فى نافار حيث استولى غالب على قلمرية أعظم حصونها وافتتح حاكم وشقة حصن قطوبية. وفى هذا الوقت ظهرت سفن النورمان مرة أخرى فى مياه لشبونة ، وعاث القرصان فسادا فى ثغور الشاطىء فقاتلهم الجنـد والسكان حتى وصل الاسطول الذى أرسله الحكم بقيادة أمير البحر عبـد الرحمن بن رماحس ففر النورمان حين قدومه (١)

٢ ــ وفى سنة احدى وخمسين وثلثمائة وفد على الحكم أردونو الثالث ملك ليون ليجدد التحالف الذى عقده مع الناصر فاستقبله الحكم استقبالا عظيما أفاض فى وصفه مؤرخو الاندلس (٢) ورضى محالفته على أن يساعد الجيوش الاسلامية فى غزواتها لثوار المقاطعات الشمالية ، وأن يقاطع صهره فرديناند أمير قشتاله . وفى وصف ذلك الاحتفال يقول ابن سعيد المرادى من قصيدة طويلة :

ملك الخليفة آية الاقبال — وسعوده موصولة بنوال
القت بأيديها الاعاجم نحوه — متوقعين لصولة الرئبال
هـذا أميرهم أتاه آخذا — منه أواصر ذمة وحبال
متواضعا لجلاله متخشعا — متبرعا لما يرع بقتال

(١) بن خلدون ج ٤ ص ١٤٥
(٢) نفح ج ١ ص ١٨٢

سينال بالتأميل للملك الرضا عزايم عـداه بالاذلال

ثم وفد على الحكم سانكو ملك نافار ليجدد محالفته مع الناصر فقبل الحكم ذلك بشروط منها أن تهدم الحصون والابراج القريبة من ثغور المسلمين (١). ثم وفد عليه باقي أمراء المقاطعات النصرانية وأحالفتها فحالفهم أيضا. وبذلك خيم الامن والسلام حينا على ربوع الاندلس ووضعت تلك المعاهدات حدا مؤقتاً للصراع المستمر بين المسلمين والنصارى

٣ — وفي ذلك الحين حدثت بالمغرب الاقصى حوادث هامة. وكان الامير حسن بن كنون آخر ملوك الادارسة حلفاء الناصر قد نكث عهد أسرته حين تغلب العبيديون على أفريقية وحالفهم فلما سار جوهر الصقلي قائد العبيديين الى مصر عاد الى محالفة الناصر ثم حالف ابنه الحكم بعد وفاته. فلما ثار بلكين بن زيرى أمير صنهاجة احدى القبائل البربرية الكبيرة ذات العصبية والبأس وزحف من أفريقية الى المغرب وأخضع الادارسة وزناتة وقطع دعوة الامويين من المغرب تقدم الحسن بن كنون الى طاعته نابذا طاعة الامويين. وعلم الحكم المستنصر بذلك فلما عاد بلكين الى أفريقية أرسل قائده محمد بن القاسم بن طلمس في جيش ضخم كامل الاهبة الى قتال الحسن بن كنون. فعبر البحر من الجزيرة الخضراء الى سبتة سنة ٣٦٢ هـ وزحف الحسن لقتاله في جيش من البربر فالتقيا بموضع يعرف بفحص بني مصرخ بجوار طنجة ونشبت بين الفريقين معركة هائلة

(١) ابن خلدون ن ٤ ص ١٤٥

قتل فيهـا محمد بن القاسم قائد الحـكم وقتل من جنده عدد جم وفر الباقون الى سبتة وتحصنوا بها وكتبوا الى الحـكم يستغيثون به فأرسل اليهم غالبا أكبر قواده فى جيش عظيم وزوده بعدة وأموال كثيرة وأمره بقتال الادارسة واستئصال شأفتهم

فخرج غالب من قرطبـة فى آخر شوال سنة ٣٦٢ هـ ونمـا الخبر الى الحسن بن كنون فخاف منه وأخلى مدينة البصرة ونقل أمواله وذخائره الى قلعة حجر النسر القريبة من سبتة . وعبر غالب البحر الى قصر مصمودة فلقيه الحسن فى جموع البربر وتقاتل الفريقان أياما . واستمال غالب رؤساء البربر بالاموال والوعود فخرجوا على الحسن . وألفى الحسن نفسه مخذولا فلجأ الى قلعة حجر النسر حيث حاصره غالب بجميع جيوشه وقطع علائقه مع الخارج . وأمد الحـكم قائده بجيش آخر سنـة ٣٦٣ هـ . فلما اشتـد الحصار على الحسن أذعن لطلب الامان والسفر الى قرطبة بماله وأسرته فرضى غالب بذلك ، وفرق جيشـه فى البلاد لاخضـاع العلويين وقطع دعوتهم . وسار الى مدينة فاس فامتلـكها وأضافها الى أملاك بنى أمية . ثم عاد الى قرطبه فى أوائل سنـة ٣٦٤ هـ . وعفـا الحـكم عن الحسن بن كنون وأسـكنه قرطبة . ثم أقصاه عنها سنة ٣٦٥ هـ فوفد على المعز الفاطمى وهو يومئذ أمير المصر(١)

(١) الاستقصاء فى أخبار دول المغرب الاقصى ج ١ ص ٨٧ — ٨٨ — ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ و ج ٦ ص ٢١٧ — ٢١٨

٤ . ـ وفى عهد الحكم زهت الآداب والعلوم. وكان الامير نفسه اماما لتلك النهضة فافتتح معاهد العلم والتربية وأنشأ المكاتب العامة بقرطبة وغيرها من عواصم الاندلس . وكان اهتمامه شديدا باقتناء الكتب فكان يبعث فى طلبها من جميع الاقطار ولا سيما بغداد والقاهرة ودمشق مهاد الآداب والعلوم العربية فى المشرق ويبذل من أجل ذلك أموالا طائلة حتى جمع منها ما لم يجتمع لدى غيره من الخلفاء أو أمراء المسلمين الى عهده. قال ابن حزم أخبرنى تليد الخصى أمين خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان أن عدد الفهارس اربع واربعون فى كل منها عشرون ورقة مخصصة لذكر أسماء الدواوين وحدها (١) وقدر بعض المؤرخين مكتبة الحكم بستمائة الف مجلد. وكان بعواصم الاندلس الاخرى نيف وسبعون مكتبة(٢). ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى أن بيع أكثرها فى حصار البربر بأمر الحاجب واضح من موالى المنصور بن عامر ونهب ما بقى منها عند اقتحام البربر لقرطبة كما سنذكر بعد

وكان الحكم نفسه عالما بارعا فى التاريخ والشريعة ، مولعا بتشجيع العلماء والمصنفين (٣) ، مجيدا فى النظم والنثر . فمما ينسب اليه من النظم قوله :

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ (٢) جيبون عن ليون لافريقى ودرينول: الفصل الثانى والخمسين (٣) مما يؤثر عن الحكم فى ذلك انه دفع فى نسخة من كتاب الاغانى الى مؤلفه ابى الفرج الاصفهانى الف دينار من الذهب. ووفد عليه ابو على القالى من بغداد فأكرم مثواه وحسنت منزلته عنده. والف كتبه بقرطبة وأورث أهل الاندلس علمه (ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦)

الى الله أشكو من شمائل مسرف — على ظلوم لا يدين بما دنت
نأت عنه داری فاستزاد صدوده — وانی علی وجدی القدیم كما كنت
ولو كنت ادری أن شوقی بالغ — من الوجد ما بلغته لم اكن بنت

وقوله :

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت — وكيف انثنت بعد الوداع يدى معى
فيا مقلتی العبری علیها اسكبی دما — ويا كبدی الحری علیها تقطعی

وتوفى الحكم بقصره بقرطبة ثانی صفر سنة ست وستين وثلثمائة ـ ٩٧٦ م وكانت خلافته ستة عشر عاما الا بضعة اشهر

نبذة
فى تاريخ نصارى الشمال
- ٢ -

(١) الحرب الاهلية فى ليون . ولاية رامبرو الثانى (٢) الثورة فى قشتالة. الحرب بينها وبين ليون . هزيمة قشتالة وأسر أميرها . عودة الحرب الاهلية. ولاية اردونو الثالث . الصلح بين الناصر وملك ليون (٣) اضمحلال الشمال وتفرق النصارى .

١ ــ استفادت الامارات النصرانية الشمالية من تضعضع حكومة قرطبة واضطرام الثورة فى أنحاء الاندلس فى أواخر القرن التاسع فاشتد ساعدها ونمت مواردها وثبتت حدودها وتوطدت حكوماتها.ولم تأت فاتحة القرن العاشر حتى كانت مملكة ليون التى بسطت سلطانها على قشتالة وجليقية تهدد وجود المملكة الاسلامية فى عهد ملكها الفونسو الثالث. ثم نشط خلفه أردونو الثانى لمحاربة المسلمين وغزا الولايات الاسلامية مراراً . فحاربه عبد الرحمن الناصر حتى أخضعه بعد معارك طويلة لبثت أعواما عديدة

فلما توفى أردونو الثانى سنة ٩٢٥ م خلفه فى الملك أخوه فرويلا ولم يحكم سوى عام . ثم توفى فتنازع العرش سانكو والفونسو أبنا أردونو وفاز به الفونسو بمعاونة صهره وحميه سانكو ملك نافار . ولكن سانكو لم ييأس فجمع جيشاً جديدا وتوج نفسه ملكا فى (سان جاك) ثم زحف على ليون فحاصرها واستولى عليها وأقصى أخاه عن العرش . فعاد ملك نافار

الى مساعدة صهره واستولى الفونسو على العاصمة ثانية . ولـكن أخاه سانكو ظل محتفظا بولاية جليقيه .

ولم يتدخل الناصر فى تلك الحرب الاهلية فترك النصارى يمزق بعضهم بعضا وانتهز الفرصة ليتمم سحق الثورة والقلاقل داخل مملكته وليقضى على دعوة الفاطميين فى المغرب الاقصى .

واستمرت الحرب الاهلية بين النصارى فانتهى طورها الاول بوفاة سانكو بن اردونو سنة ٩٢٩ . ثم بدأت طورها الثانى سنة ٩٣١ وفي تلك السنة توفيت زوجة الفونسو الرابع (ملك ليون) فكاد يجن حزنا لفقدها . وتنازل عن العرش لاخيه راميرو ثانى ملوك ليون بهذا الاسم واعتنق الرهبانية . ولكنه عافها بعد قليل فترك الدير ونادى بنفسه ملكا فى سيمانقا . وكان عمله فى نظر الرهبان عاراً كبيراً فثاروا عليه دعوة شديدة فعاد الى الرهبانية . ولكنه مالبث أن انتهز فرصة ذهاب أخيه راميرو الى نجدة ثوار طليطلة فغادر الدير وسار الى ليون واستولى عليها فعاد راميرو مسرعا وحاصر أخاه فى ليون واستولى عليها بدوره . ثم أراد أن يضع حداً لمساعى الفرنسو فسمل عينيه وكذلك سمل أعين أبناء عمه الثلاثة وهم أولاد فرويلا الذين اشتركوا فى الثورة عليه سنة ٩٣٢ م

وكان راميرو الثانى (أو رذمير) كما قدمنا ملكا شجاعا مقداما وكان يبغض المسلمين أشد البغض فلم يتوان قط فى محاربتهم أومساعدة الخارجين عليهم . وفى سنة ٩٣٦ م لاقى جيوش الناصر بالقرب من سيمانقا وهزمه فى

الاندلسيا (الخندق) هزيمة فادحة كان لوقعها دوى عظيم فى المشرق وأوربا

٢ ـ ولكن راميرو لم ينتفع بثمرة ذلك النصر الكبير لأن الحرب الاهلية نشبت ثانية بين النصارى ، وذلك أن قشتالة (قسطيله) وهى احدى ولايات ليون كانت تطمح الى الانفصال عنها ، وقد ثارت فى عهد أوردونو الثانى ابى راميرو فاحتال أردونو وقبض على زعمائها وأعدمهم، فهدأت قشتالة حينا لتجردها من زعمائها ولكنها لبثت تتحين الفرصة للانتقام من ليون

وعرضت هـذه الفرصة والفت قشتالة بطلها المنتقم فى شخص الكونت فرديناند كونزالز الذى كانت حيـاته مستقى لخيال شعراء القرون الوسطى. ولم يفكر الكونت فى تحرير بلاده طالما كانت جيوش الناصر تعيث فى بلاد النصارى وتنهب الاديرة وتحرقها . ولكنه عقب موقعة الخنـدق رأى أن ليس ثمـة ما يخشى من العرب بعـد ، وأن الفرصة قد سنحت لتحقيق مشروعه فأعان الحرب على راميرو .واستفاد الناصر من ذلك ليعيد تنظيم جيشه .وفى شهر نوفمبر سنة ٩٤٠ م استطاعت جيوشه بقيادة حاكم بطليوس أن تقتحم حدود ليون

ولما نشبت الحرب بين قشتالة وليون هزمت قشتالة وانتصر راميرو وأسر عدوه فرديناند وسجنه فى ليون ومنح ولاية قشتاله الى آسور فرناندز كونت مونزون .ثم منحها بعد ذلك لابنه سانكو وأحسن معاملة القشتاليين .ولكن ذلك لم يخمد من نيران وطنيتهم فظلوا مخلصين لأميرهم المأسور . ولما طال أسره ثاروا وزحفت قواتهم على ليون فخشى راميرو

عاقبة الامر فأطلق سراح فرديناند بشروط فادحة هى ان يقسم يمين الطاعة ، وأن يتنازل عن كل أملاكه وأن يزوج ابنته أوراكا بأردونو ابن راميرو ،فقبل الكونت ذلك كرها وظل أهل قشتالة ناقمين من ليون ففقد راميرو بذلك مساعدة أمهر قواده وأشجع جنده . واضمحلت قواه العسكرية واستطاع المسلمون أن يغيروا مرارا على أملاكه فيما بين سنتى ٩٤٤ و ٩٤٧ وأن يشيدوا قلاعا حصينة فى مدينة سالم التى صارت منذ ذلك العهد حصنهم ضد قشتاله . وا كتفى الظافر فى (سيمانقا) (والاندىجا) أن يلتزم خطة الدفاع

وفى مبدأ سنة ٩٥٠ م توفى راميرو الثانى ، فنشبت الحرب الاهلية مرة أخرى بسبب وراثة العرش . وذلك أن أردونو أعقب من زوجته الاولى ولده أردونو ومن زوجته الثانية أوراكا أخت جارسيا ملك نافار ولدا آخر هو سانكو . فادعى أردونو العرش باعتباره أكبر الاخوين ولكن سانكو نازعه فى ذلك معتمدا على مؤازرة أخواله النافاريين وحاول أن يجتذب الى جانبه فرديناند كونزالز وأهل قشتالة . وكان فرديناند لا يميل الى مساعدة أردونو بالرغم من أنه زوج ابنته اذ كانت المصاهرة قهرية كما تقدم وفضل مساعدة سانكو وهو ابن اخته، وقد وعده وعودا خلابة منها أن يرد اليه أملاكه وكذلك امارة قشتاله . فحشد فرديناند جنده وسار مع جيش من البشكنس وجند سانكو الى ليون ولكن أردونو الثالث هزم أعداءه، وسحق الخارجين عليه . على انه كان

يخشى بأس المسلمين الذين انتهزوا فرصة الحرب الاهلية فعاثوا مرارا فى أملاكه فاعتزم الصلح معهم وأرسل سفيرا الى قرطبة سنة ٩٥٥ يطلب الصلح من الخليفة ، فأجابه الناصر الى دعوته وأرسل فى السنة التالية سفيره محمد بن حسين الى ليون فعقد مع أردونو معاهدة صادق عليها . وفيها تعهد أردونو بأن يصلح بعض القلاع وأن يهدم البعض الاخر . ولكن سانكو منافس أخيه رفض المعاهدة وحال دون تنفيذها ، فاضطر الناصر الى الحرب وبعث حاكم طلطيلة احمد بن يعلى الى ليون فحاربها وهزم جيوشها وعقد الصلح ثانية ثم استقرت علائق السلم

٣ . — ولما توفى الناصر حافظت ليون ونافار على عهدهما ولم يتحرك من نصارى الشمال سوى فرديناند أمير قشتالة . ولكن الحكم هزمه فى سنت استيفان كما تقدم وترجم هزيمة النصارى فى تلك المرة الى عدة عوامل منها أن ملك ليون كان يشتغل وقتئذ بمحاربة النورمان الذين هبطوا الى جليقية فضلا عن أنه كان مرغما أن يعتبر اهل قشتالة عصاة ثائرين طبقا لماهدته مع الحكم . بل لقد كان يحارب فى صفوف المسلمين الكونت فيلا أمير آلفا (البة) المنفى وكان يستعمل منتهى القسوة فى محاربة أبناء دينه طلبا للانتقام . على أن أهم سبب فى ضعف قشتالة هو أنها قبيل محاربتها للحكم كانت تحارب نافار وأن جارسيا ملك نافار انتصر على الكونت فردیناند وأسره ، بل من المرجح أن الكونت كان أسيرا حينما هزم العرب جيشه[١]

(١) أشباخ ج ٢ ص ١٣٤

ولا ريب أن لفقد الزعيم فى مثل ذلك العهد الذى كانت تتوجه فيه كل الاعمال نحو فكرة الاستشهاد والبطولة أثر عظيم فى قوى الدولة . لذلك استطاعت جيوش الحكم أن تهزم جيوش أوردا كا الذى كان يحكم قشتالة فى غياب الكونت

وقد كان ذلك النصر سببا فى ارتياع النصارى جميعا فقد خشيت كل ولاية وكل امارة أن يصيبها ما أصاب قشتالة فاطلق ملك نافار سراح فرديناند وتحالف الاثنان مع كونت برشلونة على المسلمين . ولكن ملك ليون ظل بعيداً عن ذلك التحالف محافظا على عهده مع الحكم

وكان مثل فرديناند كونزالزواستقلاله بقشتالة داعيا الى الاضطراب فى باقى ولايات ليون فثار حاكم جليقية جونديزالفوس وانضمت اليه لاميجو وفيزوى وقوامبره . وفى ذلك الحين توفى سانكو ملك ليون — الذى خلف أخاه أردونو الثالث — مسموما بعد أن حكم اثنتى عشرة سنة. وكان من بين النصارى اللاجئين الى قرطبة أردونو الرابع بن ألفونسو الرابع فسار الى قشتالة ليستعين بأميرها على محاربة راميرو الثالث الذى ارتقى عرش ليون . ثم فاوض الحكم فى أن يترك التحالف مع قشتالة وأن يعترف بسيادته اذا نصره على راميرو . ولكن راميرو كان أكثر دهاء. فبعث رسله الى الحكم يعرض عليه بعض الحصون نظير تجديد المعاهدة التى عقدت مع سلفه فرضى الحكم بذلك وتعاهد مع ملك ليون كما تعاهد مع باقى الولايات النصرانية وسادت السكينة حينا فى الولايات الشمالية

الكتاب الثالث

اضمحلال الدولة الاموية وسقوطها

الفصل الاول

دولة بني عامر

الحاجب المنصور ـ عبد الملك المظفر ـ عبد الرحمن الناصر لدين الله

سنة ٣٦٦ ـ ٣٩٩ هـ ـ ٩٧٦ ـ ١٠٠٩ م

(١) ولاية هشام بن الحكم . وصاية أمه صبح عليه . محمد بن أبي عامر . نشأته . تولية صبح له (٢) حجب ابن أبي عامر لهشام . استئثاره بالسلطة والحكم . سحقه لخصومه . اتخاذه لقب المنصور (٣) محاربة المنصور لنصارى الشمال . غزوه ليون . الحرب الاهلية في ليون . فوز برمود وتحالفه مع المنصور . غزو المنصور لكاتالونيا وافتتاحه لبرشلونة . هزيمته لامير قشتالة (٤) الحرب في المغرب الاقصى . محاربة المنصور للحسن بن كنون . هزيمة الحسن ومقتله . ولاية زيرى لحكومة المغرب (٥) استئناف الحرب في ليون . استيلاء المنصور على كو امبره. هزيمة البشكنس للمسلمين واستعادة الفرنج لبرشلونة . غزو ليون واقتحامها . استيلاء المنصور على ليون وزامورا. التآمر على المنصور . استئناف الحرب في قشتالة . هزيمة جارسيا فرديناند ومقتله (٦) الصراع بين المنصور وصبح . الحرب بين زيرى والمنصور . فوز زيرى . عبور عبد الملك المنصور الى مراكش . محاربته لزيرى . هزيمة البربر . عودة زيرى الى الطاعة (٧) غزوة سانتياجو . موقعة كالاتنزور . آخر غزوة للمنصور. وفاته في مدينة سالم (٨) أخلاق الحاجب المنصور وصفاته (٩) ولاية عبد الملك المظفر (١٠) ولاية الناصر بن المنصور . اغتصابه لولاية العهد من هشام

١ . ـ عقبت نهضة الناصر الحربية فى عهد ابنه الحكم فترة سكينة وسلام ولكن عهد الفتح فى ظل الخلافة الاموية لم ينقض بعد

ترك الحكم العرش لهشام ابنه الوحيد ،وهو طفل لم يجاوز الحادية عشرة (١) فلم يمنع ذلك من مبايعته بالخلافة بعد ثلاثة أيام من وفاة ابيه. ولقب بالمؤيد بالله . ورأس احتفال البيعة الحاجب (٢) جعفر بن عثمان المصحفى وزير الحكم ، ومنحت الوصاية عليه لأمه صبح (٣) ، التى كانت تدير شؤون الحكومة قبل ذلك بعشر سنين بتغلب نفوذها على الحكم، على انها كانت حازمة نافذة العزم ، فأظهرت مهارة فائقة فى تدبير الامور بمساعدة الحاجب جعفر ، وكان مستشارها الامين والمتسلط على ارادتها رجل جعلته صفاته العالية فى نظرها موضع الثقة والاعتبار، فله فى الحروب براعة وبأس ، وفى الادارة نباهة وحزم ، وقد اكتسب محبة الشعب وثقة

---

(١) ذكر المقرى ان عمره كان تسع سنين فقط (ج ١ ص ١٨٥) وذكر ابن خلدون انه كان قد ناهز الحلم (ج ٤ ص ١٤٧)

(٢) أوضحنا معنى لقب الحاجب فى حكومة الاندلس وعينا اختصاصه بالاختصار ونزيد هنا ان مايماثل منصب الحاجب فى الانظمة السياسية الحديثة هو منصب رئيس الوزارة وربما كانت مقارنته أصح «بالمستشار » فى الجمهورية الالمانية. وسنرجع الى ايضاح ذلك فى فصل قادم

(٣) صبح أو صبيحة فى تواريخ الافرنج أو اورور (Aurore) (الفجر) كما يسميها بعضهم . وهي نصرانية نافارية

الحكومة وتعضيد زعماء الدين برقته ودعته ونبل أخلاقه (١)

واسم هذا الرجل محمد بن عبد الله بن أبي عامر ، وينتمي نسبه الى عبد الملك بن عامر المعافري الذي وفد على الاندلس مع طارق بن زياد ، وأصله من الجزيرة الخضراء من قرية من أعمالها تسمى طرش (توركس) ولد بها سنة ثلثمائة وسبع وعشرين من الهجرة (٩٣٩ م) ثم قدم الى قرطبة شابا ودرس في معاهدها درسا مستفيضا فبرع في العلوم والآداب والشريعة وكان طموحا تحدثه نفسه بادراك المعالي فلما اظهرت آيات نجاحه وبراعته بقرطبة عينته صبح أمينا لشئونها (سكرتيرا) وأوصت به زوجها الحكم فولاه القضاء وظل يرتقي في مناصبه حتى عين رئيسا للزكاة والمواريث باشبيلية. وتمكن في قلب السيدة بما استمالها به من التحف والاخلاص والتفاني في خدمتها (٢) ولم يقصر مع ذلك في طاعة الحاجب جعفر المصحفي. ثم عينته صبح حاجبا لها وأولته ثقة لاحد لها . ولما توفي الحكم رأت أن تضع في يده مقاليد الحكم فلم يعترض عندئذ أحد من رجالات الدولة على ذلك الاختيار الذي أعجبت به الامة قاطبة سوى الحاجب جعفر ، فقد

---

(١) يوسف كوندى — تاريخ دولة العرب في أسبانيا — ج ٢ ص ١

(٢) ذكر المقرى عن ابن حيان وغيره أن السبب في وقوع اختيار صبح عليه أنه بعد أن أتم دروسه في قرطبة اتخذ دكانا عند باب القصر الملكي يكتب فيه لمن يعن له من الخدم والمرافعين للسلطان الى أن طلبت صبح من يكتب عنها فعرفها به من كان يأنس اليه الجلوس من فتيان القصر فاستحسنته وعينته أمينا لشئونها كما تقدم

كان يرى فى تولية هذا الرجل افتياتا على حقوقه ونكرانا لجميله (١)

٢ . ـ وكان الامير الفتى ميالا بطبيعته الى اللهو والدعة ولم تكن له أية صفة سامية مما يؤهل عظماء الرجال لان يكونوا فاتحين أو مصلحين، فكان يلزم القصر أو الحدائق ويقضى أيامه فى لهو ومسرة محاطا بالخصيان وآلات الطرب . وكان لابن أبى عامر مطامع خفية تسترها صفات النبل التى اجتذب بها قلب الملكة والامة فحجر على هشام منذ ولايته بحيث لم يره أحد من رجال الحكومة أو الشعب أو يستطيع مخاطبته، وكان يحمل الملكة بدهائه وقوة عزيمته على أن تخلق الاعذار لحجب ولدها حتى لم يبق من سلطة هشام المؤيد أو الخلافة الاموية سوى الاسم فقط (٢)

(نفح ج ١ ص ١٨٧) . ويرتاب دوزى فى أنه كان بينهما علائق غرامية (ج ٣ ص ١٧٠) . وهو ريب يؤيده تصرف صبح واستسلامها الى ابن أبى عامر وتسليمها اياه مقاليد الحكم وعبثها بحقوق ولدها هشام

(١) كوندى ج ٢ ص ٢ (٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ -- ويقول المقرى نقلا عن بعض مؤرخى الاندلس: «حجر المنصور بن أبى عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولى الحجابة . وربما أركبه بعض سنين وجعل عليه برنسا فلا يعرف. واذا سافر وكل به من يفعل به ذلك » (ج ١ ص ٢٧٦) ـ وذكر المؤرخ يوسف كوندى أن فارسا يدعى سابور وهو حاكم ماردة قدم ليشاهد حفلة تتويج هشام فلم يستطع أن يراه أو يخاطبه (ج ٢ ص ٢) وذكر دوزى أن المنصور كان يحجب هشام فى سفره وتنقله . وكان اذا اخترق شوارع قرطبة أو غيرها يسير موكبه بين صفوف متلاصقة من الجند تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه (ج ٣ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠)

«ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم وحطهم عن مراتبهم وقتل بعضها ببعض، كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصل شأفتهم ومزق جموعهم» (١). وكانت أول خطوة اتخذها فى ذلك السبيل قتل المغيرة بن عبد الرحمن الناصر أخى الحكم، قتله ليلة البيعة لهشام بمالأة الحاجب جعفر. وكان حموه غالب مولى الحكم وصاحب مدينة سالم عندئذ قد أثار عليه دعوة شديدة وألف ضده حزبا قويا لحماية الخليفة ثم أعلن الثورة وحشد الجند واستعان بملك ليون فتأهب ابن أبى عامر لقتاله ونشبت بين الفريقين معارك عديدة ثم اشتبكا فى معركة فاصلة فهزم غالب وقتل (سنة ٩٨١ م). ثم حمل الحاجب جعفر على نكبة الصقالبة الخصيان بالقصر فنكبهم وشردهم وكانوا ثمانمائة أو يزيدون. وقد ذكرنا ان ابن أبى عامر كان يخدم الحاجب المصحفى قبل ان يتولى مقاليد الملك وأن الحاجب كان أشد المعارضين لولايته وكان التنافس شديداً بين الرجلين فما زال ابن أبى عامر يتربص لمنافسه حتى قبض عليه وأودعه سجن الزهراء فلبث فيه حتى مات، ثم أخذ بعد ذلك فى قتل من يخشى مقاومتهم من بنى أمية أو غيرهم من زعماء القبائل ويظهر انه يفعل ذلك حماية للمؤيد وشفقة عليه حتى أفنى من يصلح منهم للولاية والرآسة ثم شرد باقيهم فى البلاد وجردهم من الاموال وفى ذلك يقول ناقم منه :

أبنى أمية أين أقمار الدجى منكم وأين نجومها والكوكب

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧

غابت اسود منكم عن غابها فلذاك حاز الملك هــذا الثعلب

ولما خلا الجو لابن أبي عامر من أولياء الخلافة والمرشحين للرآسة اهتم بتنظيم الجيش فانشأ صفوفا جديدة من المرتزقة من زناته وصنهاجة وغيرهما من قبائل البربر ومن جنــد النصــارى من ليون وقشتالة ونافار وبذل لهم الاجور العالية واستأسر قلوبهم بعدله ورفقه ولينه ، وغير أنظمة الجيش فقدم رجال البربر وأخر زعمـاء العرب وأقصاهم عن مناصبهم وفرق جند القبيلة الواحدة فى صفوف مختلفة وكانوا قبل عهده ينتظمون فى صف واحــد وكان العرب يتمسكون بوحدة القبيلة لان العصبية فى قبائلهم كانت لا تزال فتية متينة ولــكن الثورة التى أحدثها ابن أبى عامر فى أنظمة الجيش لم تلق كبير معارضة لضعف العصبية وانحلالها منذ عهد الناصر (١)

وفى سنة ثمان وستين وثلثمائة أمر ببناء مدينته المعروفة بالزاهرة فى ضاحية قرطبة على شاطئ النهر (الوادى الـكبير) ونقل اليها خزائن الاموال والاسلحة ودوائر الحكومة، وجعل حاشيته من البربر والصقالبة ، واتخذ سمة الملك وأمر ان يحيى بتحية الملوك، وتسمى بالحاجب المنصور، ونفذت الـكتب والاوامر والمخاطبات باسمه وأمر بالدعاء له على المنابر ، ونقش اسمه فى السكة (٢)

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ — دوزى ج ٣ ص ١٨٣ — ١٨٦

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨

٣ — وقد أفاض مؤرخو العرب فى ذكر فتوحات المنصور وغزواته افاضة مشوهة فذكروا ان المسلمين بقيادته غزوا اثنتين وخمسين غزوة «ما بين صائفة وشاتية لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش» ولم يعينوا أسباب تلك الغزوات أو ظروفها بل اقتصر بعضهم على انتحال الجهاد سبباً للحرب (١). والحقيقة ان المنصور كانت له غاية سامية من حروبه المستمرة لم يفكر فيها أحد قبله من أمراء الاندلس أو ساستهم ، ذلك أنه فكر فى ان يسحق نصارى الشمال والغرب سحقا تاما ، وأن يقضى على استقلالهم القومى ،وان يخضعهم جميعاً الى سلطة الخلافة ، وقد خالف فى ذلك خطة من تقدمه من الغزاة والمحاربين ، فقد كان هؤلاء يحاربون للدفاع ولرد غارات النصارى . أما هو فكان يبدأ الحرب دائماً ، ولم يقبل من أعدائه قط صلحا او مهادنة

بدأ المنصور حروبه بغزو ليون عقابا للملكها على مساعدته لخصمه غالب فسار الى مدينة زامورا (سموره) وحاصرها فى يوليه ٩٨١ م ولما لم يستطع الاستيلاء على قلعتها المنيعة أحرق كل ماحولها وأمعن فى القتل والتخريب حتى أنه خرب فى بقعة واحدة ألف قرية وضيعة آهلة بالسكان . فتحالف راميرو الثالث ملك ليون وجارسيا فرديناند كونت قشتالة وملك نافار على قتاله . وسارت جيوشهم للقائه ، ونشب القتال بين الفريقين فى دودا جنوبي غربى سيمانقا فهزم النصارى ، واستولى المسلمون على سيمانقا

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ — ابن الاثير ج ٨ ص ٢٢٤ و ج ٩ ص ١٧

واستورقه . ثم زحفوا على مدينة ليون فلاقاهم راميرو واستطاع أن يقف زحفهم وأن يردهم الى معسكرهم حيث كان المنصور مع بقية الجيش ، فأنبهم ودفعهم الى المدينة ثانية فاقتحموها والثلوج تقطر من ثيابهم (١)

وعندئذ ساءت الأحوال فى مملكة ليون فان راميرو الثالث فوق ما أصابه من الهزائم أرهق أمته بالافتيات على حقوقها والتوسع فى سلطته فاضطرمت جليقية أهم ولاياته بالثورة واعتزم أشرافها أن يولوا العرش برمود (برمند) ابن عم راميرو . وفى اكتوبر سنة ٩٨٢ توج هذا الأمير ملكا فى سان جاك . فبادر راميرو بمحاربته ونشبت بينهما موقعة رائعة غير حاسمة فى بورتيلا دى آريناس على حدود ليون وجليقية .

ثم عاد برمود الى محاربة خصمه واستولى على مدينة ليون فى مارس سنة ٩٨٤ . فالتجأ راميرو الى مدينة أسترقة والتمس مساعدة المنصور على أن يقر سيادته ولكنه توفى فى يونيه سنة ٩٨٤ وحاولت أمه أن تحكم مكانه بمعاونة المنصور فابى مساعدتها . وأدرك برمود انه اذا لم يلتجىء الى المسلمين فلن يستطيع اخضاع الاشراف الذين رفضوا الاعتراف بحكمه فتقدم الى المنصور وعرض عليه شروطا حسنة فرضيها وأمده بجيش كبير استطاع أن يخضع به جميع المملكة على أنه أصبح تابعا للمنصور وبقيت فى ليون حامية كبيرة من جند المسلمين

واذ تم للمنصور بذلك أن يجعل من ليون ولاية تابعة تدفع الجزية

---

(١) دوزى ج ٣ ص ١٩٠ — ١٩٢

حول جيوشه نحو كاتالونيا التي كان يحكمها بعض موالي ملك فرنسا . وكان المسلمون الى ذلك الحين يحجمون عن غزوها لاعتقادهم أنهم بغزوها يحاربون فرنسا ولكن المنصور رأى أن الفوضى السائدة في المملكة الفرنسية عندئذ تحول دون انجادها لكاتالونيا . فسار بجيشه من قرطبة في ٥ مايو سنة ٩٨٥ متجها نحو هذه الولاية ولاقاه أميرها الكونت بوريل فهزمه وزحف على برشلونة عاصمتها التي استولى عليها الفرنج في عهد الحكم بن هشام ولبثت في حوزة مواليهم الى ذلك العهد فاستولى عليها في يوليه وأحرقها وقتل معظم السكان والجند ثم استولى على سيبو لفيدا و غيرها من حصون قشتالة وهزم جيوش جارسيا أمير قشتالة وسانكو أمير نافار في سنتمانكا واستولى عليها وخرب معظم الحصون والقلاع في تلك الجهة

٤ ــ وفي ذلك الحين عصفت الدعوة الفاطمية ثانية بسلطة الامويين في المغرب الاقصى . وكان الحسن بن كنون بعد أن هزمته جيوش الحكم المستنصر قد التجأ الى المعز لدين الله الفاطمي صاحب مصر كما تقدم ولبث هنالك حتى سنة ثلاث وستين وثلثمائة . ثم أقره المعز واليا للمغرب الاقصى وأمر عامله على أفريقية بلكين بن زيري الصنهاجي أن يمده بالجند فاخترق الحسن بن كنون بلاد المغرب وسارعت قبائل البربر الى طاعته . فلما علم المنصور بذلك سير الى المغرب جيشا كبيرا بقيادة ابن عمه عبد الله بن عامر المعروف بعسكلاجة فعبر البحر الى سبتة ونشب القتال بينه وبين الحسن ثم وافاه مدد من المنصور بقيادة ابنه عبد الملك فأذعن الحسن

لطلب الصلح على أن يسير الى الاندلس ثانية فرضى المنصور بذلك غير أنه دس على الحسن من اغتاله فى طريقه الى قرطبة وأتاه برأسه (سنة ٣٧٥ هـ) . وبقتله انقرضت دولة الادارسة وركدت ريح العلويين بالمغرب الاقصى

وولى المنصور على المغرب الوزير حسن بن عبد الودود السلمى سنة ٣٧٦هـ وأمره بالعمل على استمالة البربر فى هاتيك الاقطار، اذ يجب أن لا ننسى أن البربر كانوا للمنصور عونا على اخضاع القبائل العربية بالاندلس وأنه الف منهم حاشية وجند جنده وعين زعماءهم فى ارقى المناصب حتى سما شأنهم بقرطبة . فنفذ الوزير ما أمر به ، ونزل بفاس ، واجتمعت اليه البربر . ولكنه قتل سنة ٣٨١هـ أثناء غزوة قام بها ضد بعض الخوارج . فاختار المنصور عندئذ لولاية المغرب زيرى بن عطية زعيم مغراوة أشد قبائل البربر اذ ذاك بأسا فقام فى المغرب بدعوة هشام المؤيد والحاجب المنصور ثم اتخذ مدينة فأس قاعدة لحكومته وارتفع شأنه وامتد نفوذه ولكنه ظل متمسكا بدعوة الامويين

٥ . — عامل جند المنصور الذين تركهم فى ليون أمراءها وسكانها معاملة البلاد المفتوحة ولما شكا اليه برمود ذلك مرارا ولم ينصفه اعتزم أخيرا ان يطرد الحامية المحتلة فانقض عليها وردها الى خارج الحدود فاضطر المنصور عندئذ الى الحرب. والواقع أن المنصور لم يشن قط التأهب لتلك الحرب الجديدة فقد أراد أن يشغل سكان قرطبة بالتحدث عن غزواته بدل التحدث

فى أمور لا تعنيه فى رأيه (١) فسار توا إلى كوامبره واستولى عليها فى يونيه سنة ٩٨٧ م وأمعن فى تخريبها حتى لبثت قاعا صفصفا مدة سبعة أعوام. ثم أغار سانشكو ملك نافار على الحدود الاسلامية فسار المنصور لقتاله وطارده حتى مدينة بنبلونه وهنالك انقلب البشكنس الى الهجوم وهزموا المسلمين سنة ٣٧٦ هـ (٩٨٧م) وفى نفس الوقت سار جيش من الفرنسيين الى برشلونه تعاونه السفن من البحر فاستولى عليها ولم تلبث طويلا فى يد المسلمين (٢)

وفى العام التالى عبر المنصور نهر الدورو وانقض جيشه كالسيل على ليون يقتل ويمحق كل مايعترض سبيله فالتجأ برمود الى زامورا لاعتقاده أن المنصور سيبدأ بمهاجمتها ولكن المنصور سار توا الى مدينة ليون فقاومته حينا لمناعة قلاعها ولكنه خرق أسوارها بعدقتال رائع قتل فيه قائد الحامية الكونت جونزالفو كونزالز فدخلها المسلمون وأبادوا سكانها وغادروها اطلالا دارسة. وبعدئذ سار المنصور الى زامورا وأحرق فى طريقه أديرة سان بيدرو ديسلونسا وساهاجون الفخيمة ثم حاصر زامورا ففر برمود منها سرا وسلم السكان المدينة الى المنصور فأمر بنهبها واعترف

(١) دوزى ج ٣ ص ٢٠٦ ويشير هنا الى تحدث الشعب بعلائق المنصور وصبح واعتصابه بهالأنها الحكم وحجره على هشام

(٢) دائرة المعارف الفرنسية تحت كلمة « المنصور »

بسيادته معظم الكونتات ولم يبق لبرمود من ملكه سوى الجهات المجاورة للمحيط

ولما عاد المنصور الى الزاهرة استكشف مؤامرة خطيرة دبرها ضده الاشراف والعظماء باشتراك ولده عبد الله . وكان يبغض ولده هذا ويشك فى صحة بنوته ويؤثر عليه أخاه عبد الملك برغم تفوقه عليه فى الشجاعة والخلال. وكان بين المؤتمرين عبدالرحمن بن مطرف التجيبي حاكم سرقسطة فقد كان يخشى أن ينزعه المنصور سيادته التي توارثها آباؤه منذ نيف وقرن كافعل بغيره من عظماء الدولة . واتفق المؤتمرون على مباغتة المنصور وجنده فى أول فرصة واقتسام السيادة بينهم وكانت هذه مؤامرة خطيرة ولكن المنصور لحسن طالعه علم بأمرها قبل أن تتم أهبة خصومه فبادر باستمالة ولده وترضيته وتظاهر بالعطف عليه ثم عزل عبد الرحمن التجيبي وعين مكانه ابنه يحيي لكى لا يغضب بني هاشم ولكنه عاد فأمر بالقبض عليه وسجنه بحجة تبديده لاجور الجند ثم حاكمه وقضى باعدامه فاعدم فى الزاهرة سنة ٩٨٩ م

أما عبد الله فلم ينخدع بعطف أبيه الكاذب فلما سار المنصور فى العام التالى لغزوة قشتالة فر عبد الله أثناء حصار سنت استيفان والتجأ الى جارسيا فرديناند كونت قشتاله . ولكن المنصور استولى على أوسمه والكوبا ومزق جيوش الكونت فاضطر الى طلب الصلح والى تسليم عبدالله . ولما غادر المنصور معسكره وعبر الدورو أمر باعدام عبد الله فقطع

رأسه فى سبتمبر سنة ٩٩٠ م (١)

وتقم المنصور من كونت قشتاله حمايته لولده فحرض بدوره سانكو ابن الكونت على الثورة عليه وساعده الاشراف فثار سنة ٩٩٤ وسار المنصور فى نفس الوقت لمحاربة الكونت واستولى على سنت استيفان وكلونيه . ثم طال دفاع الكونت فغضب المنصور لذلك وصمم على أن لا يغادر ميدان الحرب قبل سحقه. وفى ذات ليلة قدم الى معسكره شاعر يدعى صاعد بن الحسن أبو العلاء البغدادى وقدم اليه أيلا فى عنقه حبل وكتب معه قصيدة يتنبأ له فيها بالنصر جاء فيها هذان البيتان :

عبد جذبت بضبعه ورفعت من مقداره أهدى اليك بأيل

سميته غرسية وبعثته فى حبله ليصح فيه تفاؤلى

فقضى الله أن تصح نبوءة الشاعر ، وجرح جارسيافرديناند وأسر بالقرب من لانجا على ضفاف الدورو فى نفس اليوم الذى قدم فيه صاعد الايل الى المنصور (٢٥ مايو سنة ٩٩٥ م) . ثم توفى الكونت بعد بضعة أيام وتأيدت سلطة سانكو ولكنه اضطر أن يدفع الى المسلمين جزية سنوية (٢)

وفى خريف هذا العام سار المنصور الى غزوة برمود ، وكانت قد ساءت أحواله وانتقض عليه الاشراف وسلبوه ضياعه وسلطته فجعل

(١) دوزى ج ٣ ص ٢١٢ ـ ٢١٣

(٢) دوزى ج ٣ ص ٢١٤

أسترقة عاصمته بعد خراب ليون ثم تركها حين اقتراب المنصور منها والتمس منه الصلح فمنحه اياه واشترط عليه الجزية واستولى على زامورا وولى عليها من قبله معن بن عبد العزيز التجيبي (١)

٦ . ـ الى ذلك الحين حكم المنصور عشرين عاما فى الواقع، ولكنه أراد أن يتوج حكمه بالصفة الشرعية وأن يستأثر بما بقى من رسوم الملك وكان يخشى الثورة بادىء بدء ولكنه اعتقد عندئذ أن الشعب يلهو بمجده وغزواته وما حمله اليه من السعادة ورغد العيش عن ملاحظة الانقلاب فبدأ بالتنازل عن منصب الحجابة لابنه عبدالملك وهو فتى لم يجاوز الثامنة عشرة . وكاد يفوز بتنفيذ مشروعه لولا أن اعترضت سبيله صبح النافارية والدة الحكم التى انقلب حبها بغضا بمضى الزمن فأثارت فى نفس ولدها عاطفة البغض نحو المنصور ، وثارت على نصحه أن يتولى مقاليد الحكم بنفسه وأخذت تنشر بواسطة أعوانها والناقمين معها أن المنصور يسجن الخليفة ويحكم بالرغم عنه ويغتصب سلطته . ثم فاوضت زيرى بن عطيه حاكم مراكش وأرسلت اليه الاموال سرا للاستعانة به وبجنده على محاربة المنصور . ففطن المنصور الى ذلك ومازال يتربص بهشام حتى خلا به وأخذ منه عهداً كتابيا بالحكم وفشلت بذلك تدابير صبح وحزبها (٢)

وأما زيرى بن عطية فانه أخذ يثير الدعوة على المنصور وينتقص منه

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١

(٢) دوزى ج ٣ ص ٢١٨ ـ ٢٢٧

ويعرض بحجره على المؤيد . فقطع عنه المنصور مرتب الوزارة ومحا اسمه من ديوانه . وقطع زيرى كذلك ذكره من الخطبة وطرد عماله بالمغرب. فانفذ اليه المنصور مولاه (واضحاً) الفتى فى جيش ضخم وأمده بالاموال والذخائر . فنزل واضح بطنجة فانضم اليه بعض قبائل البربر من غمارة وصنهاجة وحالفته على قتال زيرى. وسار زيرى لقتاله ونشبت بين الفريقين معارك شديدة مدى ثلاثة أشهر فى (وادى زارات) الى آن هزم واضح وفرق جيشه ففر الى طنجة وكتب الى المنصور يستنصر به (١)

فخرج المنصور من قرطبة الى الجزيرة الخضراء . ثم أجاز ابنه عبد الملك المظفر بجميع عسكر الاندلس وقوادها وأمره بحرب زيرى بن عطية فعبر المظفر البحر الى سبتة واتصل خبره بزيرى فتأهب لملاقاته وكتب الى جميع قبائل زناتة يستصرخهم فأتته الوفود من سائر النواحى وسار بهم الى قتال عبد الملك . وزحف عبد الملك من طنجة مع واضح فى جيوش لا تحصى والتقى الفريقان بوادى (مني) من أحواز طنجة فنشبت بينهما معارك هائلة هزم البربر فى نهايتها شر هزيمة وقتل منهم عدد جم وجرح زيرى. واستولى عبد الملك على غنيمة عظيمة من معسكره ثم طارده حتى مكناسة ففر الى الصحراء مع نفر من أصحابه

ثم دخل عبد الملك المظفر مدينة فاس سنة ٣٨٧ هـ وكتب الى أبيه المنصور بالفتح فكتب اليه بعهده على المغرب وعاد واضح بالجيش الى

(١) الاستقصاء ج ١ ص ٨٨ ـ ٩٣

قرطبة . ولبث عبد الملك واليا للمغرب ستة أشهر فقط. ثم عاد الى الاندلس وخلفه عيسى بن سعيد صاحب الشرطة فلبث حتى سنة ٣٠٩ هـ . ثم خلفه واضح . وفى ذلك الحين عاد زيرى بن عطية بفلوله الى مقاتلة صنهاجة وأعاد الدعوة الى هشـام المؤيد وللحاجب المنصور. وكتب الى المنصور يسترضيه فاعاده الى الولاية. وعند وفاته سنة ٣٩١ هـ خلفه ابنه المعز بمصادقة المظفر بن المنصور . ولبث المعز فى طاعة الامويين ينشر دعوتهم ويوطد سلطانهم بالمغرب حتى اضطرب حبل الخلافة بالاندلس

٧ — و بينما كان عبد الملك المنصور بالمغرب يتمم اخضاع البربر قام المنصور فى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) باعظم أعماله الحربية، فخرج من قرطبة فى جمادى الآخر فى جيش عرمرم كامل الاهبة وزحف على مدينة قورية فى شرق البرتغال واستولى عليها وانضم اليه عـدد كبير من الـكونتات (القوامس) وزعماء النصارى ممن أقروا بسيادته بفرسانهم وجندهم .وفى نفس الوقت سير المنصور أسطولا كبيرا يحمل وافر الاقوات والذخيرة من الساحل الغربى فلاقاه داخل نهر الدورو عند مصبه وجعل منه قنطرة لعبور جيشه ومعسكرا لتموينه وامداده. ثم تابع زحفه على جليقية الشرقية مخترقا مفاوز جبال الكانتابريا . واستولى فى طريقه على كوامبرة وبرغش وآنورا ولاميجو. ثم عسكر بجيشه أمام اسوار سـانتياجو (١) الواقعه فى قاصية الشمال الغربى من اسبانيا فى شرق جليقية بالقرب من رأس فنستر . وهى

(١) سانت ياقوب عند مؤرخي العرب ويسميها ابو الفداء بتسمية أصح هي: شانياقو

مدينة قديمة كانت قبل ذلك عاصمة لجليقية ولهاشهرة دينية فيزعم مؤرخو الافرنج أن بها قبر يعقوب الحوارى أخص أنصار المسيح ويذكرون أنه كان أسقفاً لبيت المقدس فجعل يطوف فى أنحاء الكرة داعيا الى النصرانية حتى انتهى الى تلك المدينة ثم عاد الى الشام وتوفى بها فحملت جثته ودفنت بكنيستها وسميت باسمه سانتياجو (أوالقديس يعقوب). ويدعوها بعضهم «بمكة المغرب» ويحج اليها النصارى كما يحجون الى بيت المقدس ولم يفكر أحد من أمراء المسلمين فى الوصول الى ذلك المكان من قبل لوعورته حتى سار اليه المنصور كما ذكرنا مقتحما لشعب الجبال متوغلا فى منبسط السهول . ولم يتقدم لاعتراضه أمام سانتياجو أحد من الاعداء فدخلها وهدم كنائسها ومعاهدها ونقل أبوابها الى قرطبة وجعلها أبوابا للمسجد الاعظم . ولكنه بعد أن اقتحمها وتقدم بجيشه شمالا اعترضه زعماء النصارى وعلى رأسهم برمود ونشبت بين الفريقين فى كلاتانازور - (قلعة النسور) موقعة غير حاسمة . ولم تستطع خيالة المسلمين أن تخترق صفوف الاسبان (١) فعاد المنصور بجيشه الى قرطبة مثقلا بالتحف والغنائم والاسرى . وكانت هذه غزوته الثامنة والاربعين . ثم عقد الصلح بينه وبين برمود

(١) ذكر مؤرخو العرب أن المنصور انتهى فى تلك الغزوة الى ساحل المحيط وقالوا ان هذه غاية لم يبلغها مسلم قبله . على اننا قدمنا فى هذا الكتاب (ص ٣٢) ان طارق بن زياد وصل فى فتوحاته الى ميناء كيجون الواقعة على خليج غسقونية

وفى ربيع سنة ١٠٠٢ م قام المنصور بآخر غزواته فاخترق قشتالة حتى (كانا ليس) وهدم كنائسها. ثم لحقه الاعياء حين العودة واشتد عليه المرض فترك جواده وسار نحو اسبوعين محمولا على محفة حتى وصل الى مدينة سالم. وهنالك استقدم ابنه عبد الملك وألقى اليه نصائحه الاخيرة. وفى ليلة الاثنين ١٠ أغسطس سنة ١٠٠٢ م (٣٩٣ هـ) توفى المنصور بن أبى عامر وذلك لسبع وعشرين سنة من حكمه ودفن بمدينة سالم وكتب على على قبره هذان البيتان

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه

٨ . — وكان الحاجب المنصور قائدا عظيما ومصلحا كبيرا، فقد أنشأ للاندلس جيشا أفاض عليها سلطانا وبأسا لم تعرفهما حتى فى عصر الناصر (١) وكانت أيامه بالاندلس أيام فخار وظفر ورخاء ورغد. فأزهرت الزراعة والصناعة والتجارة وزهت العلوم والآداب وفاضت خزائن قرطبة بالاموال. وكان المنصور رشيدا شجاعا قوى النفس (٢) ذا عقل ورأى وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين (٣) فاستمال الجند والرعية وأحسن اليهم. وكان عالما شاعرا مولعا بتعضيد العلوم والفنون فأنشأ دور العلم وبالغ فى الانفاق

(١) دوزى ج ٣ ص ٢٤٦
(٢) ابن الاثير ج ٩ ص ٦١
(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧

عليها.وكان يزور المدارس والمساجد ومجالس الطلاب ويمنح المكافآت النفيسة لمن يستحقها منهم ، ويكثر من مجالسة العلماء ومناظرتهم . وكان له في كل اسبوع مجلس يؤمه العلماء والادباء للمناظرة والبحث في حضرته . وكان يستصحبهم في غزواته لان شغف البحث والمناظرة كان يلازمه حتى في معسكره.وكان مشغوفا بالغزو لا يقعده عنه شيء فكان يغزو في الربيع والصيف من كل عام . وقد بلغت غزواته نحو اثنتين وخمسين أفاض في ذكرها ابن حيان في كتاب ضخم سماه « بالمآثر العامرية » . وفي عصره امتلأت الاندلس بالغنائم والسبي من بنات الاسبان وأولادهم ونسائهم وتغالى الناس في تجهيز بناتهم بالثياب والحلي وذلك لرخص أثمان بنات الافرنج . وكان كلما انصرف من قتال العدو الى سرداقه يأمر ان ينفض غبار ثيابه التي لبسها أثناء المعركة وأن يجمع ويحفظ حتى اذا حضرته المنية أمر بما اجتمع منه أن ينشر على كفنه حين وضعه في قبره.ويقال أنه كان قوى الذاكرة مثل قيصر حتى انه كان يعرف جميع عساكره بالاسم أو كان على الاقل يذكر أسماء من امتازوا بشجاعتهم ويدعوهم الى مائدته في الولائم الكبيرة التي اعتاد أن يقيمها لمعسكره عقب كل انتصار (١)

وكان كلفا بتشييد الابنية فابتنى مدينته الزاهرة والمسجد الجامع بقرطبة وأنشأ قنطرة كبيرة على نهر الوادي الكبير لتجلب مياه النهر اليها .وأنشأ قنطرة أخرى على نهر شنيل .

---

(١) فياردو ـ تاريخ العرب والبربر في اسبانيا ـ ج ١ ص ١٨٩

وكان مهيب الجانب يخشى بأسه المسلمون والنصارى معاً . ومن آثار هيبته أن أوفد له بازيل الثانى امبراطور القسطنطينية سفراء لمحالفته ولم تبلغ أمم الشمال الاسبانية قط مثل بلغت فى عهده من التفرق والوهن.

وقد قدر الاسبان المنصور حق قدره وشادوا بذكره فى تواريخهم واتفقوا على اكباره ومدحه فقد كان يضاعف الاجر للنصارى الذين يحاربون فى صفوفه ويحسن اثابتهم ومعاملتهم . وقال فى وصفه المؤرخ ماسديه: « كان سياسيا كبيرا وقائدا عظيما فقد أخمد نار الثورات التى كانت تعصف بالمملكة واكتسب محبة الشعب بجميع طبقاته وبرز فى شهرته وهيبته على أكبر القواد بما اجتمع فى أحكامه من الصرامة واللين والقصاص والعفو . وكان يهدم المدن التى تقاوم جيوشه ويبيدها ولكنه لم يسمح قط لجنده بأن تسىء معاملة مدينة سلمت طوعا»(١)

ونختتم ترجمة المنصور بكلمة دوزى . « وعلى الجملة اذا وجب أن نستنكر الوسائل التى استخدمها المنصور فى اغتصاب السلطة فمن الواجب أيضا أن نعترف بأنه استخدمها فى سبيل الخير . ولئن خلقه القدر على أريكة العرش فقد لانسرف فى لومه. وقد يعتبر عندئذ من أعظم الملوك الذين عرفهم التاريخ . ولكن خلق فى القرية واضطر لتحقيق اطماعه أن يشق لنفسه طريقا تحفه آلاف الصعاب . ومن الاسف أنه من أجل تذليلها قلما راعى شرعية الواسطة . لقد كان رجلا عظيما من وجوه كثيرة

(١) فياردو عن ماسديه ج ١ ص ١٩٠

ولكن يستحيل علينا متى رجعنا الى مبادىء الاخلاق الخالدة أن نحبه ومن الصعب أن نعجب به »[1]

ومن نظم المنصور قوله :

رميت بنفسى هول كل عظيمة ... وخاطرت والحر الكريم يخاطر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة ... وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر
وما شدت بنيانا ولكن زيادة ... على مابنى عبد المليك وعامر
رفعنا العوالى بالعوالى مثلها ... وأورثناها فى القديم معافر

٩ - ولما توفى المنصور خلفه ابنه عبد الملك فى منصب الحجابة وفى حكم الدولة وتلقب بالمظفر . وجرى على سنن أبيه فى السياسة فاستأثر بالسلطة واستمر على حجب هشام المؤيد والحجر عليه . وكان المؤيد قد ناهز الاربعين عندئذ غير أنه لبث خاملا لا يعنى باستعادة السلطة أو ادارة شؤون المملكة

ولاول ولايته سار أمراء الشمال كعادتهم لغزو الحدود الاسلامية وخرج بعض حكام الثغور والمدن فحاربهم وأخضعهم . وتحالف على قتاله ملكا نافار وليون فحاربهما وهزمهما فى بنبلونة ثم عقد الصلح معهما . وأعاد بحزمه ونشاطه ما كان لابيه فى قلوب النصارى والفرنج من الهيبة والروع فركنوا الى السكينة يرقبون الفرص . وكانت ولايته عهد سلام ورغد أو « أعيادا ومواسم » كما يصفها مؤرخو العرب . وكان سلطانه نافذا فى

(١) دوزى ج ٣ ص ٢٥٨

المغرب على يد زيرى بن عطية الذى صادق المنصور على ولايته كما تقدم. ولم يقصر المظفر فى مداراة البربر والتودد لزعمائهم تنفيذا لسياسة أبيه حتى اشتد نفوذهم فى عصره اشتدادا أدى غير بعيد الى وثوبهم على الحكومة واستيلائهم على السلطة كما سنذكر بعد

وتوفى المظفر شابا سنة ٣٩٨هـ بعد أن حكم ستة أعوام (١)

١٠ ـ فخلفه أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله. وجرى على سنة أبيه وأخيه فى الحجر على هشام والاستقلال بالملك دونه . غير أنه أغفل مهام المملكة وانكب على اللهو والمجون وشرب الخمر . فنقم العلماء والاشراف منه فسقه ومجونه . وكان يسمى سانكو الصغير أو سانكول لان أمه كانت ابنة سانكو ملك نافار أو كونت قشتالة . وكان على مجونه طاغية يستأثر بالسلطة فاستقر رأيه على اغتصاب ما بقى من رسوم الخلافة. وطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده وتوعده إذا لم يجبه الى ذلك فارتاع المؤيد وأجابه الى طلبه وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وذوى الرأى فكان يوما مشهودا وكتب عهده من انشاء حفص بن برد وكتب الوزراء والقضاة وسائر الحضور شهادتهم بخطوط أيديهم وتسمى

(١) ذكر ابن الاثير عن سبب وفاته أن اخاه عبد الرحمن سمه فى تفاحة قطعها بسكين كان قد سم أحد جانبيها فتناول اخاه مما يلى الجانب المسموم واخذ هو ما يلى الجانب الصحيح فاكله بحضرته فاطمأن المظفر وأكل ما بيده منها فمات (ج٨ ص٢٢٥

عبد الرحمن بعدها بولى العهد (١)

وكان لاغتصاب عبد الرحمن ولاية العهد بتلك الصفة أثر عظيم فى قرطبة وفى الاقاليم فان الشعب الذى ظل خمسة وثلاثين عاما محكوما بوسائل الارهاب فى ظل الدولة العامرية أثاره ذلك العسف أخيراً وهاله مادهى الخلافة ورسومها من الافتيات والمحو . ولكنه لبث حينا يخشى عاقبة الثورة لان العامريين كانت لاتزال تؤيدهم قوة عسكرية يخشى بأسها

وكان عبد الرحمن مطمئنا الى تلك السكينة الظاهرة ولم يسبر غور

---

(١) اورد ابن خلدون نص ذلك المستند برمته . وقد جاء فيه ما ملخصه ان هشاما خشية ان لا يستطيع القيام بأعباء الخلافة وشئون المسلمين قد اختار عبد الرحمن ابن المنصور لذلك بعد ان اختبره وابتلاه ووثق من كفاءته واخلاصه. وجاء فى ختامه مايلى وهى الفقرة الناقلة لولاية العهد : « فلما استوى له الاختيار وتقابلت عنده الآثار ولم يجد عنه مذهبا ولا الى غيره معدلا خرج اليه من تدبير الامور فى حياته وفوض اليه الخلافة بعد وفاته طائعا مختارا مجتهدا وأمضى امير المؤمنين هذا واجازه وأنفذه ولم يشترط فيه ثنيا ولا خيارا وأعطى على الوفاء به فى سره وجهره وقوله وفعله عهد الله وميثاقه وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم وذمة نفسه أن لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول وأشهد على ذلك الله والملائكة وكفى بالله شهيدا وأشهد من أوقع اسمه فى هذا وهو جائز الامر ماضى القول والفعل بمحضر من ولى عهده المأمون أبى المطرف بن المنصور وفقه الله تعالى وقبل له ما قلده والزمه نفسه ماقى القدمة. وذلك فى شهر ربيع الاول سنة ثمان وتسعين وثلثمائة (ج ٤ ص ١٤٩)

جوانح الشعب المتأججة بنار الثورة فاستمر فى طغيانه وعسفه . وفى شهر يناير سنة ١٠٠٩ م (٣٩٩هـ)خرج من قرطبة بجيشه غازيا وسارالى جليقية لمحاربة الفونسو الخامس ملك ليون وعهد بادارة الحكومة فى غيبته الى ابن عم أبيه عبد الله بن عامر المعروف بعسكلاجه . فمنذئذرأى الشعب أن الفرصة قد سنحت ليبطش بالعامريين ولم يبق عليه ألا أن يتخير الوقت والظروف الملائمة

الفصل الثاني

الثورة وسقوط الدولة الامويه

سنة ٣٩٩ ـ ٤٠٧ هـ ـ ١٠٠٩ ـ ١٠١٦

(١) وثوب الامويين لاستعادة الملك . خروج محمد بن هشام . اقتحامه لقرطبة الحرب بينه وبين عبد الرحمن المنصور . مقتل عبد الرحمن وسقوط بني عامر . (٢) ولاية المهدى . اضطهاده البربر . خروج البربر ومبايعة هشام بن سليمان. هزيمتهم ومقتله . خروج سليمان المستعين . استنصاره بسانكو كونت قشتاله . الحرب بين المهدى وسليمان . هزيمة المهدى . استنصاره بسانكو . استعادته لقرطبة ومقتله (٣) مهادنة سانكو للمؤيد . اقتحام سليمان للزهراء . حصاره لقرطبة وهزيمته . اتحاد الخارجين . استعادة سليمان لقرطبة . ولايته وقتله للمؤيد . استقلال زعماء العرب والبربر بالمقاطعات والمدن .

١ ـ كان بنو أمية وأنصارهم من اليمنية ومضر يرقبون الفرصة لتحطيم تلك الاصفاد التى طوق بها أعناقهم بنو عامر . فلما انتزع عبد الرحمن

المنصور ولاية العهد من هشام وبالغ فى الاستئثار بالسلطة ورسوم الخلافة رأوا أن الوقت قد حان للقضاء على الأسرة المتعصبة وأنصارها من البربر. ولم يك لعبد الرحمن من دهاء السياسة ما يتملك به القلوب بمثل ما امتلكها أبوه وأخوه فلم يلبث كما قلنا أن أسخط رجال الدولة وأفراد الشعب بطغيانه وسوء تصرفه.

ائتمرت أمية وقريش اذاً والتف المؤتمرون حول أمير من بنى أمية يدعى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر كان المظفر قد أعدم أباه فلبث مختفيا فى قرطبة يدبر الامر سرا مع نفر من الاشراف وزعماء القبائل حتى استطاع أن يضم اليه نحو اربعمائة نافر. فلما خرج الناصر من قرطبة بالجيش كما قدمنا ولم يبق من الجند الا فرق يسيرة ترابط فى الزاهرة الفى الزعماء الفرصة سانحة لتحقيق مشروعهم فوثبوا ذات مساء بصاحب الشرطة الذى يتولى حراسة القصر وفتكوا به وبرجاله أمام باب القصر ثم نفذوا الى الداخل وقتلوا عبد الله بن عامر قبل أن يجد متسعا للاستغاثة واستولوا على القصر ودور الحكومة ونادوا بخلع هشام المؤيد وتولية محمد بن هشام الاموى (١)

وفى ١٨ جمادى الثانى سنة تسع وتسعين وثلثمائة ظهر محمد بن هشام بقرطبة ومعه اثنا عشر رجلا فبايعه الناس وتلقب بالمهدى بالله وملك قرطبة

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٩

وأخذ المؤيد فحبسه معه في القصر ثم أخرجه وأخفاه (١) . وكان عبد الرحمن المنصور كما ذكرنا غازيا في الشتاء بجليقية وأوغل في ليون . ولم يقدم ملكها الفونس الخامس على لقائه وتحصن منه في رءوس الجبال ولم يستطع اتباعه لزيادة الانهار وكثرة الثلوج فقرر العودة بجيشه . ولما وصل الى طليطلة بلغته أنباء الثورة وخروج محمد بن هشام واستيلاؤه على قرطبة فأسرع بالعودة حتى اذا قرب من قرطبة انفض عنه الجند ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدي القائم بالامر . ولم يبق مع عبد الرحمن الا خاصته فسار الى قرطبة ليستنهض بقية أنصاره فخرج اليه عسكر محمد بن هشام فقتلوه وحملوا رأسه الى المهدي سنة (٣٩٩ هـ) . وانقضت بذلك دولة العامريين (٢)

٢ . ـ وقد أسلفنا أن المنصور بن عامر استظهر بالبربر على أمره وأصبحوا شيعة لبنيه من بعده . فلما ولي عبد الرحمن انفضوا عليه لسوء تدبيره . وكان بنو أمية ينقمون منهم مظاهرتهم للعامريين وينسبون اليهم تغلب المنصور وبنيه واغتصابه لسلطانهم فاشتد لذلك حقدهم وتعداهم الى عامة قرطبة لما كانوا يلاقونه من غطرسة البربر وسفالة جنده هم . فلما بويع المهدي ولم يكن قد توطد ملكه لم يتمالك نفسه من اظهار الحقد عليهم واضطهادهم فأمر أن لا يركبوا

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٢٥ . وذكر ذلك المؤرخ أن محمد المهدي أخفى هشاما وأظهر انه مات وكان قد مات نصراني يشبه المؤيد فأخرجه للناس في شعبان سنة ٣٩٩ هـ وذكر أنه المؤيد فلم يشكوا في موته . ثم أظهره حين خروج سليمان بن هشام عليه

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٠

ولا يتسلحوا وأقصاهم عن البلاط وصادر أمـلاكهم وجاهر بالانتقام منهم وأوغر عليهم صدور العامة فأخذوا يطاردونهم ونهبوا دورهم والاعتداء على أشخاصهم. فائتمر الزعماء منهم واستقر رأيهم على خلع المهدى ومبايعة هشام بن سليمان الناصر وثار البربر لتنفيذ خطتهم فى شوال سـنة ٣٩٩ هـ أى بعد بضعة أشهر فقط من ولاية المهدى واقتحموا قرطبة. فبرز اليهم المهدى بعسكره وتقاتل الفريقان يومين متواليين . ثم انضم عامة قرطبة الى المهدى فهزم البربر وأسر هشام بن سليمان وأخاه أبا بكر وغيرهما من الزعماء وقتلهم جميعا

ولكن تلك الهزيمة لم تثن من عزيمة البربر فجمعوا فلولهم ولحقوا بسليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ابن أخى هشام المقتول فبايعه أصحاب عمه ولقبوه بالمستعين . وكان سانكو أمير قشتالة يرقب تطور الثورة باهتمام متأهبا لمظاهرة الفريق الخارج على الآخر . ففاوضه سليمان ابن الحكم وزعماء البربر فى طليطلة فأمدهم بالجند والذخائر . فسار سليمان فى جموع البربر والنصارى الى قرطبة فخرج اليه عسكر المهدى وتقاتل الفريقان بظاهرها قتالا شديدا فى مكان يعرف بجبل قنتيج (أو قنطش) فلم تمض ساعة حتى قتل من أهل قرطبة نيف وعشرة آلاف (١) بينهم عدد جم من العلماء والأئمة (٥ نوفمبر سنة ١٠٠٩) ودخل المستعين المدينة فتحصن المهدى بالقصر وأظهر المؤيد دفعا لدعوى سليمان ومحاولة

(١) هذا تقدير ابن حيان وقدر بعضهم القتلى بعشرين الفا وآخرون بثلاثين الفا

منه لافصائه بتولية المؤيد ثانية.فلم يوافقه أحد على ذلك .فلما أعياه الامر فر سرا واختفى . ودخل سليمان القصر وبايعه النـاس بالخـلافة وذلك فى شوال سنة اربعمائة من الهجرة

أما محمد المهدى فلحق بطليطلة . وكانت الثغور كلها باقية على طاعته ودعوته . فاستعان بدوره بسانكو أمير قشتالة . وانضم اليه واضح الفتى العامرى مع أصحابه . ثم سار بفلوله ثانية الى قرطبة فخرج اليه سليمان بن الحكم مع البربر الى ضاحية المدينة . ونشب بينهما قتـال رائع أسفر عن هزيمة سليمان والبربر . فهرب سليمان الى شاطبة . ودخل المهـدى قرطبة وجدد البيعة لنفسه وعين واضحا حاجبا له

ثم عاد البربر الى قتال المهـدى بعد ذلك ببضعـة أيام فى موقعة غير حاسمة ارتدعلى أثرها الى قرطبة . وهناك تآمر عليه الصقالبة بأمر واضح الحاجب وقتلوه . وأخرجوا المؤيدمن القصر فأجلسوه على العرش وبايعوه فى (ذى الحجة سنة ٤٠٠ هـ) . وعين واضح حاجبا للمؤيد وكانت مدة ولاية المهدى منذ قام الى أن قتل عشرة أشهر (١)

٣ . ــ وفى تلك الآونة استقرت الامور بقرطبة نوعا . وهـدأت الخواطر وسكنت الفتنة . وحاول المؤيد أن يصل بالمفاوضة الى الاتفاق مع البربر المتصلين بسليمان المستعين فلم يفلح . وتقـدم سليمان وأنصاره الى سانكو ثانية وتعهدوا له بتسليم حصون قشتالة التى افتتحها الحاجب

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٠ ــ ابن الاثير ج ٨ ص ٢٢٦ نفح ج ١ ص ٢٠٠

المنصور اذا رضى بمحالفتهم ومعاونتهم على استعادة قرطبة وخلع المؤيد . ونما الخبر الى المؤيد فاستقر رأيه بمشورة واضح الحاجب على أن يتنازل عن تلك الحصون اتقاء لمحالفة تعقد بين الثوار وأمير قشتالة وعقد الفريقان صلحا فى المحرم سنة احدى وأربعمائة

أما سليمان فلما يئس من محالفة الاسبان عاد بجنده جنوبا وعسكر بالقرب من قرطبة. ثم فرق جنده فى ضواحى المدينة فبالغوا فى السلب والنهب والاغارة وبقيت قوة منهم لحصار المدينة .فهب المؤيد للدفاع عن عرشه وحصن قرطبة وملأها بالرجال والذخائر . وأنشأ بها واضح سورا عاليا وحفر حولها خندقا عميقا .فتحول سليمان بجنده الى الزهراء وحاصرها بضعة أيام اشتد فيها القتال بينه وبين المدافعين عنها ثم اقتحمها عنوة واجتمع السكان بالمسجد الجامع ففتك بهم البربر وقتلوا النساء والاطفال والشيوخ، وأحرقوا المسجد والقصر ، وخربوا معاهد الزهراء الجميلة وأتلفوا حدائقها النضرة ، ونهبوا الاموال والذخائر . وتوقع واضح تغلب المستعين ففاوضه خفية فى تسليم قرطبة وعلم المؤيد بذلك فقبض على واضح وقتله ، وقتل كذلك كل من يخشى مقاومتهم داخل المدينة

وفى ذلك الحين خرج بمدينة طليطلة عبيد الله بن محمد بن عبد الجبار وبايعه أهلها فسير اليهم المؤيد جيشاً حاصرهم حتى أذعنوا للطاعة وأسر عبيد الله وقتل

واستمر سليمان والبربر فى حصار قرطبة حتى عيل صبر أهلها وضاقوا

ذرعا عن تحمل مشاق الحصار ومصائبه فخرجوا لقتال البربر ونشبت بين الفريقين موقعة شـديدة هزم فيها البربر وغرق عدد عظيم منهم فى مياه النهر (الوادى الـكبير) فرفعوا الحصار وساروا شمالا الى اشبيلية فحاصروها فارسل المؤيد جيشاً لقتالهم فهزمهم وأقصاهم عن المـدينة . فسار سليمان بجنده الى سرقسطه التى خرج حاكمها على المؤيد وتحالف معه على الثورة وانضم اليها كثير من الخارجين والناقمين من بنى أمية فى الثغور والنواحى وسارت الجيوش المتحدة بقيادة سليمن الى قلعة رباح (كالا ترافا) فاستولى عليها واتخذها قاعدة للحرب

ثم زحف بجنـده ثانية الى قرطبة . وكانت قوى المؤيد وجموعه قد تفرقت ، وفت الحصار فى عزيمة السكان وأضناهم القتال المتواصل فلم يلق المستعين منهم مقاومة تذكر . فاقتحم المدينة وقتل كثيراً من سكانها وأحرق معاهدها وأبنيتها ، واحتل البربر دورها ، وانتهكوا النساء والبنات ، وفتكوا بالاطفال والشيوخ ، وارتكبوا رائع السفك والاثم ، وقبض سليمان على المؤيد واخفاه حتى قتله خفية بعد ذلك (١) وجلس على العرش وبايعه الناس وذلك فى شوال سنـة ثلاث واربعمائة . وبهـذه المناسبة قال ابن خلدون يهجو سليمان :

لارحم الله سليمانكم فانه ضد سليمان

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥١ ـ ابن الاثير ج ٩ ص ٧٥ ـ المراكشى ص ٢٢ ـ ٥ : أبو الفداج ٢ ص ١٤٩

ذاك به غات شيا بأينها	وحل هذا كل شيطان
فبأسمه ساحت على أرضنا	لهلاك سكان وأوطان

ولما استتب الامر لسليمان بقرطبة تلقب بالظافر مضافا الى المستعين وأخذ ينظم شئون الحكومة المضطربة . وكانت الفوضى قد سرت الى جميع النواحى، وتفككت عرى الدولة ، وقصر نفوذ الحكومة الا عن قرطبة وما يجاورها . وقبض البربر الذين استعادوا العرش لسليمان على أزمة الحكم فى النواحى والمدن ، واستولى زعماؤهم على غرناطه وقرمونه ورنده وشريش ، واستقل بالمقاطعات من العرب آخرون من الوزراء والحكام فاستقل القاضى أبو القاسم بن عباد بأشبيلية، وابن الافطس ببطليوس، وابن ذى النون بطليطله، وابن ابى عامر ببلنسية ومرسيه، وابن هود بسرقسطه ومجاهد العامرى بدانية وجزائر البليار (١)

وكان سليمان الظافر أديباً وشاعراً بليغاً فن رقيق نظمه :

عجباً يهاب الليث حد سنانى	وأهاب لحظ فواتر الاجفان
وأقارع الاهوال لا متهيبا	منها سوى الاعراض والهجران
لاتعذلوا ملكا تذلل للهوى	ذل الهوى عز وملك ثان
ماضر أنى عبدهن صبابة	وبنو الزمان وهن من عبدانى
ان لم أطع فيهن سلطان الهوى	كلفاً بهن فلست من مروان

(١) ابن خلدون ج٤ ص١٥١ ـ ابن الاثير ج ٩ ص ٨٢ ـ ويسمى مؤرخو العرب هؤلاء الولاة الذين استقلوا بمقاطعات الاندلس « ملوك الطوائف »

واذا الكريم أحب أمن ألفه   خطب القلى وحوادث السلوان
واذا تجارى فى الهوى أهل الهوى   عاش الهوى فى غبطة وأمان

ولم تطل خلافة الظافر فان العناصر المضطربة لبثت تجيش فى صدور الطامعين من زعماء البربر حتى تمخضت فى أمد يسير عن دولة أخرى هى دولة بنى حمود

الفصل الثالث

دولة بنى حمـود

سنة ٤٠٧ - ٤٥٠ هـ - ١٠١٦ - ١٠٦٤ م

(١) القاسم وعلى ابنا حمود . خروج خيران العامرى . اتحاده مع على بن حمود . عبور على بن حمود الى اسبانيا . الحرب بينه وبين سليمان . هزيمة سليمان ومقتله (٢) ولايه المتوكل . خروج خيران والمرتضى . هزيمة المرتضى ومقتله . طغيان المتوكل ومقتله (٣) ولاية القاسم المأمون . ثورة يحيى المعتلى واستيلاؤه على قرطبة . عودة القاسم الى قرطبة . حصاره لقرطبة وهزيمته . فراره الى شريش ومقتله . ولايه المستظهر الاموى ومقتله . ولاية المستكفى وخلعه ومقتله . استئناف الدعوة ليحيي المعتلى وخلعه . مبايعة هشام المعتمد بالله وخلعه . انقراض الدولة الاموية بالاندلس (٤) زوال المعتلى بقرمونه . الحرب بينه وبين خيران وحبوس الصنهاجى . قتاله لابن عباد . مقتله . ولاية أدريس المتأيد - قتاله لابن عباد . هزيمة ابن عباد ومقتله . ولاية باقى أمراء بنى حمـود وانقراض دولتهم

١ . ـ لما انقرضت دولة الادارسة بالمغرب الاقصى فى آخر عهد المنصور بن عامر وأصبح المغرب ولاية أندلسية تخضع لحكومة قرطبة

تفرق زعماؤه فى الجهات ولاذوا بالاختفاء وأخذوا يرقبون الفرص لاستعادة سلطانهم . وهاجر عدد عديد منهم الى الاندلس واحتموا بظل الدولة العامرية فى آخر عهدها بعد أن شادوا صروحها فى المبدأ . وكان من بين زعماء البربر الذين قادوا جيش سليمان الظافر واقتحموا قرطبة سنة ثلاث وأربعمائة رجلان من عقب الادارسة يرجع نسبهما الى الحسن بن على بن أبى طالب وهما على والقاسم ابنا حمود بن ميمون انضما الى صف المستعين فعينهما قائدين . ثم ولى عليا سبته وطنجه وقاسما الجزيرة الخضراء . فلما سقطت قرطبة استقل كثير من زعماء البربر بالمدن كما ذكرنا وتحصنوا بها وقويت هنالك دعوتهم

وكان من أنصار بنى عامر الذين دارت عليهم الدائرة حين اقتحم سليمان الظافر قرطبة للمرة الثانية زعيم يقال له خيران العامرى كان معارضاً لولاية سليمان لانه كان من أصحاب المؤيد . فلما أقصاه البربر عن قرطبة ارتد منهزما فى جماعة كثيرة من الفتيان العامريين وسار خفية الى شرق الاندلس فانضم اليه حال سيره كثير من الناقمين من بنى أمية والبربر . ثم زحف على مدينة المرية . وقاتل البربر هنالك فهزمهم واستولى على المدينة وأغار على البربر فى الجهات المجاورة لالمرية وأقصاهم عنها فقوى أمره هنالك واشتد بأسه ودعا لهشام المؤيد

وكان على بن حمود الادريسى فى ذلك الحين كما ذكرنا حاكما لسبتة وطنجة من قبل سليمان الظافر ، وأخوه القاسم واليا على الجزيرة الخضراء

لا يفصلهما سوى مجاز طارق . وكان على أصغر الاخوين يترقب فرصة من خلال الاضطراب والثورة لدفع نفوذه وتوطيد مركزه ثم ارتأى سهولة الوثوب على حكومة قرطبة لما كانت عليه وقتئذ من الارتباك والضعف فكاتب خيران العامرى وادعى أن هشاماً المؤيد ولاه عهده ووعد بالانتقام له . فانتشرت دعوة الثائرين ولباها جماعة من حكام النواحي المنتمين لحكومة قرطبة منهم عامر بن فتوح الفائقى مولى الحكم المستنصر ووزير ابنه المؤيد وكان حاكما لمالقه فى ذلك الحين . وكاتبوا علياً بن حمود وهو بسبته ليعبر اليهم فينضموا اليه فى المسير الى قرطبة

فعبر على بن حمود البحر من سبته الى الجزيرة الخضراء سنة خمس وأربعمائة وسار فى أشياعه من البربر الى مالقه فسلمها اليه حاكمها عامر بن فتوح ودعا له بولاية عهد المؤيد حالة ظهوره حيا . وسار خيران بمن معه فالتقى بعلى فى المنكب ما بين مالقه والمرية (سنة ٤٠٦ هـ) . فاستجمع الزعيمان قواتهما ونظما جندهما ورسما خطتهما ثم زحفا على قرطبة . وبويع على بن حمود على طاعة المؤيد وانضم اليه أثناء مسيره حاكم غرناطه. وتأهب سليمان الظافر لقمع الثورة فخرج من قرطبة فى عسكر البربر والتقى الفريقان على قيد عشرة فراسخ منها ونشب بينهما قتال رائع أسفر عن هزيمة سليمان وقتل عدد جسيم من البربر المؤازرين له . وأسر سليمان وأفراد أسرته . ودخل ابن حمود قرطبة فى المحرم سنة سبع وأربعمائة (يوليه سنة ١٠١٦ م)وقتل بيده سليمان وأباه وأخاه . وافتقد خيران

المؤيد فلم يجده وكان الاعتقاد سائدا بأن سليمان أخفاه ولم يقتله . فلما تحققت وفاته أعلنها على بن حمود ودعا الى البيعة له فبويع وتلقب بالمتوكل على الله (وقيل الناصر) . وكانت مدة ولاية سليمان الثانية منذ أن دخل قرطبة الى أن قتل ثلاثة أعوام وبضعة أشهر (١)

٢ـ ولما قبض على بن حمود على أزمة الحكومة لجأ الى الارهاب والشدة ولم يترك وسيلة رائعة الا استعملها فى اخماد الهياج وتأييد العرش ففتك بالمناوئين له سواء فى ذلك العرب والبربر ، وأذل الزعماء واستأثر بالسلطة

وكان خيران العامرى حينما افتقد المؤيد ولم يجده خشى سطوة المتوكل وغدره فترك قرطبة وأظهر الخلاف عليه وأعاد الدعوة لبنى أمية فى شخص عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر وهو أصلح من بقى من بني أمية وكان قد فر خفية من قرطبة الى جيان . فبايعه خيران وجمع كبير معه ولقبوه بالمرتضى . وانضم اليه منذر بن يحي التجيبي حاكم سرقسطة والثغر الاعلى (اراجون) وكذلك أهل شاطبه وبلنسية وطرطوشه والبونت وغيرها من بلاد الاندلس . وأعلن المرتضى الخلاف على المتوكل ولكنه أساء معاملة خيران ومنذر فتركاه لما رأيا من صرامته وحدة نفسه فسار بجموعه الى غرناطه وحاكمها يومئذ زاوى الصنهاجى أحد أمراء البربر . فاقتتل الفريقان حتى هزم المرتضى هزيمة شديدة وقتل وتفرق عسكره .

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٩٢ ـ ٩٣ ـ بن خلدون ج ٦ ص ٢٢١ و ج ٤ ص ١٥٣ ـ أبو الفداء ج ٢ ص ١٤٥ ـ نفح ج ١ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ـ المراكشى ص ٢٤

فعاد أخوه هشام بن بقى من فلوله الى البونت وأقام بها و بويع بالخلافة

أما المتوكل فاستمر فى سياسة الارهاب والشدة حتى بلغه قيام المرتضى فى شرق الاندلس فعول على أخلاء قرطبة وأبادة أهلها . فأعاد السلطة الى البربر ، واستبد بالعرب ، وقبض على زعمائهم ، ومنهم أبو الحزم ابن جهور الذى ملك قرطبة فيما بعد ،وصادر أموالهم .فاشتدت النقمة منه ولم يلبث أن قتله صقالبة بنى أمية فى الحمام (فى القعدة سنة ٤٠٨ هـ) وذلك بينما كان يتأهب للسير الى جيان لقتال من فيها من الامويين

٣ ــ تخلفه أخوه القاسم وهو أكبر منه بعدة أعوام وكان والياً لاشبيليه . وكان يحيى بن على المقتول والياً على سبته فاختلف البربر فى مسألة الولاية . ولكن أكثرهم انضم الى جانب القاسم لانه غبن أولا وقدم عليه أخوه الاصغر . فدخل قرطبة وبويع فيها بعد ستة أيام من مقتل أخيه وتلقب بالمأمون . وعدل عن سياسة الشدة الى اللين والمسالمة واستمال خيران واستعطفه . ولكنه عاد فاستعصم بالمرية . وأقطع زهيرا العامرى جيان وقلعة رباح (كالاقطاعات) فسكنت الفتنة وهدأت الخواطر

وفى ربيع الاول سنة اثنى عشرة واربعمائة ثار يحيى بن على بن حمود بمدينة مالقه وانضم اليه أشياعه من البربر . وارتاع القاسم لذلك فغادر قرطبة بلا قتال الى أشبيله . وزحف يحيى بجنده على قرطبة فدخلها دون معارضة وتسمى بالخلافة وتلقب بالمعتلى . ولبث القاسم بأشبيلة بضعة أشهر يجمع أشياعه وأنصاره ويدعى له بالقاب الخلافة ثم انتهز فرصة مغادرة

ابن أخيه على قرطبة الى مالقه فزحف عليها ودخلها فى القعدة سنة ٤١٣ هـ واقتحم يحيى بعسكره ولاية الجزيرة الخضراء وكانت بها أموال عمه القاسم وأسرته . واستولى ابن أخيه الثانى ادريس بن على صاحب سبتة على ميناء طنجه وكان يعدها القاسم ملجأ يحتمي به اذا ماذهب سلطانه بقرطبة وثار كذلك أهل قرطبة بالقاسم وأقصوه الى خارجها بعد حرب شديدة فى جمادى الثانى سنة ٤١٤ هـ فانقلب البربر الى محاصرة المدينة . واستمر القاسم وأشياعه فى حصارها نيف وخمسين يوما . ثم خرج أهل قرطبة لقتاله فهزم بعد قتال شديد وتفرق البربر وانفضوا عن القاسم فقصد القاسم أشبيلية مع نفر من أصحابه فأساء أهلها معاملته فتحول عنها الى شريش وتحصن بها. واستقل القاضى ابو القاسم بن عباد اللخمى بتدبير شئون أشبيلية

أما يحيى المعتلى فسار لقتال عمه بشريش ومعه البربر فحاصر المدينة وأسر عمه وحبسه فلبث فى السجن حتى قتله ادريس أخو المعتلى

وكان أهل قرطبة بعد أن هزموا القاسم قد عولوا على رد الامر لبنى أمية وبايعوا عبد الرحمن بن هشام المستظهر فى رمضان سنة ٤١٤ هـ فلم يلبث حتى خرج عليه من أسرته حفيد للناصر يدعى محمد بن عبد الرحمن فقتله لثلاثة أشهر من ولايته وجلس على العرش وتلقب بالمستكفى بالله (١) . وكان عاجزا ضعيف الرأى فلم تمض ستة أشهر حتى ثار عليه أهل قرطبة وأقصوه عنها فسار الى مدينة سالم وهنالك اغتاله أحد ضباطه

(١) وهو والد ولادة الشاعرة الاندلسية الطائرة الصيت

ثم عاد أهل قرطبة الى طاعة يحيى المعتلى . ولكنه لم يدخلها بل ولى عليها ابن عطاف اليفرنى البربرى . فثار القرطبيون لذلك وخلعوا طاعة المعتلى ثانية فى سنة ٤١٧ هـ واستقر رأيهم على رد الامر لبنى أمية وكان عميدهم فى ذلك الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور فاتفقوا على مبايعة هشام بن محمد أخى المرتضى وكان منذ مقتل أخيه قد لجأ بعسكره الى القنت. فاستقدمه ابن جهور ودخل قرطبة سنة عشرين وأربعمائة وتلقب بالمعتمد بالله . ثم ثار عليه الجند سنة اثنين وعشرين ففر الى لاردة مع أنصاره بعد أن عانوا أروع صنوف العذاب والاهانة بقرطبة . و لحق بابن هود صاحب لاردة وسرقسطه فاقام عنده حتى توفى سنة ٤٢٧هـ بلا عقب :وهو آخر ملوك بنى أمية بالاندلس وبخلعه انقطعت الدعوة لبنى أمية وذكرهم على المنابر بجميع أقطار الاندلس والمغرب الاقصى

٤ ـ وكان يحيى المعتلى بعد أن قاتل عمه القاسم بشريش وتغلب عليه قد أخذ يطوف بجنده لاخضاع المنازعين له فى مختلف النواحى . فلما خلع القرطبيون المستكفى وثاروا ثانية ورفضوا طاعته واستقل ابن جهور بحكومة قرطبة سار المعتلى الى مدينة قرمونه واتخذها قاعدة للحرب. وخرج عليه زهير العامرى الذى استقل بالمرية بعد وفاة صاحبها خيران . وكذلك حيوس بن ماكسن البربرى زعيم صنهاجه واستمرت الحرب بينهما مدة سجالا حتى انتزع حيوس دانية من المعتلى وقطع دعوته بها . وكان المعتلى بقرمونه يرقب استقلال ابن عباد بأشبيلية بعين النقمة والحقد فجعل يردد عساكره

للاغارة عليها . ثم اتفق البربر وكافة الزعماء على اسلام المدائن والحصون اليه فاستلمها وبسط سلطانه عليها . واشتد ساعده وقوى أمره . وكان محمد بن عبد الله البرزالى أحد أمراء البربر الذى كان مستقلا بقرمونه قبل حلول المعتلى بها قد تحالف معه غير أنه نكث عهده وتفاوض سرا مع القاضى ابن عباد . وفى أثناء محاصرة المعتلى لاشبيلية هاجمه كمين من جند ابن عباد وقتله غيلة بمؤازرة ابن عبد الله وذلك فى المحرم سنة ٤٢٧ هـ

فاستدعى أنصاره بمشورة وزيريه ابن بقيه ونجا الحاجب الصقلبى أدريسا أخاه وكان حاكما لسبته و ايعوه بالخلافة فى مالقة قاعدة ملك الحموديين وتلقب بالمتأيد بالله وانضمت اليه المريه وأعمالها ورندة والجزيرة وولى ابن أخيه يحى المعتلى على سبته

وكان القاضى ابن عباد بعد قتل منافسه المعتلى قد خلا له الجو واشتد بأسه وأخذ يطمع الى التغلب على ماجاور أشبيلية من المدائن والمقاطعات فسير ابنه اسمعيل فى عسكره فاستولى على قرمونه وأشبونه واستجه من يد محمد بن عبد الله البرزالى الذى استغاث بالامير زاوى الصنهاجى وأدريس المتأيد فأمداه بالجند ونشبت بينهم وبين ابن عباد حروب شديدة هزم فيها ابن عباد وقتل

وقتل المتأيد بعد ذلك بيومين فى سنة ٤٣١هـ فبويع ابنه يحى ولكن لم يتم له أمر لان نجا الحاجب بادر الى سبته ودعا للحسين بن يحى المعتلى فبايعه البربر ولقب بالمستنصر . وفر يحى بن ادريس الى قمارش وتوفى

بها سنة أربع وثلاثين وكان ادريس بن يحيي المعتلى معتقـلا بمالقه فاخرج منها بعد خطوب شديدة وبويع بها فأطاعته غرناطه وقرمونه ولقب بالعالى. وهو الممدوح بالقصيدة المشهورة التي نظمها الفنداقى الاشبونى ومطلعها :

البرق لائح من أنا رين ذرفت عيناك بالماء المعين

وخلع العالى سنة ثمان وثلاثين. وولى ابن عمه ادريس بن على وتلقب بالمهدى وأطاعته غرناطه وجيان وأعمالها. ثم توفى بمالقه سنة أربع وأربعين فبويع ادريس العالى ثانية ولبث بمالقه الى أن توفى بها سنة سبع وأربعين فخلفه محمد ابن ادريس التأيد ولقب بالمستعلي وانضمت اليه المريه ورنده ثم سار اليه باديس بن حيوس الصنهاجى سنة تسع وأربعين فاقصاه عن مالقه واستولى عليها. وفر محمد الى المريه مخلوعا وعبر البحر الى المغرب فمكث به حتي توفى سنة ست وخمسين. وهو آخر من تولى بمالقه من أمراء بنى حمود

وكان محمد بن القاسم بن حمود بعد مقتل أبيه قد فر من الاعتقـال ولحق بالجزيرة الخضراء واستولى عليها وتلقب بالمعتصم. ثم توفى سنة أربعين فخلفه ابنه القاسم الواثق ولبث حاكما للجزيرة الخضراء حتي توفى سنة خمسين وأربعمائة وبموته انقرضت دولة بنى حمود بالاندلس (١)

---

(١) نفح ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ - ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٤ و ٥٥ - بن الاثير ج ٩ ص ٩٦ و ٩٧ - المراكشى ج ٣٣ - ٣٩ - أبو الفداء ج ٢ ص ١٤٦

فصل مفرد

فى النظم السياسية والاجتماعية بالاندلس

— ١ —

(١) نظام الحكم (٢) التشريع والقضاء (٣) نظم التنفيذ (٤) الانظمة الحربية فى البر والبحر

١ — لانقصد من انشاء هذا الفصل أن نسهب فى موضوع الحضارة الاندلسية فالمقام لايتسع لذلك ، وانما نريد فقط أن نأتى على خلاصة وجيزة لابد منها لفهم الانظمة التى عاش فى ظلها المسلمون فى اسبانيا وكانت مصدراً لحضارة زاهرة انفردت فى عهدها بنشر ضياء العلم والمدنية

ونبدأ بالكلام على الانظمة السياسية و يدخل فى ذلك نوع الحكومة وتكوينها ومصادر التشريع ونظم التنفيذ

كانت اسبانيا لأول عهد الفتح ولاية أموية تخضع لخليفة دمشق ويشرف على ادارتها ويعين ولاتها حاكم أفريقية . وكانت الحكومة فى المبدأ عسكرية يتولاها حاكم الاندلس و يتولى فى الوقت نفسه متابعة الفتح والجهاد بأمر الخليفة . وحكام اسبانيا من زعماء الجند هم الذين دفعوا الفتوحات الاسلامية الى أواسط فرنسا فى مبدأ القرن الثامن . و يتولى الحاكم كذلك أمر تنفيذ الشريعة وجمع الضرائب وصرفها فى الاوجه المشروعة وكانت الاندلس مقسمة من أجل ذلك الى مقاطعات لكل منها قاعدة أو قواعد

وكانت العاصمة أولا مدينة اشبيلية التى اختارها العرب لتوسطها من الجزيرة ولان طليطلة حاضرة القوط لم تكن قد دانت لامرتهم تماماً. ثم نقل أيوب بن حبيب اللخمى ثالث ولاة الاندلس قاعدة الحكومة الى قرطبة فلبثت كذلك حتى نهاية الدولة الاموية

وللمستعظات الدولة الاموية بالمشرق واستقل عبد الرحمن الداخل الاموى باسبانيا تلقب بالامير وقبض على زمام السلطة فكانت الحكومة أمارة مطلقة ولكنها اتخذت شكلا واضحاً ثابت الدعائم . واختفت المنازعات المحلية التي كانت تناوىء السلطة الرئيسية . واستقدم عبد الرحمن الاموى موالى الصقلبةوالبربر لارتيابه بزعماء العرب . واستأثر بالسلطتين السياسية والحربية . ولبثت الحكومة كذلك فى عهد خلفائه حتى تولى عبد الرحمن الناصر فاتخذ سمة الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين وبذلك استأثر بنو أمية بالسلطة الدينية أيضاً وكانت متنازعة من قبل . ونقل الناصر كذلك قاعدة الملك الى مدينة الزهراء على انها لم تكن الا ضاحية لقرطبة

وتنفرد الحكومة الاسلامية سواء فى الاندلس أم غيرها بجمعها بين السيادتين الروحية والسياسية ممتزجتين فى سمة الخلافة . والتفرقة عامة بينها فى الحكومات النصرانية فقد كان البابا زعيما دينياً لهذه الحكومات ولكنه كان فى الوقت نفسه مجرداً عن السلطة السياسية والحربية الا فى فرص قليلة يقدمها لنا التاريخ الايطالى. وتنفرد الحكومة الاندلسية أيضاً بالاعتماد على أنظمة أخرى اتخذت فى ظلها قواعد ثابتة كاتخاذ الامير أو الخليفة الموالى وكرياسة الحاجب للوزراء وتعهده لمسئولية الحكم والادارة واجتماع صفتى الوزارة والقيادة فى رئيس سمى فى حكومات الطوائف بذى الوزارتين ومسئولية صاحب الشرطة عن تعهد الامن العام . ولا نريد فى هذا المقام أن نتوسع فى ذكر نظام الخلافة أو منشئه ولا نريد بالاخص أن نتعرض لمختلف الآراء التى اعتنقها الشيعة والسنة بشأنه . ونكتفى بالقول بأن الخلافة توارثها امراء بنى أمية بعد ان اتخذها الناصر حتى اضمحل شأنهم ونشبت الثورة فجعل الزعماء ينافس بعضهم بعضا فى ابتغاء الخلافة حتى لم يبق من رسومها سوى الاسم والدعوة فى مدينة أو مقاطعة تضطرم فيها نار الثورة ويتملك ناصيتها زعيم قوى. فلما انتهت الدولة الاموية واستقل ملوك الطوائف وزعماء البربر بالنواحى انتحلوا رسوم الخلافة وتلقبوا بمختلف القابها فتسموا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر الى غير ذلك . ودعا بعضهم للعباسيين

وآخرون لانفسهم . وصار أمر الخلافة فوضى يطمح الى نيله كل ثائر اومتغلب مهما صغر شأنه. ونعى ابن رشيق ذلك على ملوك الطوائف بقوله :

مما يزهدنى فى أرض اندلس   القيب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكى انتفاخاصولة الاسد

واما الوزارة فى ظل حكومة الاندلس فقسمت الى أصناف اختص بكل صنف وزير فوزير المالية (صاحب الجباية) يتولى تحصيل الضرائب والاموال وصرفها . ويتولى آخر أمر التعليم والمراسلات وثالث يتولى النظر في حوائج المتظلمين ورابع ينظر فى أحوال أهل الثغور وكانوا يجتمعون فى ديوان خاص برياسة واحد منهم يعينه الخليفة ليكون واسطة بينهم و بينه و ينفرد بالاتصال به فى أى وقت و يختص باسم الحاجب

وكان لقب الحجابة خاصاً فى الدولة الاموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتحه . وفى الدولة الاموية بالاندلس كانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة و يكون واسطة بينه وبين الوزراء فلما نمت طبقة الحجاب المتغلبة على الخلافة والمستبدة بشئون الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لعلو مرتبتها كما فعل المنصور بن أبي عامر وأبناؤه : وكان ملوك الطوائف يعدون اللقب شرفا لهم فكان أعظمهم ، لمكا بعد انتحال ألقاب الملك والخلافة يتسمى بذلك الاسم (١)

٢ .— التشريع : كانت الشريعة الاسلامية تطبق فى الاندلس على مذهب مالك منذ عصر هشام بن عبد الرحمن الداخل.وكان الاندلسيون قبل ذلك يطبقونها على مذهب الاوزعى . ولا يقتضى ذكر التشريع فى حكومة اسلامية الدخول فى تفصيلات أخرى كما اذا كان الكلام متعلقا بشريعة وضعية فالشريعة الاسلامية

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٩٧ — ١٩٨

كانت تطبق فى كل حكومة اسلامية بأصولها المجمع على احترامها من أئمتها وفقهائها . ولا يختلف تطبيقها فى بلد عن آخر أو عصر عن آخر الا بقدر ما كان عليه اجتهاد شارح أو تشيث شيعة بما كانت تختطه لاتباع سياسة معينة كما فعل الخوارج والقرامطة والعبيديون والموحدون

القضاء : كان القضاء عريقاً فى المنزلة والاعتبار فى الحكومات الاسلامية لاستقائه من السيادة الدينية ما جعله فوق المناصب الاخرى وأيضاً لسعة اختصاصه ولانه لم تكن تمنح ولايته الا لرجال ذوى مكانة فى العلم ورسوخ فى الدين والتقوى : وفى الاندلس كان القضاء نافذ الهيبة بعيد الاحترام فى نظر الخاصة والعامة على السواء . ولا سبيل لأن يقسم بسمته الامن كان والياً للاحكام الشرعية فى احدى المدن الكبيرة. وكان من هو دون ذلك يسمى مسدد خاصة . وترجم الزعامة الى رئيس أكبر يقال له قاضى القضاة أو قاضى الجماعة (١) مركزه بقرطبة يقوم باعادة النظر فى الاحكام اذا وجه اليها طعن . و يتولى فى الوقت نفسه تدبير الشئون القضائية واختيار القضاة بالاتفاق مع الامير . وكان الامير نفسه قابلا تغيره للخصومة وفى الاستطاعة مثوله أمام قاضى أو الرئيس لانه لم يكن مشرعاً أو مبتدعاً فى الدولة الاسلامية كشأنه فى فى حكومات القرون الوسطى والعصور الحديثة . على انه كان بحكم رياسته السياسية يمكنه توقيع العقوبات دون التمسك بالاحكام الشرعية وكذلك كان فى استطاعته أن يصدر أمراً بالعفو . ولكن مما لاريب فيه ان القضاء كان حائزاً فى تلك العصور لاستقلاله الذى يلح فى وجوب احترامه واضع الانظمة الحديثة بالتطبيق لنظرية فصل السلطات

ويتبع القضاء وظيفة العدالة وهى وظيفة دينية مخصصها القيام عن اذن القاضى بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملا عند الاشهاد وأداء عند التنازع وكتابة فى

---

(١) نفح ج ١ ص ١٠١

السجلات تحفظ بها حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم (١)
وكان يقوم بدعوة الخصوم وتنفيذ أحكام المعاملات اشخاص يعرفون برسم القضاء

٣ـ فرض الضرائب وجبايتها . لم يكن الامير فى الحكومة الاسلامية من الحرية فى فرض الضرائب ما للمشرع الحديث وذلك لان الاحكام الشرعية تناولت بأحكام خاصة ما يتعلق من ذلك بالجيش أو بيت المال فى الدخل والخرج وتمييز النواحى بالصلح والعنوة الى غير ذلك . وكان النظر فى شأن الضرائب من أهم الوظائف ويختص متولوها بالقيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة فى الدخل والخرج واحصاء العساكر وتقدير أرزاقهم وصرفها والرجوع فى ذلك الى القوانين التى يرتبها ولاة الامر (٢) وأهم الموارد التى كان يتألف منها دخل الحكومة فى ذلك العصر خراج الاراضى المنزرعة أو عشورها والاموال المرسومة على السفن الواردة والصادرة ودخل دار السكة ودخل بيت المال من زكاة وصدقات وميراث من لا وارث له واخماس الغنائم التى كان يربحها الجيش من محاربته العدو ما بين آن وآخر . أما الاموال التى كان يصادرها الامير أو الغرامات التى كان يوقعها الاساءة أو غرض خاص فكانت تصادر أو تجبى لحسابه (٣)

الشرطة والامن العام : كان يعهد برعاية الامن وتنفيذ الاحكام وتوقيعها الاندلس الى صاحب الشرطة والحسبة . فأما صاحب الشرطة فكان يتولى تنفيذ العقوبات الجنائية من حد وتعذير فيحد على الزنا وشرب الخمر وينفذ ما دون ذلك

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ١٨٧ وظاهر ان ذلك النظام يشبه نظام التسجيل فى القانون المدنى

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣

(٣) نفح ١ ج ص ٩٨

من أصناف العقاب . ولم يكن في ذلك ينفذ أحكاماً توقع بالعقاب بل كان يتولى الاتهام والتحقيق ثم يقيم الحد دون تداخل القاضي . وكان ينتخب عادة من كبار القواد أو عظماء الخاصة ويسمى عند الاندلسيين بصاحب الشرطة وصاحب المدينة وصاحب الليل وكان أحياناً يتمتع باختصاص وسلطة لا حد لها فيأمر بالقتل لمن وجب عليه دون استئذان الامير ويسيطر على جماعات الحراس التي كانت تجوب أنحاء المدينة ليلا لتشرف على حراسة الطرق والاماكن وتتعقب آثار اللصوص والقتلة. وفي الدولة الاموية بالاندلس نوعت الشرطة الى كبرى وصغرى . وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء وجعل لصاحبها الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلامات ، وعلى أيدي أقاربهم ومن ينتمي اليهم من أهل الجاه . وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة . ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب السلطان ورجال يتبوءون المقاعد بين يديه فلا يبرحونها الا في تصريفه . وكانت ولايتها للاكابر من رجال الدولة حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجابة (١)

وأما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلا فيتعين فرضه عليه ويتخذ الاعوان لذلك ويبحث عن المنكرات ويعذر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل تمهيد الطرقات والزام أصحاب المباني المتداعية بهدمها والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الابلاغ في ضربهم للصبيان والمتعلمين . وله النظر والحكم تواً فيما يصل الى علمه من ذلك ويرفع اليه. وليس له امضاء الحكم في الدعاوى اطلاقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في أمور المعيشة والمكاييل والموازين وله أيضاً حمل المماطلين على الانصاف وامثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا انفاذ حكم وكأنها احكام توقع بطريقة ادارية سريعة وينزه عنها القضاء لعمومها وسهولة أغراضها فتدفع الى رجال الحسبة وتكون الحسبة

---

(١) نفح ج ١ ص ١٠١ — ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٠

بذلك خادمة لمنصب القضاء . وقد كانت فى كثير من الدول الاسلامية مثل العبيديين بمصر وبالمغرب والامويين بالاندلس داخلة فى عموم ولاية القاضى يولى فيها باختياره (١)

وأحياناً كان يقوم بها القضاة أنفسهم . والعادة أن يسير القاضى فى الاسواق راكبا ومعه أعوان ليشرف بنفسه على أتباع الاحكام الشرعية وقمع الغش والاختلاس فى المعاملات (٢) هذا عدا ما لكل فرد من الحق فى التبليغ عن مخالفة الاحكام أو ارتكاب الجرائم واقامة نفسه مدعياً بدعوى عمومية . وهكذا كانت رعاية الامن وتنفيذ القوانين والضرب على ايدى المجرمين التى يقوم بها اليوم قلم النيابة العمومية ورجال الادارة موزعة على الحسبة وصاحب الشرطة

٤ — ذكرنا فى الفصل الاول كلمة عامة عن سياسة الفتح عند العرب فى مبدأ امرهم ونذكر هنا كلمة عن انظمتهم الحربية فى البر والبحر

الجيش : لم يكن للعرب فى المبدأ أنظمة حربية ثابتة او جيش ثابت . وانما كانت تغلب على طبائعهم الشجاعة وتحمل المشاق والنزوع الى القتال فكان كل منهم ينقلب جنديا حين الحاجة . وقتالهم من النوع الذى وصفه ابن خلدون « بالكر والفر » وهو الوثوب على العدو والاختلاط برجاله دون الانتظام الى صفوف معينة خلافا لقتال الزحف الذى كان يستعمله اليونان والرومان والفرس وفيه ترتيب الصفوف وتسيير الى العدو متعاقبة . ولما تغلب العرب على الامم المجاورة واتسع ملكهم اهتموا بالاكثار من الجند ووضعت للجيش أنظمة وقواعد ثابتة

ففى وقت الحرب كان يقسم الجيش الى مقدمة وهى عسكر الطليعة . والى اليسار جند الميسرة . والى اليمين جند الميمنة فيكونا الجناحين ويلحق بذلك المؤخر او الساقة ويتألف القلب من القائد العام وأركان حربه وضباطه وكانت التعبئة لا تستغرق

(١) ابن خلدون . المقدمة ص ١٨٨

(٢) نفح ج ١ ص ١٠١

فى المبدأ الا زمنا يسيرا ولكن ضخامة الجيوش فى عهد الدولة الاموية كانت تستلزم اياما كثيرة حتى كان الامير او القائد يتقدم بالطلائع وجزء يسير من الجند ثم تتبعه البقية (١)

وفى الدولة الاندلسية اقتبس العرب كثيرا من أنظمة الافرنج وطرائقهم الحربية وكان قتالهم بطريق الزحف التى كان يستعملها الافرنج . ولم توضع قواعد الجيش الثابت قبل عهد الحكم بن هشام . وكانت تمتزج بالجيش العربى عناصر حربية من قبائل البربر التى ظلت زمنا مديدا تحتفظ بشدة بأسها وخشونتها . وفقد الجيش الاندلسى قبل بعيد صلابته ومتانته فلم يمض قرنان حتى فقد الجيش العربى كل أهميته واستأثر البربر بالقيادة والقوة

وكان الجندى الاندلسى يحارب بالتراس والرماح الطويلة ولا يعرف الدبابيس ولا قسى العرب (٢) وكان عنصر الفرسان كثيرا فى الجيش الاندلسى يكونون زهرة رجاله وتندمج فيه فرق تستعمل السهام والنبال وقت التحام الصفوف وطالما ادت الى الخلافة خدمات جليلة . وفى الحصار كانت العرب تلجأ الى المنجنيق وهو أنفذ آلاتهم الحربيــة تخريبا وأبلغها تقويضا للقلاع والحصون . وعند مايحاصرهم العدو يحفرون الخنادق حول المدينة ويقيمون الابراج فوق الاسوار

الاسطول : نشأ العرب فى شبه جزيرتهم القاحلة يرهبون البحر واهواله . ولما افتتحوا مصر كتب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر وصفا مروعا للبحر فاوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه ولم يركبه أحد من العرب الا من خالف عمر ونال من عقابه كما فعل عرفجة بن هرثمة الاسدى سيد بجيلة لما أغزاه عمان فبلغه غزوه فى البحر فأنكره عليه وعنفه . ولم يزل الشأن كذلك حتى أذن معاوية بن أبى سفيان المسلمين

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٧ — ٢٣٠

(٢) نفح ج ١ ص ١٠٣

فى ركوب البحر والجهاد على اعواده . ولما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم الاعاجم خولا لهم وتحت أيديهم وتقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا البحارة فى حاجاتهم البحرية وتكررت ممارستهم للبحر أنشأوا السفن . شحنوا الاساطيل بالرجال والاسلحة واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب للبحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والاندلس . وأوعز الخليفة عبد الملك الى حسان عامل افريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد . ومنها كان فتح صقليه أيام زياد الله بن ابراهيم الاغلب على يد أسد بن الفرات فكانت من بعد ذلك أساطيل أفريقية والاندلس فى دولة العبيديين والامويين تتعاقب الى بلادهما فى سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب ولها فى ذلك وقائع تتجسم فيها الجرأة والمخاطرة وطالما كانت غارات البحارة العرب موضعاً لرعب الايطاليين والبيزنطيين

وكان من دواعى أهتمام حكومة قرطبة بتقوية الاسطول غارات النورمان فقد كانوا ينزحون الى البحار الجنوبية لنهب الشواطىء من وقت لآخر. وتكرر اعتداؤهم على الاندلس فى عهد بنى أمية ولاسيما فى عصر عبد الرحمن الاوسط وابنه الامير محمد وكذلك فى عهد الحكم المستنصر

وانتهى اسطول الاندلس أيام عبد الرحمن الناصر الى مائتى مركب أونحوها وكان أمير البحر بالاندلس فى عهد الحكم المستنصر ابن رماحس . ومرفؤها للحط والاقلاع بجايه وألمريه . وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن اسطولا يرجع نظره الى قائد من البحارة يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو المجاذيف وأمر ارسائه فى مرفئه . فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل أوغرض سلطانى مهم عسكرت بمرفئها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وانجاد عساكره ومواليه وجعلهم لنظر أمير واحدمن أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم اليه ثم يسرحهم لوجههم وينتظر ايابهم بالفتح والغنيمة.وكان المسلمون

لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر (البحر الابيض) من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن الامم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقه ومنورقه وسردانيه وصقليه ومالطه واقريطش وقبرص. وكان أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوه فتنقلب بالظفر والغنيمة . وافتتح مجاهد العامرى صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانيه فى أساطيله سنه خمس واربعمائة واسترادها النصارى لوقتها والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة . والعساكر الاسلامية تجيز البحر فى الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية (سواحل امارتى كلابريا ونابولى) فتوقع بملوك الافرنج وتثخن فى ممالكهم ([1])

— ٢ —

(١) الشعر والادب (٢) العلوم . الفلسفة . الجغرافيا والاستكشاف . النبات . الطب . الكيميا والطبيعة (٣) النحت والتصوير والموسيقى (٤) الزراعة والصناعة والتجارة

١ — بلغت الآداب والعلوم العربية بالدولة الاسلامية فى اسبانيا المثل الاعلى لآداب أمة وعلومها . ففى الاندلس وصل الشعر والأدب غاية من الابداع والرونق لم يصلها فى دولة اسلامية أخرى. وأضاف شعراء الاندلس وكتابها الى بلاغة المشرق وفخامة بيانه اسمى ضروب الرقة والافتنان فى صنوف الاستعارة والتشبيه والتعبير عن الاحساس والمشاعر، وفى وصف الاشياء والمناظر والآلام والمسرات وتقلبات الحياة ، وفى المدح والهجاء والفخر والرثاء، ولعل ذلك منشؤه بدائع طبيعة جزيرتهم

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٠ — ٢١٢ وقد نقلنا عنه هذه الفقرة مع بعض التصرف

وسمو حضارتهم وما ترتب على ذلك من رقة أمزجتهم وسلامة أذواقهم
وكان نبوغ الامراء والخاصة من رجال الدولة فى الشعر والادب أمراً عادياً .
وقد أوردنا فى هذا الكتاب شيئا من نظم الامراء والخلفاء

وقد استحدث شعراء الاندلس فناسموه بالموشح ينظمونه اسماطاً اسماطاًوأغصانا أغصانا و برعوا فى ذلك . وكان المخترع لتلك الطريقة مقدم بن معافر الفريرى من شعراء الامير عبد الله بن محمد وأخذ ذلك عنه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد . وكان أول من برع فى هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب ألمريه (من ملوك الطوائف) (1) وهو القائل :

بدر تم   شمس ضحا   غصن نقا   مسك شم
ما أتم   ما أوضحا   ما أورقا   ما أنم
لاجرم   من لمحا   قد عشقا   قد حرم

هذا ونترك لمؤرخ الآداب العربية الاسهاب فى تراجم الشعراء والكتاب ونقل منظومهم ومنثورهم والتعاليق عليها ، ولكننا لا نرى بدا من الافاضة قليلا فيما بلغته حضارة الاندلس من رفيع الشأن فى مختلف العلوم والفنون

٢.— الفلسفة : لم تأخذالفلسفةعند العرب طورها الذى أخذته فى أوروبا لأنها تعارض الاسلام فى أمور كثيرة ولاسيما ماتعلق منها بقواعد الاخلاق وأصول الاشياء وترتيبها ولذا كان من الطبيعى أن لايتعمق المسلمون تعمق الغرب فى درسها. وأشهر من درس الفلسفة اليونانية من العرب ابو نصر الفارابى المتوفى سنة ٩٥٠ م درسها وأذاعها فى المشرق وابن رشد القرطبى المتوفى سنة ١١٩٨ م . و برع سلفه ابن سينا الذى عاش فى القرن الحادى عشر فى الفلسفة الطبيعية . وقد امتاز الفلاسفة العرب بسعة معلوماتهم واستيعابهم لأشتات المعارف العامة فان الفارابى مثلا كان فيلسوفا

(١) ابن خلدون . المقدمة ص ٥١٩

ورياضياً وموسيقياً بارعا وكان علي ماقيل يتكلم جميع اللغات المعروفة فى عصره وقد كتب فى جميع العلوم والفنون . وكان الكندى الذى عاش فى عصر الحكم بن هشام والذى يعتبر من أكبر فلاسفة العالم فيلسوفا وطبيباً ورياضياً وفلكياً . وكان متقناً لجميع العلوم التى عرفها العرب فى عصره ملما بما كتب اليونان والهنود والفرس وقد درس كتب ارسطو وشرحها وألف نحومائتى كتاب فى مختلف العلوم والفنون. ومن أشهر فلاسفة الاندلس أيضاً ابن باجه وابن الطفيل

الجغرافيا والاستكشاف : نبغ العرب فى الجغرافيا نبوغاً عظيما ووضعوا المعاجم الجغرافية المتقنة التى اشتهر منها بالاخص معجم الادرسيى (الذى عاش فى القرن الثانى عشر)وقام كثيرمنهم برحلات عظيمةولكن معظمهم كان يقتصر على الطواف فى أنحاء البر وشواطىء البحر الابيض حتى شاطىء افريقية الغربى . ولم يفكروا فى استكشاف مجاهل المحيط . غير انه يوجد مايحمل علي الاعتقاد بأنهم استكشفوا جزر آزور وكنارى فقد ذكر كوندى نقلا عن الادريسى ان ثمانية عشر رجلا من العرب غادروا شاطىءاسبانيا الغربى فى مبدأ القرن الحادى عشرفى مركب شراعى بقصد الاستكشاف فى المحيط الاطلانطى فساروا غرباً ثم جنوبا حيث رسوا بجزيرة ثم استمروا جنوبا فاستكشفوا جزيرة أخرى(ربما كانت منجزرالكنارى)وهنالك شاهدوا رجالا عمالقة حمر اللون طوال الشعور ونساء فائقات فى الحسن . وقد أخذوا لمقابلة ملك تلك الجزيرة وأخبروه بأنهم خرجوا ليستكشفوا مجاهل المحيط الى نهايتها فأفهمهم باستحالةمشروعهم فعادواشرقا وساروا ستين يوماحتى عادوا الى ميناء أشبونه.

النبات : وبرع العرب فى علم النبات ولا سيما ابن البيطار المالقى (المتوفى سنة ١٢٤٨م) الذى تجول فى كل أنحاء العالم القديم . وقد نبغ فيه ايضاً الفيلسوف ابن رشد

الطب : أما الطب فقد برع العرب فيه براعة عظيمة وتفوقوا على أمم الارض قاطبة . ولا تزال أبحاث ابن سينا الطبية موضع الاعتبار فى الطب الحديث. قال

المؤرخ مورفى فى كتابه تاريخ دولة العرب فى اسبانيا : « يجب ان نعترف بأن العرب قد أجادوا تشخيص الاعراض ومنهم عرفنا أول وسائل لمعالجة الجدرى والحصبة وصعوبة البلع . وكان أثمن ما استحدثوه فى فن المعالجة العقاقير الملينة بدل المسهلات الحادة التى كان يستعملها اليونان بكثرة » ونبغوا أيضافى مباحث التشريح والجراحة وأتقنوا فن الصيدلة واستكتشفوا فيها ستكتشافات عظيمة ولاسيما عبد الملك بن زهر الاشبيلى الذى برع بالاخص فى درس خواص الترياقات والعوق وسبق غيره فى استعمال البادزهر كدواء للشفاء

الرياضة : وفاقت ابحاثهم فى الرياضيات ابحاثهم فى الفلسفة . وهم واضعو علم الجبر ابتكره جبر الرياضى الاشبيلى المتوفى سنة ١١٩٦ م . وقد تبحروا أيضاً فى الفلك وخواص الكواكب . ولهم فيه مباحث شائقة وكان علما شائعاً بالاندلس

الكيا والطبيعة : على ان نبوغ العرب فى الكيمياء هو أكثر مايستثير اعجاب أوروبا الحديثة وثناءها . والحق ان العرب هم الذين اكتشفوا علم الكيمياء . حقيقة درست السيمياء فى مصر فى عهد الرومان وفى الغرب فى غابر القرون كعمليات منفردة ولكن العرب أول من تبحروا فى الكيمياء وجمعوا أشتات مباحثها واستكشافاتها واستخدموها فى الطب والفنون والصناعات مثل تنقية المعادن وصبغ الاصواف بالالوان البديعة وتركيب الارواح والعطور ودبغ الجلود . وقد عرف العرب فى القرن العاشر عمليات التقطير وتحضير الكحول واستكشفوا الحوامض المعدنية والقلويات النباتية والمعدنية . ولا تزال كلمات الكحول والانبيق والقلى تدل على أصلها العربى

واهتموا بالسيمياء اهتماما كبيرا وبذلوا كثيراً من الجهود فى سبيل استكشاف المعدن أو المادة التى يمكن بواسطتها تحويل باقى المعادن الى ذهب (١)

---

(١) ذهبت ابحاث علماء السيمياء فى العصور الوسطى والحديثة كلها سدى ولكن حملت الينا الصحف الالمانية الاخيرة نبأ استكشاف الدكتور ميتى الالمانى لطريقة

وتعمقوا فى مباحث الطبيعة والميكانيكة وابتكروا فى النظريات وتوازن السوائل واخترعوا البندول (الرقاص)

٣ . — النحت والتصوير والموسيقى : لم يصل فن النحت والتصوير عند العرب الى مدى كبير غير ان النقش والتصوير تقدما فى عهد الناصر تقدما يذكر وأخذهما العرب عن البيزنطيين والنصارى الذين وفدوا على قرطبة ، واشتركوا فى صنع التماثيل والنقوش بقصور الزهراء . وفى آخر عهد الدولة الاسلامية بالاندلس أى فى مملكة غرناطه استطاع العرب أن يرسموا صورا متقنة تمثل الاشخاص والحروب والصيد وغيرها .

أما الموسيقى فقد أزهرت أيما أزهار فى عهد بنى أمية بالاندلس ولاسيما فى القرنين التاسع والعاشر ووفد على الاندلس فى عصر عبد الرحمن بن الحكم زرياب الموسيقى الشهير من المشرق . وأسست فى قرطبة مدرسة للموسيقى بأشراف ذلك الفنان الكبير وارشاده فأخرجت كثيراً من مشاهير الموسيقيين . وبرع العرب فى الغناء والدق على كثير من الآلات الموسيقية المعروفة حتى اليوم مثل الصفارة والعود والقيثارة والارغن وغيرها

٤ . — الزراعة : ولم ينبغ شعب نبوغ عرب اسبانيا فى فلاحة الارض وتخطيط الحدائق وتربية الماشية ومعرفة أحوال الجو . كان مسلمو الاندلس فى عهد بنى أمية أبرع شعوب الارض فى الالمام بخواص الزراعة وفنونها وبأمثل الطرق لانماء المحصولات ونجاحها وجودتها . وفى مكتبة الاسكوريال مؤلف فى الزراعة لابى زكريا الاشبيلى يدل على مبلغ ماوصل اليه العرب من معرفة طبائع الارض واستخراج كنوزها وطرق الرى والصرف وملاءمة التربة والطقس لزرع النباتات المختلفة . وقد أدخلوا فى زراعتهم

تحويل الزئبق الى ذهب (راجع جريدة غازيتة ألمانيا العامة عدد ١٧ يوليه سنة ١٩٢٤ وجريدة السياسة الغراء عدد ٣٠ يوليه)

من المشرق وشمال افريقية كثيرا من النباتات والاشجار كالقطن وقصب السكر والزعفران والنخيل وكانت فياض القمح وغابات الزيتون والبرتقال والتوت والكرم من أبدع ما ترى العين فى وديان الاندلس ومروجها الخضراء البديعة

وأما نبوغ العرب فى طرق الرى والصرف واستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية فتشهد به آثارهم الباقية الى الآن فى وديان الاندلس من القناطر والجداول الدارسة . وقد أقيمت فى عهد بنى أمية قناطر كبيرة وحفرت ترع ومصارف عديدة فى جهات مختلفة فى اسبانيا تشهد لصانعها بالمهارة والتفوق ولهم فى غرس الحدائق وتنسيقها شهرة فائقة . وقد كانت حدائق الرصافة والزهراء والزاهرة بدائع تشهد لهم بالبراعة وحسن الذوق ، وكانت مستقى خصيباً لخيال الشعراء والكتاب

الصناعة والتجارة : وقد ذكر ابن حوقل أنه كان فى اسبانيا فى عهد المسلمين مناجم عديدة للذهب والفضة وذكر آخرون انهم كانوا يستخرجون الحديد والرصاص والزئبق وغيرها من المعادن . وكان فى طليطلة وغرناطة مصانع كبيرة للحديد والصلب وكانت الاسلحة والذخائر تصنع بكثرة وتصدر الى افريقية . وكانت معامل الصوف والحرير تخرج أجود الاقمشة المصبوغة بأبدع الالوان كذلك كانت مصانع الخزف تخرج أرشق الاوانى وأجملها . وكان الجلد يدبغ ويصبغ فى قرطبة . وقد عرف العرب أيضاً صناعة الورق نقلوها من الصين ، وكانوا يصنعون منه الحرير ثم تدرجوا الى صنعه من القطن والكتان

وأما التجارة فقد بلغت شأوا بعيدا فى الاندلس وذلك لحسن موقعها وتوسطها من المغرب والمشرق . وكانت علائقها التجارية تمتد حتى القسطنطينية وثغور الشام والاسكندرية وكانت سفنها التجارية ترسو فى الثغور الايطالية وخاصة جنوا وروما وتجول فى أنحاء الادرياتيك وباقى أجزاء البحر الابيض وتصدر محاصيلها ومصنوعاتها الى هاتيك الاقطار

***

هذه نبذة موجزة فى حضارة الاندلس الزاهرة ، أوردناها كما قلنا شرحاً لنظم الحياة التى عاش فى ظلها المسلمون فى اسبانيا وبهروا بروعتها العالم الاوروبى ، نختتمها بتلك الكلمة البليغة التى استهل بها الاستاذ لابن بول كتابه (العرب فى اسبانيا)

« لبثت اسبانيا فى قبضة المسلمين ثمانية قرون وضوء حضارتها الزاهرة يبهر أوروبا . وأزهرت بقاعها الخصيبة بجهود الفاتحين . وانشئت المدائن العظيمة فى سهول الوادى الكبير ووادى يانا فلم يبق ثمة ما يذكرنا بماضيها المجيد سوى الاسماء، والاسماء فقط . وتقدمت بها الاداب والعلوم والفنون دون سائر الاقطار الاوروبية الاخرى فهرع اليها الطلاب من فرنسا وألمانيا وانجلترا ليردوا مناهل العلم التى كانت تفيض على البلاد العربية دون غيرها . كان جراحو الاندلس وأطباؤها من أبطال العلم ونوابغ الفنون ، ونبغت بقرطبة نسوة طبيبات شجعن على المثابرة فى الدرس والتعمق فى البحث . ولم تثمر وتكتمل زهرة العلوم الرياضية والفلكية والنباتية والتاريخ والفلسفة والتشريع الا فى اسبانيا العربية ، ومهر العرب الاسبان فى الزراعة وطرق الرى الفنية ، وفى فن التحصين وبناء السفن ، وفى صناعة الغزل. كذلك نبغوا فى فنون الحرب نبوغهم فى فنون السلام فلبثوا زمناً مديداً فى طليعة المتفوق الظافر وبينما كانت أساطيلهم تنافس الفاطميين سيادة البحر اذا بجيوشهم تحمل النار والسيف الى أمم النصرانية : فكل مايدعو الى عظمة أمة وسعادتها ، وكل مايؤدى الى رقى باهر وحضارة سامية فاز به مسلمو اسبانيا

« وفى سنة ١٤٩٢ م أرهقت الحرب الصليبية التى أثارها فرديناند وايزابيلا البقية الباقية من العرب ، وذوت عظمة اسبانيا بسقوط غرناطه . على انه سطعت لمدى قصير أشعة من ضوء الحضارة العربية فوق الارض التى طالما أنعشها بحرارته . فتضاءلت عظمة عصور فرديناند وايزابيلا وشارل الخامس وفيليب الثانى وكولمبس وكورتز وبيزارو لتموت بموتها دولة عظيمة . ثم خفقت أعلام الخراب بسيادة مجامس

التحقيق، وسادت بعد ئذ في ارجاء اسبانيا ظلمة حالكة. فأصبح لا يعرف الاطباء بأرض كانت علومها منيرة الا بالجهل والقصور. وبينما انشأت ابان الدولة الاسلامية سبعون مكتبة عامة لتغذية عقول الطلاب وحملت خمسمائة ألف من الكتب الى قرطبة لهداية العالم وارشاده اذ ساد الجهل، ورغب عن العلم، حتى ان العاصمة الجديدة (مدريد) لم يكن بها مكتبة عامة في القرن الثامن عشر: وضن بمخطوطات الاسكوريال في عصرنا على أول طامح الى وضع تاريخ الاندلس ولو انه اسباني. وقضى على فنون أشبيليه وطليطلة والمرية، وعفت صناعتها. واتلفت المعاهد العامة حتى تزول بزوالها آثار الاسلام وجردت المزارع من طرق الري التي برع العرب في تنسيقها فصارت قفرا بلقعاً وذبلت نضارة الوديان الخصيبة فاقفرت، وخربت معظم المدائن الكبيرة التي كانت تزين بجمالها بقاع الاندلس فحل البائسون والدهماء واللصوص مكان الطلاب والتجار والفرسان

« ذلك مبلغ انحطاط اسبانيا بعد أقصائها العرب، وهكذا يبدو البون شاسعا بين أدوار تاريخها! »

« تم »

فهرس كتاب تاريخ العرب فى اسبانيا